

دكتور
ف.ب. ماير

تعريب
القمص مرقس داود

حياة يوسف

تأليف

ف . ب . ماير

ترجمة

القمص مرقس داود



قداسة البابا المعظم الأنبا شنودة الثالث
بابا الاسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية

« وكان الرب مع يوسف فكان رجلا ناجحا .
ومهما صنع الرب ينجحه »

(تك ٣٩ : ٢ و ٣)

« كيف أصنع هذا الشر العظيم وأخطئ الى الله »

(تك ٣٩ : ٩)

« ليس أنتم أرسلتمونى الى هنا بل الله »

(تك ٤٥ : ٨)

« أنتم قصدتم لى شرا أما الله فقصد به خيرا »

(تك ٥٠ : ٢٠)

+++

مقدمة المعرب

(الطبعة الأولى)

مجدا للثالوث الأقدس الآب والابن والروح القدس

دون لنا الكتاب المقدس لمحة بسيطة عن حياة بعض أبطال العهد القديم والعهد الجديد .ولا شك فى أن من ضمن أغراض الوحى الالهى من تدوين هذه السير أن تكون لنا أنوارا نهتدى بها وسط ظلمات هذه الحياة .

وهذه سيرة أحدى تلك الشخصيات البارزة : حياة يوسف ، الذى كان من أبرز صفاته الأمانة المطلقة ، أمانة لوالده فى اطاعة أمره مهما كلفته الطاعة من مشقة ، ثم فى البر به فى شيخوخته ، أمانة لأخوته فى اقتفاء أثرهم لطلب سلامتهم ، ثم فى عدم الانتقام منهم بل اعالتهم هم وأولادهم فى محنتهم أمانة لفوطيفار فى خدمة بيته وكل مصالحه ، ثم فى موقفه المشرف مع امرأته ، أمانة للمسجونين فى خدمتهم ، ثم فى تفسير احلام البعض منهم ، أمانة لفرعون فى تفسير أحلامه ثم فى ادارة البلاد ادارة حازمة ، أمانة للمصريين وكل سكان الأرض فى تخزين القمح فى سنى الشبع ثم فى توزيعه فى سنى الجوع ، أمانة لمبادئه السامية ولو كلفته الأمانة أعماق السجون ، أمانة لالهه فى تمسكه به كخادم حقير ، وكسجين ذليل ، وكأمير شريف .

كان يوسف شابا فى عنفوان القوة ، وفى شبابه ، جرب بأقسى ما يجرب به الشبان ، ولكنه وقف ثابتا لا يتزعزع مع توالى التجربة عليه أياما . وهو فى ذلك يقدم مثالا عاليا للشبان ويقودهم الى سر الغلبة .

شرب يوسف كأس الآلام حتى الثمالة ، وفى كل أدوار حياته نراه لا يتطرق الشك الى قلبه ، ولا يتسرب الوهن الى عزيمته ، ولا تدب عوامل اليأس والفشل فى نفسه . وهو فى ذلك يقدم مثالا يأتى العون .

كانت حياة يوسف خليطا بين المر والحلو ، مرت عليها فترات ارتفاع كما مرت عليها فترات انخفاض . وفى جميع هذه الظروف المتناقضة ظل ثابتا على حال واحدة ، ظل متمسكا بكماله .وهو فى ذلك يقدم لنا أعظم مثال فى الثبات على المبدأ مهما تنكر لنا العالم أو تغير ، ومهما أبكى أو أضحك .

فالى الشبان الذين أحبهم حبا جما ، والذين قد أوقفت حياتى لخدمتهم ، الى الذين قد مست قلوبهم نيران التجارب والآلام ، الذين تعطف عليهم السماء وكل سكان السماء ، الى الذين يعبرون برية هذه الحياة المليئة بالمرتفعات والمنخفضات ، أقدم هذا الكتاب متوسلا الى القدير أن يجد فيه كل قارئ تعزية لنفسه وبركة لحياته .

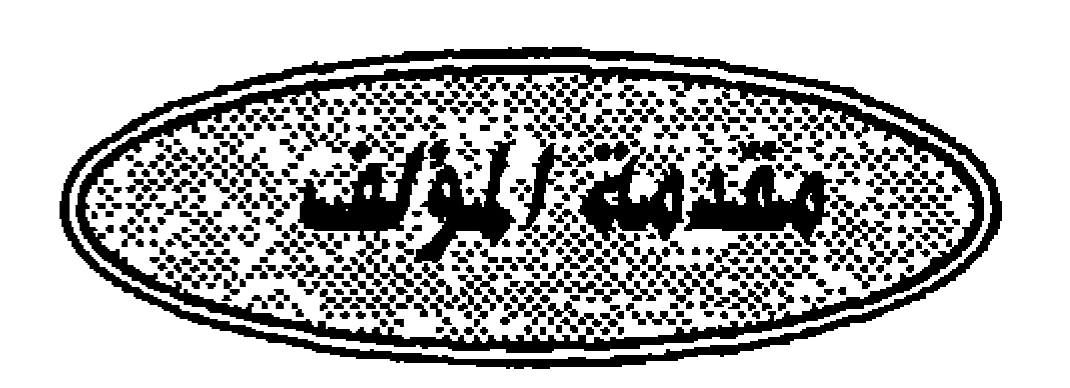
واعترافا بالجميل أقرر هنا شكرى القلبى لتلك الجمعية الفتية - جمعية المحبة القبطية الأرثوذكسية بالقاهرة - التى قد هيأها لنا الرب فى الأيام الأخيرة لنشر المؤلفات النافعة والكتب النفيسة ، والتى قد أصبحت توفر على المؤلف أو المعرب ذلك المجهود الشاق الذى كان عليه ان يبذله فى الطبع والنشر والتوزيع ، والتى نرجو لها النمو والأزدهار .

كذلك لا يفوتنى أن أقدم شكرى الوافر لحضرة الباحث المدقق الأستاذ توفيق أسكاروس الذى تكرم باعارتنا سفرا نفيسا أخذنا عنه الصور التى حلينا بها صفحات هذا الكتاب .

١٤ فبراير ١٩٣٧

٧ أمشير ١٦٥٣

حافظ داود



مقدمة المؤلف

كان سفر « حياة يوسف » أول مؤلفاتى عن شخصيات الكتاب المقدس، ومنذ ذلك الحين أصبحت لحياة يوسف جاذبية خاصة لى ، ليس فقط بسبب جمالها العجيب بل أيضا بسبب نبواتها الواضحة عن تلك الحياة الأسمى التى أنارت ولا زالت تنير كل حياة .

لا زلت أذكر أحد المناظر التى رأيتها ، هو أننى رأيت جبل « ماترهورن » ، أحد جبال الألب الضخمة ، منعكسا بكل تفاصيله - حتى الدقيقة منها - على وجه بحيرة جبلية صغيرة تبعد عنه بعدة أميال . وعلى هذا القياس نستطيع القول أن حياة الرب يسوع تنعكس بكيفية عجيبة فى هذه الرواية الجذابة .

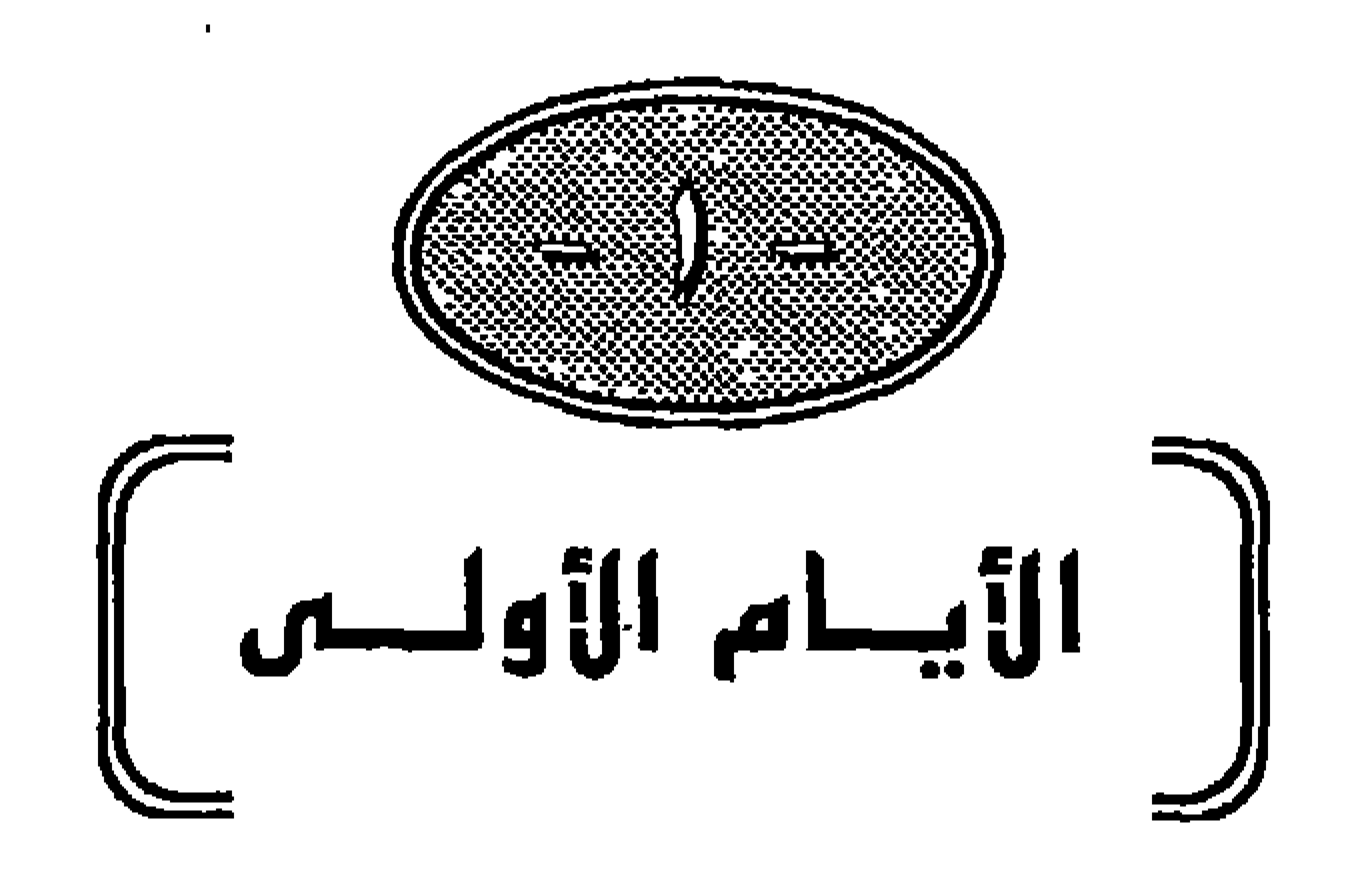
الواقع أن فى سيرة يوسف مناظر يرجح أنها تعكس مقدما حوادث قصد لها أن تحدث فى المستقبل القريب ، وتتنبأ عنها بوضوح ودقة لا يوجدان فى أى مكان آخر فى الكتاب .

فى هذه السيرة فقط نتحقق تماما مما سوف يحدث عندما يعرف الرب يسوع نفسه بأخوته حسب الجسد ، وعندئذ يصرخون « هذا هو يسوع أخونا » .

نشرت مادة هذا السفر منذ بضع سنوات . ولكنه أعيدت كتابته ، وأضيفت اليه مادة جديدة كثيرة ، فصار فى الواقع كتابا جديدا . وها أنا أقدمه لجماعة المسيحيين راجيا أن يجد نعمة عظيمة ولذة خاصة لدى الشباب ، بل لدى جميع الذين يتشوقون أن يسمعوا مرة أخرى تلك القصص القديمة التى كانت لها جاذبة خاصة لهم كصبية عندما قصها عليهم أناس أفاضل رحلوا الى عالم الأبدية .

ف. ب. ماير

+++



(تك ٣٧)

وراء حياتنا يقف النساج الأعظم ليتمم مشيئته العجيبة .فلنترك كل أمورنا في يده الحكيمة ولنثق في فطنته اللانهائية .
واذا ما غمضت عنا بعض خططه بسبب قصر نظرنا فلا نحاول أن نتكشف كل الأمور بل لنترك له تدبير كل شئ .

« مرى »

قال أحدهم أن مهمتنا العظمى هى أن ننفض عن الحقائق غبار الأهمال الذى تراكم عليها بسبب التسليم العام الذى قوبلت به . هذا قول حق . فانه أينما وجدت حقيقة تدافع عن بقائها اضطر البشر – أرادوا أو لم يريدوا – للتأمل فيها . أما اذا استقر بها الأمر لمهمة عظمى أن ننقذ أمثال هذه الحقائق من الأهمال ، أن نسلط عليها نورا قويا يسترعى الانتباه . وهذا ما أقصد اليه من كتابة هذه السيرة العاطرة . فنحن نظن أننا نعرف عنها كل شئ ومع ذلك قد تكون هنالك معان عميقة ومناظر جميلة خفيت عنا لأنها صارت مألوفة لنا .

فلنتأمل معا فى حياة يوسف ، وعندئذ نستطيع أن نتكشف الكثير من الحقائق عن ذاك الذى طرح فى جب الموت ، ولكنه يجلس الآن عن يمين القوة رئيسا ومخلصا .

(١) المؤثرات التى تأثرت بها حياته الأولى :

قبل أن تبدأ روايتنا بسبعة عشر عاما ولد طفل لراحيل ، وزوجة يعقوب المحبوبة . كان يعقوب وقتئذ يعمل فى ادارة شئون خاله لابان فى مراعى حاران القديمة الكائنة فى وادى الفرات والدجلة ، والتى دعا منها الله جده ابراهيم . استقبل الطفل استقبالا حارا من والديه ، ومنذ البداية أظهر أنه ينتظره مستقبل مزدهر غير عادى . كان كأحد أولئك الصبية الذين نجدهم احيانا فى العائلات الكبيرة متميزين عن سائر رفاقهم .

ويا له من تاريخ جليل مر فى تلك الفترة . فانه اذ كان لا يزال طفلا حملته أمه بسرعة ، واحتضنته ممتطية ظهر جمل يساق بأقصى سرعة ، عندما هربت العائلة عابرة الصحراء الجرداء ، التى لا يوجد بها سوى واحة واحدة ، والممتدة من شاطئ نهر الفرات الى مراعى جلعاد الخضراء.

وهو بالكاد يذكر الفزع الذى انتشر فى كل أرجاء المحلة عندما وصلت الأنباء بأن عيسو - عمه الحانق - يتقدم مسرعا وبرفقته أربعمائه من أتباعه . وأنى له أن ينسى تلك الأمسية التى كانت مليئة بالاستعدادات ، وليلة الانتظار الرائعة ، وذلك الصباح الذى ظهر فيه أبوه وهو يخمع على حق فخده فى المحلة ، والذى فيه بدت على وجهه امارات العظمة الروحية بالرغم من تشوه جسده .

كان كذلك يذكر الاسراع فى الهرب من عبدة الأوثان الثائرين فى شكيم ، وتلك الساعات الرهيبة فى بيت ايل التى يرجح أن أباه أراه فيها

نفس الموقع الذى ارتكز فيه ذلك السلم الرمزى والذى فيه دخلت كل الجماعة فى عهد جديد مع الله .

قد تكون هذه هى نقطة التحول فى حياته ، فمثل هذه الأحداث لها تأثير عميق فى قلوب الصبية . ولعل باقى أولاد يعقوب ظلوا متفرجين عديمى التأثر حينما وقفوا معا فى تلك البقعة المقدسة ، وسمعوا تلك الرواية التى طالما رددت على مسامعهم ، وأمسكوا بأيدى بعضهم البعض أثناء قطع العهد المقدس . أما الصبى الصغير فقد تأثر قلبه الحساس كل التأثر ، ولعل هذا كان لسان حاله : « لأن الله هذا هو الهى الى الدهر والأبد . هو يهدينى حتى الى الموت » (مز ٤٨ : ١٤) .

أن صح هذا فان هذه التأثيرات سرعان ما عمقها موت ثلاث شخصيات . لأنهم عندما وصلوا مقر العائلة اصطدموا بموت دبورة ، تلك المرضعة القديمة . كانت هى آخر حلقة لتلك الأيام المزدهرة التى أتت فيها سيدتها الشابة رفقة عابرة الصحراء لتكون زوجة لأسحق . بعد ذلك دفنوها فى دموع غزيرة تحت بلوطة قديمة .

كذلك لم ينس قط الحادث التالى : فقد كان الركب يتحرك ببطء نحو قرية بيت لحم القديمة . وبغتة توقف ، فان راحيل المحبوبة لم تستطع أن تخطو خطوة واحد . عند غروب الشمس ، وسط المناظر التى التقى فيها فيما بعد بوعز براعوث ، والتى كان داود يرعى فيها غنمه ، والتى سار فيها يوسف البار بجوار الحمار يحمل الأم المطوبة وأبنها القدوس - هنالك ما تت راحيل أم يوسف . وكانت هذه أكبر خسارة حلت به .

وبعد فترة وجيزة وقف الصبى مع أبيه وأخوته أمام مغارة المكفيلة الرهيبة لدفن اسحق فى الموضع الذى كان ينتظره فيه ابراهيم وساره ورفقة ، حيث كان مزمعا أن يدفن أباه يقعوب بعد سبع وعشرين سنة .

كانت هذه هي المؤثرات التي صاغت حياة يوسف . إما القليل من العطف الذى لقيه من أسرته فانه طوح به بعيدا ، واضطره أن يعيش بجوار عين (تك ٤٩ : ٢٢) ويؤصل جذوره عميقا في الحياة الألهية .

قد يقرأ هذه السطور بعض الشبان في سن السابعة عشر ممن يجوزون ظروفا كظروف يوسف. ربما يكونون قد فقدوا بعض الأصدقاء الأتقياء ، أو أفرغوا من آنية لأخرى ، أو يشعرون بالوحشة وسط أوطانهم . دعني أسألهم بكل وقار عما اذا كانوا قد دخلوا في عهد مقدس مع الله هل عقدتم النية على أن يكون الله الهكم ؟ هل وضعتم أيديكم في يد « عزيز يعقوب » ؟ (تك ٤٩ : ٢٤) .

هذا سؤال خطير لأن الاجابة عليه قد يتوقف عليها مصير حياتكم . اختاروا المسيح ، وباختياره تختارون الحياة والبركة والسماء ، واذا ما اخترتموه تمسكوا به ، وعمقوا جذوركم إلى عيون الشركة العميقة معه .

(٢) اختبارات حياته العائلية :

كانت ليوسف موهبة الذكاء الخارقة العادة . كان يبدو كأنه رئيس رعاة (ع ٢) ، وأن أبناء بلهة وزلفة يعملون كمساعدين له خاضعين لأمره . يصفه ربابنة اليهود بأنه كان ابنا حكيماً وهب حكمة تفوق سنه . من أجل هذا ، ومن أجل حلاوة طبعه وذكريات أمه ، أحبه أبوه محبة خاصة . « وأما اسرائيل فأحب يوسف أكثر من سائر بنيه » .

وهذه المحبة أعدت له قميصا ملونا . اعتدنا أن نظن بأن هذا القميص كان قميصا مرقعا من قطع كثيرة ذات ألوان مختلفة ، وأنه ليأخذنا العجب من أن رجالا بالغين يأكل قلبهم الحسد والغيرة لدى تطلعهم الى قميص كهذا كان يلبسه أخوهم الصغير ولكننا اذا ما دققنا البحث تصححت هذه الآراء فالكلمة العبرانية تعني مجرد جلباب طويل مما يلبس عادة في مصر

والأقطار المجاورة . تخيل جلبابا طويلا مصنوعا من كتان أبيض يصل الى الكعبين ، ويصل الكمان الى المعصمين ، مزينا بشريط ملون على حافته ، وعندئذ تتكون لديك فكرة عن هذا القميص الحافل بالذكريات .

ونحن الآن نستطيع أن ندرك سبب حسد اخوته . فقد كان هذا القميص لا يلبســه الا أولاد الموسـرين والأشـراف ، وأولاد الملوك ، ومن لا تدفعهم الحاجة ليكدوا فى سبيل العيش . أما كل الذين كان يجب أن يأكلوا خبزهم بعرق جبينهم فكانوا يلبسون الملابس القصيرة الداكنة اللون ، لكى لا تظهر عليها آثار الأقذار ، أو تعيق حركة الأطراف . هذا كان نصيب أولاد يعقوب من الكد والكفاح وهكذا كانت الملابس التى يلبسونها ، ويحملوا على مناكبهم الحملان الضالة ويكافحوا مع اللصوص والوحوش المفترسة . اذن فلم تكن الملابس الطويلة تليق بمثل هذه الأعمال العنيفة .

ولكن عندما أعطى يعقوب مثل ذلك القميص ليوسف فقد أعلن بالتبعية أن ابنه المدلل يجب أن يعفى من الكفاح والنضـال . وفى تلك الأيام كانت ارادة الأب قانونا . ولذلك فعندما رأى اخوته أن اخاهم قد تهندم بهذا القميص أحسوا بأنه سوف يكون له نصيب الأسد فى المعيشة ، أما هم فيجب أن يعيشوا حياة التعب والنصب . « فلما رأى اخوته أن أباهم أحبه اكثر من جميع اخوته ابغضوه ولم يستطيعوا أن يكلموه بسلام » (ع ٤) .

وتحرج الأمر بسبب أحاديثه الواضحة . فانه « أتى بنميمتهم الرديئة الى أبيهم » (ع ٢) . قد يبدو لنا لأول وهلة أن هذه صفة ذميمة فى أخلاقه . فالمحبة تستر كثرة من الخطايا ، كما ستر ابنا نوح عورة أبيهما . ولكن لعله كانت هناك ظروف تبرر بل تأمر بافشاء الأمر . قد تتطلب الشفقة المخلصة أحيانا أن نفضح أخطاء من نعيش ونعمل معهم ، ان كنا لا نفلح فى معالجتها بالنصائح المتكررة . لأننا ان سمحنا لهم بالاستمرار

فى الخطية دون ان نفضحها فيها ، وازدادوا جرأة ووقاحة ، وتوغلوا فيها الى مدى أبعد .

وفضلا عن ذلك فالأرجح أن يوسف كان مكلفا برقابتهم ومسئولا أمام أبيه عن تصرفاتهم . لقد كان غيورا على سمعة العائلة التى كانوا قد لوثوها بين سكان الأرض (تك ٣٤ : ٣٠) . وكان غيورا على مجد الله الذى كان يجدف على اسمه دواما بسببهم . ولذلك أخبر أباهم بحقيقة الموقف . دون أن يحاول اخفاء الشر .

كان هذا سببا كافيا لكى يبغضوه : « لأن كل من يعمل السيئات يبغض النور » (يو ٣ : ٢٠) . قال أخـاب الحانـق عن ميخا « اننى أبغضه لأنه لا يتنبأ على خيرا بل شرا » (١ مل ٢٢ : ٨) . وقال ربنا حزينا « لا يقدر العالم أن يبغضكم ولكنه يبغضنى لأنى أشهد عليه أن أعماله شريرة » (يو ٧ : ٧) . وهذا ما يحصل دواما : أن العالم ان أحبنا وتحدث عنا حسنا كان خليقا بنا ان نتساءل عما اذا كنا ملحا نقيا لاذعا وسط فساد العالم أو أنوارا وسط ظلماته الدامسة . لأنه حالما تصبح حياتنا مخالفة لمستوى العالم ، وموبخة له ، فلابد أن نهيج سخطه وحنقه . قال أحد حكماء اليونان قديما : « أى شر صنعت حتى يمدحنى جميع الناس » ؟ .

والأكثر من ذلك أن يوسف حلم بأنه سوف يكون مركز الدائرة لكل الأسرة . جميع الشبان يحلمون . ما لم يكن نصيبنا فى الحياة قاسيا ومشئوما فاننا جميعا فى أيام الشباب المشرقة نلبس قميص يوسف ونحلم ، نحلم بالعظمة التى تنتظرنا والنجاح الذى نتوقعه ، نحلم بالنبل والبطولة ، نحلم بالخير الذى سوف نحصل عليه ونسديه للآخرين . نحلم بأن السماء سوف تمطر البركات الوفيرة ، وأن الأرض سوف تمهد الطريق لأرجلنا بالرياحين ، وتقدم لأفواهنا الثمار النقية ، وأننا سوف

نتفوق على جميع من سبقونا ، ونجلس على عروش العظمة ، ويخضع لنا كل أعدائنا ومقاومينا . ولكننا للأسف سرعان ما نجد أن قميصنا لطخ بالدماء ، وأننا طرحنا فى الجب ، أو بعنا كعبيد .

أما أحلام يوسف فانها لم تتنبىء عن رفعته فقط ، بل عن اذلال اخوته أيضا . ان كان هو الحزمة المتوسطة فان حزمهم يجب أن تخضع بالسجود حولها . ان كان سوف يرتقي الى العرش فان الشمس والقمر والكواكب يجب أن تسجد له .

هذا ما لم يستطع اخوته المتعجرفون أن يحتملوه « فازدادوا أيضا بغضا له » (ع ٥) .

وكان هنالك سر أعمق لعداوتهم . عندما خاطب الله الحية فى جنة عدن قال لها « وأضع عداوة بينك وبين المرأة نسلك ونسلها » (تك ٣ : ١٥) . هذه من أعمق كلمات الكتاب المقدس هى المفتاح لكل أسفاره . فكل ما يأتى بعدها انما يبرهن على عنف الصراع بين أولاد الله وأولاد ابليس ، وعلى أن هذا الصراع شامل للجميع . لقد ظهرت هذه العداوة بين قايين وهابيل . لقد مررت كل حيـاة عائلية ، ومزقت شمل كل بيت وسوف تهز كل المسكونة .

كان هذا هو سر النزاع الذى شجن حول يوسف . واننى أعتقد أن البيت كان سيء التدبير ، وانه كان مليئا بكل أنواع الشرور التى تنجم عن تعدد الزوجات ، وأن يعقوب كان غير كفء لادارة شئونه .

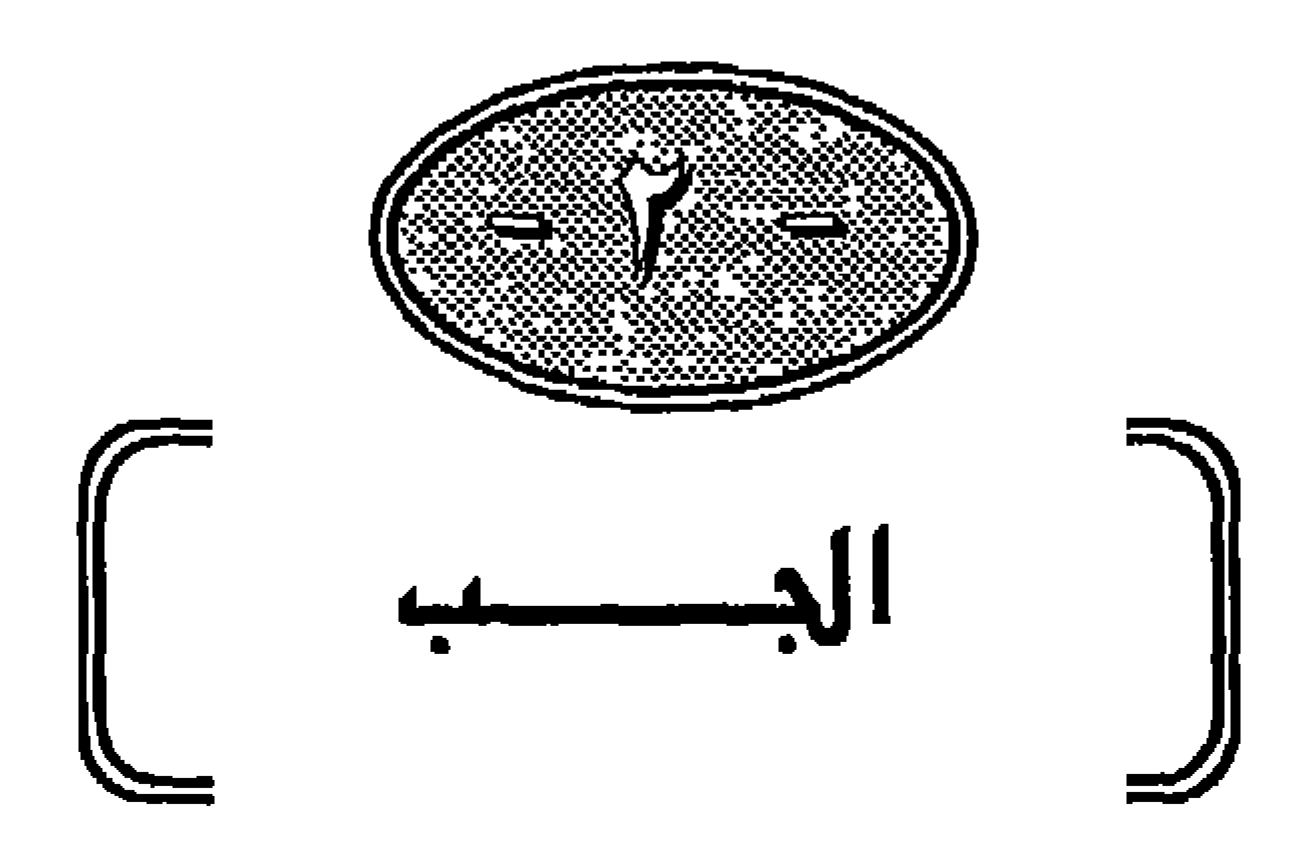
ولكننى أرى فيه أيضـا عينة من ذلك النـزاع الذى تحدث عنه المسيح « جئت لأفرق الانسان ضد أبيه والابنة ضد أمها ... وأعداء الانسان أهل بيته » (مت ١٠ : ٣٥ ، ٣٦) .

أيها القارىء العزيز : هل اختبرت فى حياتك ذلك الاختبار المر الذى اختبره يوسف ؟ هل تصوب السهام نحوك ؟ هل تحس بالوحشة والانقباض ، وكدت تبتلع من فرط اليأس ؟ تشجع ، عالما أن هذا الطريق قد سلكه آخرون قبلك . لقد عومل المسيح ربك نفس المعاملة من خاصته . استمر فى عمل الخير غير مخوف بشىء من خصومك . كن رحيما رقيقا ، مسامحا محتملا . احذر بصفةخاصة من أن تعالج أمرك بنفسك طالبا الانصاف بغطرسة .

ان كنت خادما فاحذر من أن تقابل الاساءة بالاساءة . قدم ظهرك للضاربين وخديك للناتفين . لا تنتقم لنفسك . بل اعط مكانا للغضب . اقتف نفس الآثار التى سلكها المخلص . لأنه ترك لنا مثالا لكى نتبع خطواته . انه لم يفعل خطية ولا وجد فى فمه مكر . ومع ذلك فانه اذ شتم بلا مبرر لم يشتم عوضاً ، واذ تألم ظلما وعدوانا لم يذكر مضطهديه حتى بدينونة الله العادلة . بل صمت كحمل وديع ، لم يهدد بل سلم لمن يقضى بعدل (١ بط ٢ : ٢٢ و٢٣) .

وماذا كانت النتيجة ؟ لقد جاز يوسف أحقاد ومقاومة أعدائه . وتمت أحلامه حرفيا فى أيام سعادته الذهبية التى أتت أخيرا كما جلس يسوع – بعد الصليب – عن يمين الله رئيسا ومخلصا .

وأنت يا من تتجرع كأس الآلام الآن ، ثق بأنه لابد أن يأتى أخيرا ذلك الوقت الذى يظهر الله فيه حقك وينتقم لظالمك « اتكل على الرب وافعل الخير .. سلم للرب طريقك واتكل عليه وهو يجرى . ويخرج مثل النور برك وحقك مثل الظهير ة . انتظر الارب واصبر له .. كف عن الغضب واترك السخط ، ولا تغر لفعل الشر . لأن عاملى الشر يقطعون والذين ينتظرون الرب هم يرثون الأرض » (مز ٣٧ : ٣ – ٩) .



الجـــــب

(تك ٣٧)

كل ما هـــو كائن وكل مــا ســـيكون

انمــا هو من الله .

ويكفيـــنا أن نـــعلم بأن الله صــــالـح

فلنـــتكل على ارادتـــه اتكال الاطفال

لأنه يحرك كل الأشياء لاتمام مقاصده

(هوبتير)

ان صـليب ربنا يسوع المسيح هو مركز الدائرة لكل تاريخ البشرية . هو الشمس الذى تدور حوله كل الأفلاك . هو المفتاح لكل تاريخ الكتاب المقدس ورموزه ، هو الحقيقة التى تعطى معنى وجمالا لكل الحقائق الأخرى . فتجاهل الصليب ليس الا تكرارا لغلطة الفلاسفة القدماء الذين توهموا أن الأرض - لا الشمس - هى مركز الكون والذين كانت السماء نفسها فى نظرهم مجرد نظام مشوش . ومعرفة الصليب ومحبته . والوقوف بجانبه ، كما فعلت النسوة المباركات وقت موت يسوع معناه ادراك أسرار تناسق كل ما فى السماء والأرض .

مما تجب ملاحظته بصفة خاصة أنه يوم آلام مخلصنا - وكان فى وقت الاعتدال - كان كل العالم منيرا بين الساعة التاسعة صباحا

والسادسة مساء . فلو أن ملاكا وقف فى كبد السماء فى تلك الساعات الرهيبة لكان قد رأى كل قارة ملتحفة بضياء الشمس على التوالى ، فى الساعة التاسعة صباحا كانت الهند فى وقت الظهر ، وكانت أسيا أقصى حدودها الشرقية ، منيرة . وفى وقت الظهر كانت كل أوربا وكل افريقيا فى ضياء كامل . وفى الساعة السادسة مساء كانت كل قارة أمريكا فى ضياء تام .

قد يصلح هذا لكى يقدم لنا مثلا . قف فوق الصليب ، وتطلع الى الخلف الى صباح (بداية) تاريخ الأرض ، ثم تطلع الى الأمام الى مسائه (نهايته) ، وعندئذ ترى كل شىء منيرا . فان الأشعة التى تنبعث من الصليب تضىء كل الحوادث ، وتبدد كل ظلمة .

عندما تخطر ببال الفنان فى الموسيقى ، أو التصوير أو النحت ، فكرة جميلة فانه يحرص على أن لا تفلت منه ، ويرسم لها رسما كروكيا الى أن يخرجها فى جمالها الكامل . ولا يهدأ له بال الا بعد أن يعصر ذهنه وفنه فى الطرق المختلفة التى يعبر بها عن فكرته . والمتطلع الى اللوحة يرى الفكرة العامة ، ثم الرسم الكروكى ، ثم الخطوط الخفيفة . وهذه كلها اعداد للصورة الكاملة التى تكمل فيما بعد .

أليس هذا صحيحا أيضا فيما يتعلق بموت ربنا الحبيب ؟ فان الفنان الأعظم ، اذ افتتن قلبه بالصليب العجيب ، ملأ العالم بالاشارات والرموز له قبل أن ينتصب على الجلجثة منبسطة عليه اليدان المباركتان . ترى هذه الاشارات والرموز فى أساطير الوثنيين ، أو الأقوال القديمة السحيقة . تراها فى الأحداث العجيبة فى التاريخ البشرى . وقبل كل شىء تراها فى صفحات الكتاب المقدس . فالعصور اللاحقة للصليب مليئة بالاشارات ، ولو لم ينتبه اليها المتطلعون .

ان أشعة الشمس ، المنبعثة الآن من الصليب لتنير العصور الحالية ، كانت تنبعث منه قديما لتنير العصور السحيقة ومن ضمن هذه الأشعة التى سطعت قديما تلك التى نراها ساطعة فى قصة يوسف الحلوة هذه .

يرى القارىء العادى ، عندما يقرأ عن المظالم التى حلت بيوسف ، وانتشاله من الجب ليتربع على العرش ، أن هذه مجرد رواية عذبة بالنسبة لبساطتها وجمالها . أما القارىء الذى التهب قلبه بمحبة الصليب فيرى فيها جمالا أعمق . يرى فيها جلجثة مصغرة . يرى فيها « بروفة » لاقسى مأساة مثلت بين البشر .

ونحن لا نستطيع أن نفعل شيئا أفضل من التأمل فيها سطرا سطرا لنرى كيف أكملت الظلال فى الحقيقة المجيدة .

(١) ارسالية يوسف :

« سكن يعقوب فى أرض غربة أبائه » عندما دفن يعقوب أباه الشيخ ظل مقيما فى وادى حبرون ، حيث سكن اسحق قرابة مائتى عام ، وحيث سكن ابراهيم من قبله . كان هذا هو مركز قيادة محلته المترامية الأطراف . ولكن بالرغم من غنى مراعى حبرون فانها لم تكن كافية لكل الأغنام والمواشى . فاضطر الأبناء لأخذها تدريجيا الى أماكن أبعد . بل اضطرتهم الحاجة الملحة للمخاطرة بالذهاب الى أرض أهل شكيم ، الذين سبق أن أساءوا اليهم اساءة بالغة ، والذين سبقوا أن توعدوهم بالانتقام منهم من أجل فعلتهم الشنعاء بهم .

هذا ما حدا بيعقوب للسؤال « أليس اخوتك يرعون عند شكيم ؟ » (ع ١٣) . كان قد سمعهم يتحدثون عن الذهاب اليها للبحث عن مراع . وهوذا قد انقضت عدة أسابيع منذ أن سمع عن سلامتهم . وقد جعلته

ذكريات الماضى فى غاية القلق من جهتهم . ولقد تملك عليه هذا القلق بشدة حتى جعله يتصرف ذلك التصرف الذى لم يكن يخطر بباله لو لم يواجه هذا الموقف .

لم يكن معه فى حبرون الا يوسف وبنيامين حبيباه ، اللذان أحبهما بنفس المحبة التى أحب بها أمهما . كان بنيامين صغيرا ، أما يوسف فكان قد بلغ السابعة عشر . كان الشيخ قد استبقاهما معه لأنه لم يرد أن يبعدا عن نظره . أن كلمة حبرون فى العبرانية تحمل معنى الشركة ، وكانت مكانا خليقا باقامة أشخاص ارتبطت قلوبهم برابطة وثيقة مثلهم . ولكن الرجل الشيخ فى نفس الوقت اشتعل قلبه بحنين نحو أولاده المتغيبين . وأخير ، بعد تردد طويل ، ومصارعات عنيفة داخلية ، قال فجأة ليوسف العزيز « تعال فأرسلك .. ، اذهب انظر سلامة اخوتك .. ورد لى خبزا » (ع ١٣ و١٤) .

لم يتردد يوسف لحظة واحدة . فى لمح البصر تحقق من أخطار الارسالية ، أخطار المياه ، أخطار اللصوص ، أخطار الوحوش أخطار الليالى الليلاء ، أخطار من اخوة كذبة أبغضوه بشدة . ولكنه لم يحسب لشىء من هذه ولا حسب نفسه ثمينه عنده (أع ٢٠ : ٢٤) . حالما علم ارادة والده قال « هأنذا » وهكذا « أرسله يعقوب ، فأتى » .

على أن يوسف لم يذهب فى طلب أخوته لمجرد ارسال أبيه اياه . فلو أن الأمر كان كذلك لعاد الى بيه عندما ادرك أنهم تركوا شكيم المخيفة بسلام . لكنه عوضا عن هذا بحث عنهم لأنه أحبهم ، وسعى فى أثرهم حتى وجدهم .

ألا تشير هذه الارسالية الى ارسالية أسمى ؟ لم يمل ربنا من أن يدعو نفسه مرسلا من الآب . يندر أن تجد صحيفة فى انجيل يوحنا لم يكرر فيها هذا القول « لم آت من نفسى بل الآب أرسلنى » كان يحلو له أن يجد رمزا لارساليته فى اسم بركة سلوام (وتفسيرها « مرسل ») . وهكذا صارت هذه العبارة مألوفة لكتبة العهد الجديد « الله أرسل ابنه » ، « الآب أرسل الابن ليخلص العالم » .

لابد أنه قد كلف يعقوب ثمنا غاليا أن يفارقه يوسف حبيبه . وهذا يمكن أن يتحققه الذين فقدوا أحباءهم . ولكن من ذا الذى يستطيع وصف مقدار ما كلف الله أن يرسل ابنه الحبيب الكائن فى حضنه منذ الأزل ؟ يجب أن لا نتوهم أن الله خال من العواطف كأبى الهول ، الذى يتطلع الى الصحراء أمامه بوجهه الصامد وعينيه الحجريتين ، دون أن يتحرك ، ودون أقل احساس أو عاطفة . أنه يحب كما نحب وأكثر . ولذلك فانه يتألم من نفس العوامل التى نتأثر بها نحن ، لكنه يحزن بما يتناسب مع قوة طبيعته اللانهائية . اذن فيالها من محبة عميقة تلك التى أحبنا بها حتى ارتضى أن يرسل ابنه . يقينا أنه « هكذا أحب الله العالم » . ومن ذا الذى يستطيع أن يسبر غور هذه الكلمة الصغيرة الواحدة « هكذا » ؟ .

على أن مخلصنا لم يأت لمجرد أنه أرسل . لقد أتى لأنه أحب ارساليته . اتى يطلب ويخلص ما قد هلك . أتى بصفة خاصة طالبا اخوته . خاصته اليهود . لو كانت قد أتيحت لك الفرصة لتوجه اليه هذا السؤال بنفس اجابة يوسف « أنا طالب اخوتى » . على أنه لم يكتف بمجرد البحث عن الضال ، بل سعى وراءه حتى وجده « فذهب يوسف وراء اخوته فوجدهم فى دوثان » (ع ١٧) .

ان مثل هذا الخروف الضال ، ومثل الدرهم المفقود ، لا يقلان جمالا عن مثل الابن الضال ، لأننا نجد فى المثلين الأولين شخصا لم يحتمل أن يفقد شيئا فبدأ يبحث ، ونجد أن البحث ظل مستمرا حتى أمكن العثور على المفقود . أيها القارىء العزيز ! قد يكون الرب يسوع يبحث عنك أنت بالذات ، وظل يبحث عنك أياما كثيرة مضنية ، بقدمين داميتين أو شمعة موقدة . وقد لا تكون الرغبة أو الشجاعة متوفرة لديك للبحث عنه . لكن تشجع ، فانه لن يهدأ له بال حتى يجدك .

(٢) استقبال يوسف :

« فلمـــا أبصـــروه من بعيـد قبلما اقتــرب اليهــم احتالوا له ليميتــوه » (ع ١٨) . ولولا توسلات رأوبين ، الأخ الأكبر ، لكانوا بلا شك قد قتلوه بلا رحمة ، وطرحوا جثته فى جب بعيد . « فكان لما جاء يوسف الى اخوته أنهم خلعوا عن يوسف قميصه القميص الملون الذى عليه وأخذوه وطرحوه فى البئر » (ع ٢٣ ، ٢٤) ولقد شهدت الأرض كثيرا من الجرائم الوحشية التى ارتكبت على وجهها بأيدى بنيها ، ولكنها لم تشهد قط جريمة أكثر وحشية من هذه . فقد دلت على الخسة والجبن ، وكانت دناءة من تسعة رجال بالغين أن ينقضوا على صبى واحد صغير مسالم أعزل .

لم يدون كاتب سفر التكوين شيئا عن عواطف الأخوة ، ولا عن آلام ذلك الفتى الصغير النفسية ، الذى وجد أنه ليس من الهين أن يموت ، ليس من الهين أن يودع الأرض الجميلة ، ليس من الهين أن ينزل الى أعماق ذلك الجـب المظلم ، الذى لم يترك له عمقه آية بارقة أمل فى الصعود ثانية ، وتنسم الهواء الطلق . لكن اعتراف هؤلاء الرجال القساة القلوب الذى اعترفوا به بعضهم البعض بعد خمس وعشرين سنة يمكننا من تخيل وصف تلك العواطف والآلام التى اقترنت بهذه الجريمة المرعبة .

بعد انقضاء تلك السنوات قالوا بعضهم لبعض « حقا اننا مذنبون الى أخينا الذى رأينا ضيقة نفسه لما استرحمنا ولم نسمع » (ص ٤٢ : ٢١) . أى اعلان تقدمه الينا هذه الكلمات ! أنه ليخيل الينا أن يوسف كان فى تلك الأيدى القاسية كحمل وديع بين أنياب نمر مفترس . أننا نتصوره يجاهد للخلاص من أيديهم ، يتوسل اليهم بدموع غزيرة ليخلوا سبيله . يتوسل اليهم بحق والدهم الشيخ ، وبرابطة الأخوة . وتتضح آلامه النفسية من صرخاته المرة ودموعه وتوسلاته . أسفا أيها الشاب الصغير المتألم ! ليتنا نصدق أن صرخاتك المرة كانت هى الوحيدة التى أنتزعتها العواطف الوحشية من نفس بريئة .

تأمل هنا أصل الجريمة : كان هنالك وقت جثمت فيه جرثومة هذه الخطية على قلوبهم فى شكل الشعور بحسد الشاب صاحب الاحلام فلو أنهم قتلوا تلك الجرثومة فى بدايتها لما كانت قد توالدت فيما بعد ونمت . ولكنهم مع الأسف لم يحاولوا ، بل سمحوا لها أن تعمل فى داخلهم عمل الخميرة فى العجين . « والشهوة اذا حبلت تلد خطية ، والخطية اذا كملت تنتج موتا » (يع ١ : ١٥) فاحرص من أن تدع جرثومة واحدة للخطية تدخل الى قلبك وتستقر فيه . لأنك ان سمحت لها بذلك جلبت على نفسك الخراب المحقق . لأنها لابد أن تتمـلك عليك بسلطانها الغاشم ان عاجلا أو آجلا . عالج هذه الجرثومة كما تعاج أول جرثومة للحمى تدخل بيتك . حالما تشعر بالخطية اطلب التطهير منها عاجلا فى دم المسيح الثمين .

الخطية التى لم تغفر مصدر عذاب مرعب للضمير : توالت السنون ، ولكنها لم تستطع أن تمحو من ذاكرتهم تلك النظرة ، وتلك الصرخات ، وذلك المنظر الذى شهدوه فى مراعى وادى دوثان الذى تحيط به الجبال العالية ، وتسقفه زرقة السماء ، وتنيره الشمس وقد انتصفت فى

كبد السماء . لقد حاولوا مرار انتزاع كل آثار تلك الجريمة من ذاكرتهم ، وطرحها فى بحر النسيان ، ولكنها كانت توجههم دواما ، حتى فى أشد ساعات الحرص ،. كانوا يظنون أحيانا أنهم رأوا فى أحلامهم ذلك الوجه المكتئب ، وسمعوا تلك الصرخات الداوية . كان والدهم الشيخ أسعد حالا فى حزنه على ابنه كميت ، منهم فى معرفتهم بأنه حى وهكذا ترى أن جريمة واحدة قد تظلم الدنيا طول الحياة . يظن البعض أن الله رحيم جدا لدرجة أنه لا يقتص من البشر . ولكنه فى الواقع خلق العالم بحيث تكون الخطية هى نفس جزائها العادل فالخطية تحمل معها بذرة قصاصها . وكل الذين يحملـون معهـم شـعورا بخطيـة لم تغفـرهـم أول من يعتقدون بالطيور الجارحة التى تمزق الأحشاء بصفة مستمرة ، بالدود الذى لا يموت والنار التى لا تطفأ .

على أن آلام يوسف كانت رمزا صادقا لآلام المسيح : « الى خاصته جاء وخاصته لم تقبله » (يو ١ : ١١) لقد قالوا « هذا هو الوارث هلموا نقتله ونأخذ ميراثه » (مت ٢١ : ٣٨) « فأخذوه وأخرجوه خارج الكرم وقتلوه » (مت ٢١ : ٣٩) « واقتسموا ثيابه بينهم » . وباعوه للأمم . وجلسوا يراقبونه وهو يلفظ النسمات الأخيرة . تذكرنا آلام يوسف النفسية بقطرات الدم التى ظهرت على جبين المسيح لدى اقتراب آلامه . وتذكرنا براءة يوسف النسبية ببراءة ذلك الحمل الذى بلا عيب ، والذى شهدت لكماله الأعداء قبل الأحباء عند الصليب . لم يحصل قط تفتيش دقيق فى أية ذبيحة للعثور على أقل عيب فيها قبل تقديمها للذبح كما حصل للمسيح بواسطة أولئك الذين اضطروا للاعتراف أنه لم توجد فيه علة (لو ٢٣ : ١٤ و١٥) .

على أن وجه الشبة يقف عند حد : فآلام يوسف توقفت قبل أن تصل به الى حافة الموت ، أما يسوع فقد ذاق الموت . كانت آلام يوسف

شخصية أما آلام يسوع فكانت نيابية كفارية ، لأنه « مات عنا » ، « أسلم نفسه لأجلى » . لم تكن فى آلام يوسف قوة التكفير عن الخطية التى سببت تلك الآلام . أما آلام المسيح فانها لا تكفر فقط عن جريمة قاتليه بل عن خطايا الجميع ، فانه « كفارة لخطايانا ، ليس لخطايانا فقط بل لخطايا كل العالم أيضا » (١ يو ٢ : ٢) .

(٣) مصير يوسف

« ثم جلسوا ليأكلوا طعاما » (ع ٢٥) . جلسوا ليأكلوا غداءهم بقلوب قدت من صخر وبعدم اكتراث . وفى تلك اللحظة لفت أنظارهم منظر جديد رحبوا به . لقد كانوا يجلسون فى سهل دوثان وهو مكان لا يزال محتفظا باسمه القديم . ويستطيع أى واحد ، يجلس هناك ويتطلع شرقا عبر وادى الأردن ، أن يتبين آثار الطريق الرئيسى الموصل بين مخاوض الاردن وشاطىء البحر الأبيض المتوسط . كان هذا الطريق أحد طرق فلسطين الرئيسية . كان يصل بين جلعاد والأقطار الأخرى عبر الأردن وبين شاطىء البحر . وإذا ما وصل الى الشاطىء وجد الطريق سهلا الى الجنوب نحو فلسطين ودلتا النيل .

فى تلك اللحظة كانت تجتاز فى هذا الطريق احدى القوافل . استطاع الأخوة أن يتبينوا عن بعد تلك الجمال التى كانت تسير نحوهم وئيدا . وأدركوا فى الحال حقيقة أمر هذه الجماعة ، والمكان الذى قدموا منه . لم يكن هنالك أقل شك فى أنهم من الجنس العربى ، رواد الصحراء فى كل الأجيال ، نسل اسماعيل . وكانوا قادمين من جلعاد حاملين اطيابا وبلسانا ومرا ، وهى المحصولات الطبيعية العطرية التى تكثر فى

غابات ومراعى فلسطين الشرقية ، والتى كانت تطلب كثيرا فى مصر لأغراض التحنيط .

أحدثت رؤية هؤلاء التجار تحولا غريبا فى تفكير المتآمرين . كانوا يعرفون أن الطلب يكثر فى مصر لشراء العبيد ، وأن هؤلاء التجار اعتادوا شراء العبيد أثناء مسيرهم ، ليبيعوهم فى تلك البلاد التى كانت تحفل بأعظم سوق للعبيد فى العالم . فلماذا لا يبيعون أخاهم ؟ هذه أسهل طريقة للتخلص منه ، بل للتخلص من جريمة قتل الأخ . وعملا بمشورة يهوذا رفعوا يوسف من الجب . واذ لم يكن المال هو المهم فى نظرهم ، باعوه بعشرين من الفضة ، أى نحو ثلاثة جنيهات .

تم ذلك فى دقائق معدودات ، وجد يوسف نفسه بعدها واحدا من جماعة كبيرة من العبيد الأرقاء المكبلين بالقيود ، والمقضى عليهم بالذهاب الى أرض غريبة . ألم يكن هذا أشر من الموت ؟ يا للآلام التى مزقت ذلك القلب الغض . ولا شك فى أنه كان متلهفا ليرسل رسالة واحدة أخيرة الى أبيه . ولعله اختلطت بهذه الأفكار فكرة عن الله العظيم الذى تعلم أن يعبده . كيف سمح بكل هذا ؟ لم يخطر بباله أنه فيما بعد سوف ينظر الى هذا اليوم كحلقة ذهبية فى سلسلة أعمال عناية الله ومحبته ، أو أنه سوف يأتى اليوم الذى فيه يقول مخاطباً أخوته « لا تتأسفوا ولا تغتاظوا لأنه لاستبقاء حيوة أرسلنى الله قدامكم » الى هنا .

كم هو حلو جدا للنفس - عندما تمر أيام الحياة - أن يستطيع المرء الرجوع بالذاكرة الى الوراء ، والتطلع الى الحوادث المظلمة الغامضة ، وتلمس يد الله حيث كنا لا نرى الا خبث الانسان وقسوته . ولا شك فى أنه

سوف يأتى اليوم الذى فيه نستطيع الحديث بهذه اللهجة عن كل الصحائف السوداء التى مرت بنا فى الحياة .

أخوة يوسف خانوه ، وصاحب المسيح خانه . بيع يوسف بدريهمات معدودات ، وكذلك بيع ربنا . اقتيد يوسف الى العبودية فى زمرة العبيد ، وأحصى يسوع مع اثمة . تممت جريمة اخوة يوسف القصد الالهى ، وتممت أيدى صالبى المسيح الاثيمة مشورة الله المحتومة وعلمه السابق .

سوف يجعل الله غضب الانسان يحمده وبقية الغضب يتنطق بها (مز ٧٦ : ١٠) « ياالعمق غنى الله وحكمته وعلمه . ما أبعد أحكامه عن الفحص وطرقة عن الاستقصاء » (رو ١١ : ٣٣) .

✣ ✣ ✣



فى بيت فوطيفار

(تك ٣٩)

كم من أشخاص كثيرين اذا جعلهم الله ملوك لا يشينون العروش التى أعطاهم اياها ولكن ما أقل الذين يؤدون بأمانة وظائف العيد الاكثر قداسة .

عظيم هو من يستطيع أن يأمر وينهى ويحكم بالعدل والرحمة .

أمت الذى يعرف كيف يطيع ويطيع ويخضع فانه يقدم دروسا أوفر حكمة .

(بروكتور)

لما بيع يوسف الى التجار المديانيين أتوا به الى مصر التى يمتد فيها شريط أخضر وسط الرمال القاحلة . هنالك فى أحد أسواق العبيد عرض للبيع مع مئات غيره ممن اختطفوا أو سرقوا من الممالك المجاورة . لا شك فى أن أقطار أعالى النيل وأواسط افريقيا كان يلجأ اليها لسد الحاجة الملحة للعبيد . ولعل الصبى المدلل وجد نفسه وسط الأولاد المتناهين فى القذارة الذين أتى بهم من الأقطار الحارة ذات الشمس اللافحة .

كان نصيب تلك السلعة من حظ فوطيفار « رئيس الشرطة » ويقال أنه كان رئيس منفذى الاعدام . والأرجح أنه كان رئيس القوة الحربية المستخدمة كحرس ملكى حول القصر الملكى .

كان لملوك مصر السلطة المطلقة فى الموت أو الحياة . وكانوا لا يترددون عن أن يأمروا بتوقيع أى نوع من القصاص ، الذى كان يترك تنفيذه للحرس الملكى الماثل بين يديه على الدوام ، وهذا كان يستخدم أقدر آلة للتعذيب أو الموت .

كان فوطيفار من أشراف المصريين ، من عائلة أرستقراطية ، رفيع المركز ، وعظيم القدر فى البلاط الملكى . وكان بلا شك يسكن قصرا فخما ، تغطى جدرانه الكتابة الهيروغليفية ، ويكتظ بالعبيد . لابد أن يكون الأسير الصغير ، الذى تعود أن يعامل بالرقة فى بيته البسيط المحبوب ، قد ارتعشت فرائصه وهو يجتاز الطريق المحفوف بالأعمدة على جانبيه ، ويمر من أبواب تحرسها التماثيل المختلفة ، ليدخل ذلك القصر المصرى المتسع الغريب ، حيث كانوا يتكلمون لغة لا يعرف منها كلمة واحدة ، حيث وجد كل شىء جديد وغريب . على أن الله « كان معه » وكان الشعور برفقة اله أبيه له ورعايته اياه ، يسود نفسه ، ويسكنها ، ويحفظها فى سلام كامل . وبالرغم من حرمانه من كل من عرفهم فقد وجد راحة وقوة فى الشعور بأن الأجنحة الرمزية المنقوشة على الكثير من الأبنية المصرية التى ذكرته بأجنحة عنايه أبيه السماوى المنبسطة ، العناية التى لا تنعس ولا تنام ، التى تستطيع نفسه أن تستقر تحتها الى الأبد . ومن ذا الذى لا يفضل أن يكون كيوسف فى مصر مع الله عن أن يكون كأولئك الاخوة بقميص ملوث بالدماء فى أيديهم ، وشعور بالجريمة فى نفوسهم ؟ والآن لنتأمل فى مصير يوسف فى بيت فوطيفار :

(١) نجاح يوسف :

« كان الرب مع يوسف فكان رجلا ناجحا » (ع ٢) . أو حسب بعض الترجمات القديمة « وكان شخصا سعيد الحظ » . وأعتقد أن المعنى يحمل بأن كل شيء امتـدت يده اليه نجح . لقد لازمه النجاح ملازمة الظل للخيال ، ولمس كل خدماته بعصاه السحرية . اعتقد فوطيفار وأهل بيته أن هذا العبد العبراني الغريب قادر على حل كل عقدة ، وتذليل كل عقبة ، وانجاح كل مسعى . وذلك يرجع لسببين :

(**الأول**) انه وان كان قد جرد من قميصه فانه لم يجرد من أخلاقه . فاحرصوا أيها الشباب على أن لا تجردوا من أخلاقكم . كل شيء يمكن أن يعوض الا الأخلاق . لقد كان مجدا ، سريع الحركة ، نشيطا ، مطيعا ، يعتمد عليه . عندما أرسل للبحث عن أخوته لم يتمم وصية أبيه بالحرف فقط بل بالروح أيضا ، ولم يهدأ حتى جد فى أثرهم من شكيم الى دوثان . وهذه كانت الروح التى طبعت عليه حياته . كان يتمم عمله ليس لأنه مضطر لاتمامه ، بل لأن الله أعطاه اياه ليعمله ، ودعاه ليعمله ، كان فى كل أعماله اليومية العادية يقرأ ارادة الله . كان يحدث نفسه كل يوم بتلك العبارة التى نطق بها فيما بعد ، لقد أرسلنى الله هنا (تك ٤٥ :٥) . كان يحس بأنه ليس خادما لفوطيفار بقدر ما هو خادم لاله ابراهيم واسحق . كان يعتقد بأنه يستطيع أن يحيا فى بيت فوطيفار حياة التقوى والأمانة كما كان يقضى تلك الأيام الطويلة السعيدة فى خيمة يعقوب – هذا ما فعله . وهذه الصفات هى التى أكسبته الضمير الحى والشعور المتيقظ – هذه الصفات التى تضمن النجاح فى جميع الأعمال .

بينما كان العبيد رفقاؤه يبعثرون أوقاتهم النفيسة كان هو يشغلها بالأمور الحيوية . بينما كانوا يقنعون باتمام أعمالهم من باب تأدية الواجب كان هو يفتق ذهنه لاتمامهاعلى أحسن حال - الى حد الكمال والنجاح ، على أسس سليمة . بينما كانوا يعملون لاتقاء غضب الرؤساء أو السياط ، كان هو يعمل لا ستجلاب رضاء سيد جميع البشر المتطلع اليه على الدوام . كثيرا ما كانوا ينظرون اليه بنظرة الحسد . ولعلهم قالوا أنه « شخص سعيد الحظ » . ولم يدروا أن الحظ معناه الأخلاق ، وأن الأخلاق معناها الله .

كثيرا ما يتحدث البشر بعضهم عن بعض بهذه العبارات ، كان دواما شخصا سعيد الحظ ، ولد تحت كوكب سعيد . يقينا أنه سوف يكون سعيد الحظ .

ولكن لنعلم بأن الحظ ليس له وجود الا ان فسرناه بأنه الأخلاق . وأن رغبت فى تلك الأخلاق التى تضمن لك النجاح فى هذه الحياة فليس لها أساس صحيح سوى يسوع المسيح . يجب أن تبنى عليه ، والا أنهار بناؤك أمام أول عاصفة ، واذا ما لمست ذلك الحجر الحى بلمسة الايمان الأولى عندئذ شيد البناء حسب الخطة التى تركها لنا فى حياته المحبوبة . ضع طبقة فوق طبقة حتى يعلو البناء ، وعندئذ تدرك أن « التقوى نافعة لكل شئ اذ لها موعد الحياة الحاضرة والعتيدة » (١ تى ٤ : ٨) .

(الثانى) « ان كل ما كان يصنع كان الرب ينجحه بيده .. وأن الرب بارك ؛ بيت المصرى بسبب يوسف وكانت بركة الرب على كا ما كان له فى البيت وفى الحقل » (ع ٣ وه) لم تكن هذه البركة امتيازا اختص به يوسف دون سواه ، ولكنها قد وعد بها كل الذين يسمعون سمعا لصوت الرب الاله ، ويحرصون على العمل بحسب كل وصاياه (تث ٢٨ : ١ و٢)

وهذه البركة تكون من نصيبنا نحن أيضا ، فى كثير من الأحيان ان سرنا مع الله كيوسف ، نحن لا ننتفع شيئا ان كنا نصرخ مع يعبيص قائلين « ليتك تباركنى » دون أن نكمل الدعاء معه أيضا قائلين « وتحفظنى من الشر » (١ أى ٤ : ١٠) . عندما تأتى بركة الرب فانها تغنى ولا تزيد معها تعبا (ام ١٠ : ٢٢) فلنحرص على أن نعيش بحيث يكون الله معنا الرب معكم ما كنتم معه . وان طلبتموه يوجد لكم . وان تركتموه يترككم » (٢ أى ١٥ : ٢) .

قد يقرأ هذه الكلمات بعض الخدام من مختلف الأعمال - خادم المنازل أو خادم المصانع أو الموظف الكتابى . أن صح هذا فلا شك فى أنهم يجدون معونة كبيرة من القدوة التى يقدمها هذا الشاب النبيل . أنه لم يستسلم للتأوهات غير المجدية ، والدموع الغزيرة ولكنه منطق ذاته كرجل ، واعتزم أن يعمل بقوته كل ما وجدته يده لتعمل . كان « ٠أمينا فى القليل» فى العمل الحقير المتواضع الذى أوكل اليه . كان يعتقد بأن الله وضعه فى المكان الذى وجد فيه . وأحسن بأنه بخدمة سيده الأرضى خدمة مرضية يرضى سيده السماوى ، الذى كان قريبا منه فى تلك القصور المصرية الفخيمه ، كما كان قريبا منه فى خيام يعقوب . هذه هى الروح التى ينبغى أن تسود فى اتمام كل عمل . قال الرسل للعبيد الكثيرين جدا الذين رحبوا بفرح بالانجيل الذى منحهم حرية لا تقوى عليها القيود أو السلاسل « اثبتوا كما أنتم » ، « الدعوة التى دعى فيها كل واحد فليلبث فيها . دعيت وأنت عبد فلا يهمك ... لأن كل من دعى فى الرب وهو عبد فهو عتيق الرب . ما دعى فيه فليلبث فى ذلك مع الله » (١كو ٧: ٢٠-٢٤) . « أطيعوا فى كل شىء سادتكم حسب الجسد . ببساطة القلب

خائفين الرب . وكل ما فعلتم فاعملوا من القلب كما للرب ليس للناس .. لأنكم تخدمون الرب المسيح » (كو ٣ : ٢٢ - ٢٤) « زينوا تعليم مخلصنا الله فى كل شىء » (تى ٢ : ١٠) . والمسيح - الذى أخذ صورة عبد - تألم لأجلنا تاركا لنا مثالا لكى تتبعوا خطواته (١ بط ٢ : ٢١) .كل هذه الأصوات التى نطق بها الوحى قديما لا زالت موجهة لكل الخدام . فلو أنه روعيت تماما لطلب كل خادم معرفة ارادة الله قبل أن يغير عمله . أن أحقر الأعمال يمكن أن تؤدى بأسمى المبادىء . فان النواميس التى تتحكم فى تكوين نقطة الندى هى التى تحكمت فى اصاغة أرضنا بهيئتها الحاضرة . وأنك لتستطيع أن تطأ عتبه مكان عملك الوضيع بنفس روح الاحترم والمحبة التى تطأ بها الهيكل ، بل قدس الاقداس فى السماء .

ان نصيبنا فى الحياة أسمى مما نفتكر . فليس المهم نوع العمل بل طريقة تأديته . ومقياس قيمة حياتنا وأهميتها يتوقفان على الباعث المحرك لنا فى كل أعمالنا . ان الرجل الوضيع قد يحقر أشرف الأعمال بروحه الشريرة ، أما النبيل فانه يشرف أوضع الأعمال بنبله ، حتى تصير موضع اعجاب الشاروبيم والسرا فيم .

وقد يقرأ هذه الكلمات بعض السادة أو رؤساء الأعمال نحن لا نستطيع أن نقدر قيمة الخادم المسيحى الحقيقى . سعيد هو البيت الذى يوجد فيه . لابد أن فوطيفار قد أخذته الدهشة عندما وجد أن البركة قد حلت فى بيته فجأة . فكل شئونه فى الحقل وفى البيت تقدمت تقدما محسوسا . لعله قد سائل نفسه مراراعن السبب فلم يخطر بباله فى بداية الأمر أن السر يرجع الى العبد العبرانى . « الرب بارك بيت المصرى بسبب يوسف (ع ٥) . لقد كافأه الرب مضاعفا بسبب اعالته يوسف . هذا ما لا يزال حاصلا

الآن . فكم من الأسياد غير الأتقياء ببركات وفيرة لوجود خادم مسيحى ، أو موظف تقى ، تحت سقفهم . لولا وجود لعازر بينهم ، أو يوسف ، أو رودا ، لما أتى بيتهم الملاك ، أو تفجر فيه ينبوع حى ، أو سمعت فيه الأصوات الموسيقية العذبة التى تنسى متاعب العمل . عندما نصل السماء ، ويتاح لنا تتبع أصل الأشياء فاننا سوف نجد أن الكثير من أعمق البركات فى حياتنا كانت بسبب صلاة أو وجود بعض أفراد أعزاء لدى الله كانوا مجهولين جدا فى هذه الحياة .

(٢) تجربة يوسف :

مرت السنون ، وأصبح يوسف رجلا موفقا ، وصار وكيلا على بيت سيده . « فترك كل ما كان له فى يد يوسف . ولم يكن معه يعرف شيئا الا الخبز الذى يأكل » (ع ٦) .

وهنا واجه يوسف أعظم تجربة فى حياته .

قد نجد التجربة فى أيام الرخاء والراحة ، أكثر مما نجدها فى أيام الفقر والتعب ليس على سفح جبال الألب المنحدر الجليدى ، بل مجدا فى تسلق سلم الشهرة بل عندما يكون قد وصل أفق المجد . ليس عندما يكشر البشر عن أنيابهم ، بل عندما يبتسمون ابتسامة التملق والرياء . هنالك ينتظرنا المجرب . فخذ حذرك أيها الأخ العزيز . ان كان لابد لك من أن تسير مسلحا فى أى مكان فاعلم بأنك فى أشد الحاجة للسلاح هنا . وهذا ليس بالأمر الهين . انه هين أن نحمل السلاح عند السير فى الطريق الوعرة لئلا يخرج علينا قطاع الطرق ، لكنه ليس هينا أن نحمله بعد الوصول الى الأمكنة الأمينة . ولكن ما لم نحمل السلاح هناك فالويل لنا . اسهروا وصلوا لئلا تدخلوا فى تجربة . أما الجسد فضعيف » (مت ٢٦ : ٤١) .

عندما تأتى التجربة من الناحية التى لم نكن نتوقعها فعندئذ تصعب مقاومتها . كانت المرأة المصرية فى تلك الايام تتمتع بحريه واسعة المدى . هذا ما تشهد به الآثار المصرية ، كما تشهد أيضا بانحطاط مستواها الأدبى . ولعل امراة فوطيفار لم تكن أشر من الكثيرات من بنات جنسها ، ولو أننا نخجل كل الخجل من مجرد قراءة مداعبتها ليوسف ، التى لابد أن تكون قد هزته هزة عنيفة كهزة الزلازل ، وملأته بأفكار مفاجئة كثيرة . ان الالتجاء الفجائى الى شهوته الجنسية ضاعف التجربة عشر أضعاف . لقد رتبت عناية الله بنواميسه الطبيعية أن يستشعر ربان السفينة – فى معظم الأحيان – بالزوبعة قبل هبوبها ، فيأخذ حذره . ولكن مسكين ذلك الربان ان عصفت عليه فجأة . أيها المسيحيون ! احذروا العواصف الفجائية . فالبشر كثيرا ما يخرون صرعى أمامها .

كثيرا ما وقفت السياسة والضمير موقفين مضادين أمام التجربة . كان ضروريا أن يقف يوسف موقف الحزم أمام امرأة سيده . كان ارضاؤها ضمانا لرفعته ، كما كان أغضابها مجلبة عداوتها وهدما لكل آماله . ما أكثر الذين يحاجون أنفسهم بهذه الحجة : أنهم بالاستسلام دقيقة واحدة يضمنون مركزا عظيما يمكن استخدامه فيما بعد فى أحسن الخدمات ، وان الاستسلام للشيطان مرة واحدة يكسبهم قوة يمكن استخدامها لهدمه . هذا هو تعليل السياسة ، وهو أخدع مخادع فى قلب الانسان . هذه هى السياسة التى تقود الكثيرين – عندما يجربون من رؤسائهم أو سادتهم – لتبرير موقفهم بالقول : لم تكن لى رغبة فى اتمام هذا الأمر ، لكن عيشى كان يتوقف عليه ، ولم أجرؤ على اغضابهم .

والسلاح الوحيد ضد السياسة هو الايمان ، الذى يتطلع الى المستقبل البعيد ، ويثق أنه سوف يتضح فى النهاية أنه كان من الخير أن نسلك

طريق الحق ، وأن ننتظر اظهار الله للحق ، وننتظر بركته لنا . كان خيرا ليوسف أن لا يصغى لايحاء السياسة ، فلوكان قد فعل كذلك لكان من المحتمل أن ينال نفوذا أقوى فى بيت فوطيفار ، ولكن ذلك النفوذ لم يكن ممكنا أن يدوم ، ولما كان ممكنا أن يصل الى منصب رئيس وزراء مصر أو يكون له بيت مستقل ، أو يقدم ولديه لأبيه يعقوب ليباركهما قبل موته .

وقوة التجربة تتوقف على استعداد طبيعتنا لاجابة مطالبها .

يقال ان جراثيم مرض البطاطس والكروم تحوم دواما فى الهواء ، ولكنها لا تستطيع أن تجد مكانا (أو تربة صالحة) فى النباتات السليمة . ولكن حالما يصل العطب الى النباتات ، وتضعف عن مقاومة هجمات هذه الجراثيم ، فان كل آمال الفلاح تذهب أدراج الرياح .

هكذا الحال معنا ، لأننا ان تمثلنا بربنا اجتزنا كل عواصف التجارب دون أن تنال منا شيئا . ولكن لأن قلوبنا شريرة وجب علينا أن نكون ساهرين بصفة مستمرة . « فوق كل تحفظ احفظ قلبك لأن منه مخارج الحياة » (أم ٤ : ٢٣) . ليس خطأ فى أن تكون لنا بعض الميول والرغبات ، والا كان هنالك خطأ فى الجوع وفى النعاس الذى يؤدى الى نوم عميق . ولكن الخطر هو فى اشباع هذه الرغبات والميول لحد الاسراف الزائد ، أو فى البواعث الخاطئة . وهذا ما تميل اليه الطبيعة البشرية ، فهى منحرفة بهذا الشكل ، والمياه المسروقة حلوة (أم ٩ : ١٧) . لهذا كانت تجربة يوسف شديدة الوطأة على نفسه .

يجب أن نفرق دواما بين الغرائز والميول الطبيعية فينا ، وبين تلك التى اكتسبناها بتأثير العادات الشريرة . هذه الأخيرة يجب أن لا يكون هنالك أى تردد بشأنها . يجب أن لا نسمح لها بأى مكان فى قلوبنا . يجب

استئصالها من جذورها ، كما تقتلع الحشائش من البساتين وتلقى خارجا حتى الشمس ، فتقتل جرثومة الحياة التى فيها .

أما الأولى فانها تستدعى انتباها وحذرا شديدا ، لأنها وان كانت فى حد ذاتها طبيعية وجميلة الا أنها تميل دواما الى اشباعها لحد الاسراف فى النواحى السليمة ، أو اشباعها فى النواحى غير الطبيعية أو غير المشروعة . يجب أن لا نتوقع أن يأتى الوقت الذى فيه تقتلع هذه الغرائز والميول الطبيعية منا طالما كنافى هذه الحياة . وطالما كانت فينا فانها يمكن أن تكون تربة خصبة تزرع فيها بذور التجربة فتنبت وتثمر . وأنت لن تجد رجلا عاقلا - يعرف ضعفه - يتجاسر على القول بأنه محصن ضد التجربة ، أو يستحيل عليه الرضوخ لها . أن ثبت أمام التجربة كان ذلك فقط نعمة الله .

كانت هنالك عناصر خاصة للتجربة فى حالة يوسف . فقد كانت الفرصة سانحة للتجربة « لم يكن انسان من أهل البيت هناك فى البيت » (ع ١١) . جاءت فى الوقت المناسب ، ولو أنه خضع لها لما كان هنالك خوف من أن تفتضح أو يعاقب عليها . فلم يكن معقولا أن تفضح المرأة نفسها بنفسها .

ثم ان التجربة تكررت « يوما فيوما » (ع ١٠) . ياله من اصرار مرعب . ان نقط المياه اذا توالت على الصخر أذ ابته ، والتجربة اذا توالت يوما بعد يوم كانت شديدة الخطر .

ورغم ذلك فقد وقف يوسف ثابتا . لقد قدم لها حججه . فتعلل بعطف سيده عليه وثقته فيه . وقال أنه أؤتمن على أمانة فكيف يخونها . ثم حاول أن يذكرها بموقفها الخليق بها كزوجة لسيده . على أنه فعل ما هو أكثر

من ذلك . فانه انتقل من دائرة العقل الى دائرة الضمير ، وسأل ذلك السؤال الخالد ، الذى كان سر النصرة للنفوس المجربة فى كل الأجيال « كيف أصنع هذا الشر العظيم وأخطىء الى الله » (ع ٩) .

لا توجد مواضيع كثيرة تستدعى مجهودا من الوعاظ والكتاب أكثر من هذا الموضوع العظيم « العفاف » . تعيس هو المجتمع بسبب حوادث النجاسة الكثيرة وضحاياها البؤساء ، سيما وهو ينظر الى هذه الخطية نظرة معكوسة ويدعوها باسم معكوس . لا توجد خطية أخرى أسرع منها على أفساد القلب ، واضعاف المواهب ، واتلاف الجسد . كتب الشاعر روبرت برنز (Robrt Burns) عن اختباره المر فى مؤلفه « رسالة الى صديق شاب » هذه الأبيات :

تهاجم الخطية أقوى الأقوياء
ولكنها لن تهجم المنغمس فيها
انها تقسى القلب وتحجر العواطف
حتى ولو لم يفضح أمرها

أما اللورد بيرون ، الذى قضى حياته القصيرة غير عفيفة ، ومات فى سن السادسة والثلاثين ، فقد ختم قصيدته الأخيرة بهذه الكلمات الأسيفة :

لقد أصبحت أيامى كورقة ذابلة
وولى وقت زهور المحبة وثمارها
ولقد أصبح الدود والآكلة والحزن
من نصيبى وحدى أنا اليائس الشقى

لا توجد خطية أخرى أقدر وأسرع من هذه الخطية فى تقويض أركان الأمم . وأن كان التاريخ قد علمنا شيئا فانه علمنا أن النجاسة هى

أفعل العوامل لهدم الشعوب . والمجتمع الذى لا يهدم هذه الخطية يهدم نفسه بنفسه .

يقولون ان تجارب المدن الكبيرة أكثر وأقوى من أن يقاومها الشبان . وفى بعض الأحيان يتحدث الناس عن الخطية كأنها أمر لا مفر منه . فاحذر من الاصغاء لهذه السخافات والأحادث الخطرة . لأنه طالما بقيت رواية يوسف مدونة على صفحات الكتاب المقدس فهى تتحدى كل هذه السخافات . ان كل شاب يستطيع المقاومة ، يستطيع الغلبة ، يستطيع أن يكون طاهرا عفيفا نقيا . وعلى أى حال يجب علينا اطاعة ما يمليه علينا الكتاب المقدس والعقل السليم . تجنب كل الأماكن والكتب والأشخاص وكل ما يؤدى الى الأفكار الشريرة . قاوم أول هجوم بسيط للتجربة ، لئلا تفتح ثغرة تتسع لدخول المحيط . أذكر أنه لا تستطيع أية تجربة التغلب عليك ما لم تسمح لها أنت بالدخول الى طبيعتك . وطالما كنت ضعيفا عن أن تغلق الباب أمامها ، فاطلب المعونة من المخلص القدير . كل قوات الجحيم لا تستطيع أن تقتحم بابا سلمته لرعاية يسوع .

ياله من شعار جميل لنا أجمعين : « كيف أفعل هذا الشر العظيم » ؟ أفعله أنا الذى مات المسيح من أجلى ؟ .

أفعل هذا الشر . يدعوه البعض متعة ، والآخرون لذة ، وأنا أدعوه خطية .

أفعل هذا الشر العظيم . يقلل البعض من شأنه ، أما فى نظرى أنا فهو خطية جسيمة جدا .

« كيف أخطىء الى الله » قد يبدو بأنها لا تمس الا البشر ، ولكنها فى الواقع موجهة شخصيا الى الله القدوس .

قد يبدو أنه كان من الأفضل أن لا يذهب يوسف الى البيت ليؤدى عمله ، لكن الأرجح أنه لم يكن أمامه الا أن يذهب . لقد عرض على أنه لا يوجد معها (ع ١٠) على قدر الاستطاعة . لا يليق بنا أن نتوقع بأن يحفظنا الله من التجربة أن كنا ندفع أنفسنا لها باختيارنا . أما ان اضطرتنا ظروف حياتنا للذهاب اليها فلنعتمد على أمانة الله . ان اقتادنا الروح الى البرية لنجرب فلنتوقع أن نتمتع أيضا بخدمة الملائكة .

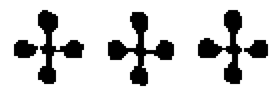
لقد تصرف يوسف بحكمة اذ هرب . كثيرا ما كان حسن التصرف أحكم مظاهر الشجاعة والقوة . خير لك أيها الشاب أن تفقد ثوبك وأثمن ما تملك من أن تفقد ضميرك الحى . اهرب من الشهوات الشبابية . لا تتناقش مع التجربة . لا تطل البقاء بجوارها . لا تقف لتتطلع اليها . ان فعلت ذلك غلبتك . « اهرب لحياتك لا تنظر الى ورائك . ولا تقف فى كل الدائرة » (تك ١٩ : ١٧) .

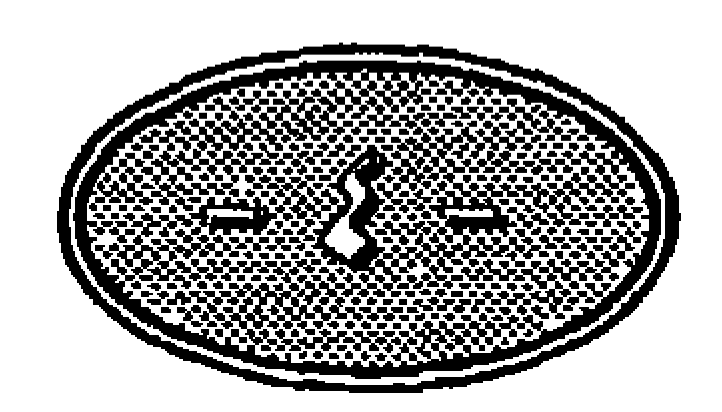
ان كنت تجرب فذلك ليس خطية . فالقدوس نفسه الذى بلا خطية جرب من ابليس . قد يقتحم الرعاع أبواب القصر الملكى ، ولكن الأمة لن يلحقها أى أذى طالما كانت الخطية لم تصل الى غرفة العرش ، ولم تنشب أظفارها فى العرش الملكى . ان الارادة هى قلعة رجولتنا . وطالما لم يحصل أى تسليم فيها فلا خطر فى أى مكان آخر . لا يمكن أن أتهم بقبول بضاعة مسروقة إن كنت أسأل مجرد سؤال بقبولها ، ولكننى أرفضها رفضا باتا . عندما استسلم واخنع وأخضع تدخل الخطية .

وفى نفس الوقت انها لحماقة عظمى أن لا نبدأ الكفاح الا بعد أن يدخل العدو داخل القلعة . فالأفضل أن نحاربه فى خط الدفاع الأول ، وفى أول ايحاء أو اغراء أو رغبة . قاوم ابليس هناك يهرب منك ، ولا يبق هنالك أى مجال للكفاح الداخلى الذى يخدش نفسك ويترك آثار الجروح سنوات طويلة .

ليت الرب يهبنا نعمة وايمانا لنقتدى بيوسف ، وفوق كل شيء بربنا الذى لم يعرف خطية . لنثق بأنه لن يسمح بأى تجربة تهاجمنا الا بما هو بشرى ، أى بما يحدث مع عامة البشر ، أو بما هو فى طاقتنا أن نقاومه . ومهما اشتدت التجربة فالله يعم بأننا نستطيع أن نقاوم وبأن النعمة الكافية فى متناول أيدينا . والآب القدير يضع بين أيدينا كل مصادر القوة . « كل من يثبت فيه لا يخطى ، وكل من يخطىء لم يبصره ولا عرفه » (١ يو ٣ : ٦) .

لا تنس قط أننا نحن الذن نؤمن بيسوع قد إجلسنا معه عن يمين القوة ، وأن الله قصد بأن يكون الشيطان عدوا مهزوما تحت أقدامنا . افتح قلبك لله لكـــى يغلب فيك كمـــا سـبق أن غلب عندما أتى بالجســد (١ يو ٤ : ٤ ، يو ١٦ : ٣٣) . افتح كل كيانك لنعمة الروح القدس الغالبة . وعندئذ يعظم انتصارنا بالذى أحبنا (رو ٨ : ٣٧) .





سر الطهارة

(أنظر أيضا آم ٤ : ٢٣ ، ١ بط ١ : ٥ ، ٢ تى ١ : ١٢)

أنا لا أعتقد بقوة السحر أو الشعوذة
أو بما يدعوه الناس حظا .
قد تهاجم الفضيلة ولكنها لن تضام
قد تطعن ولكنها لن تقهر .
وحتى ان أريد بها ضرا .
فانها سوف تتمجد وقت الامتحان السعيد

(ملتون)

لقد أدرك يوسف معنى بركة طهارة القلب قبل أن ينطق مخلصنا بالتطوبيات بمئات السنين . لم يكن ممكنا له أن يعرف مقدما تناسق الصيغة التى صيغت فيها هذه التطوبيات . فهذه لم يكن ممكنا أن تصوغها سوى شفاه ذاك الذى تكلم بسلطان من اناء طهارته .

لا شىء يستحق منا الاعجاب الشديد بقدر الطهارة التى تغنى بها ملتون فى قصيدته الرائعة Comus ، والتى - مثل أشعة الشمس - اذا ما اخترقت أقذر الأمكنة جازت وسط ظلمتها دون أن تفقد شعاعة واحدة

من أشعتها . فالأشخاص الذين أدركوا سر ضبط النفس ، الذين لم يلوثوا ثيابهم ، بالرغم من تعرضهم للتجارب العنيفة التى اكتسحت غيرهم ، ينالون اعجاب واحترام الآخرين . يظن عامة البشر أن قمم الطهارة الشاهقة الارتفاع الناطحة السحاب أسمى من أن يصلوا اليها ، ولذا تجدهم يدهشون أشد الدهشة ممن استطاعوا أن يتسلقوا سفحها الخشن ، ويتنسموا رائحة العالم السماوى .

يجب أن نذكر دواما أنه لا يوجد أى جزء فى طبيعتنا ، أو أى عضو فى أجسادنا البشرية ، غير طاهر فى حد ذاته . لما خرج آدم من يد الخالق ، ووقف أمامه فى براءته ، لم يكن فى حاجة حتى لأوراق التين ليستتر بها . كان كل شىء جميلا ، وطاهرا ، ومستقيما ، وحسنا جدا . لم تكن هنالك أية رغبة أو شهوة فى طبيعته أقل قداسة فى حد ذاتها من غيرها . ولو أنه اتبع ارادة الله بصفة مستمرة ، لو أن ارادة الله وقصده ونواميسه كانت هى المتحكمة فى كيانه الداخلى ، لما دخلت الى العالم أية شهوة دنسة أو رغبة منحرفة . وكما فعل موسى ، المشرع العظيم فى البرية ، اذ تقبل أوامر الله ، وسلمها للشيوخ ليطعها الشعب ، هكذا كان ممكنا للضمير أن يتقبل من الله تلك الشرائع وتلك الرغبات الشرعية التى قصد بها أن تكون لمجد الله من جهة وخير الانسان من جهة أخرى ثم يسلمها لكل تكوين الطبيعة البشرية .

ولكن لما أخطأ الانسان فى الجنة نقل كيانه من الله الى نفسه ، أحب وعبد المخلوق دون الخالق ، انتزع الشمس من مركز الدائرة الداخلية ، وعندئذ شملتها الفوضى والاضطراب فى الحال ، وأصبح كل جزء يعمل

لاشباع نفسه مباشرة . ومنذ ذلك الوقت أصبحت غاية الانسان العظمى اشباع شهواته ، واطلاق العنان لرغباته ، بالانغماس فى الشهوة الجسدية أو الهيام فى التصورات والأفكار . وأصبح الرادع الوحيد هو الخوف من النتائج الوخيمة فى السمعة أو المراكز العالمية ، فى العقل أو الجسد أو الثروة .

هذه حقيقة يجب أن لا تغرب عن بالنا لدى التأمل فى أنفسنا أو فى الآخرين . ويجب أن نذكر أيضا فاعلية قانون الوراثة الخطير ، الذى بموجبه قد انحرفت بسبب ما أصابها من سوء استعمال الأجيال الطويلة السابقة التى انحدرنا منها . لذلك أصبح فينا كلنا بالطبيعة ميل شديد للأكل من الثمرة المحرمة . من منا لم يحس مراراً بميل لاشباع شهوته فى اتجاهين معينين : الأول لاشباع الشهوات فى اتجاه محرم قطعا ، والثانى لاشباعها فى اتجاه شرعى وانما بافراط عن الحد المعقول ؟

اذن فمما لا مفر منه أننا يجب أن نبدأ الحياة مواجهين أخطارا شديدة طالما كنا بتكويننا الأصلى متصلين بالبشرية التى تلوثت بسم الخطية واكتسحتها الشهوة منذ أجيال طويلة . لا يمكننا الا أن نبدأ الحياة تحت مؤثرات شريرة بالمقارنة مع آدم . ليس هذا معنا أننا مقضى علينا بالهلاك من أجل خطيته . كلا فقد تعلمنا أن آدم الثانى وفى عنا كلنا ذلك لكان قد حل بنا . وانما معناه أننا قد أصبحنا مغلولى الأيدى لأننا أبناء جنس ساقط . أليس هذا هو معنى ذلك الاصطلاح اللاهوتى

« الخطية الأصلية » ، وذلك التعبير الذى نطق به بولس « ناموس فى أعضائى ؟ » (رو ٧ : ٢٣) .

وان ادعى أحد بأن تغييرا سريا قد تم فى طبيعتنا الجسدية قلبت بسببه أوضاع الميول الطبيعية الموروثة ، طلبنا الدليل الكتابي على ذلك . يقينا أن حلول الأمراض بأجساد بعض أطهر القدسين دليل قوى على أن تغييرا كهذا لم يحدث قط . ان كنا لا نسلم بأن هنالك ميولا منحرفة طبيعية تميل الى اشباعها بطريقة دنسة .، أو أنانية ، كان هذا معناه أننا نعيش الآن فى الجسد الروحانى الذى سوف نقوم فيه فى القيامة .

ولتجنب كل ما يحتمل من تحريف المعنى اننا لا نعتقد بأن الخطية تقدم فى مجرد حالة مادية ، انما نحن ميالون الى الخطية بطبيعتنا التى ورثناها ، السريعة الانجذاب لتجارب الشيطان من الناحية الواحدة ، والمخادعة والسريعة التأثير على الارادة من الناحية الأخرى . ولا تستطيع أية فلسفه تنادى بعدم وجود هذا الحسد الذى ليس هو عطية فى حد ذاته ، ولكنه ينعطف نحو الايحاءات الشريرة التى اذا ما سقطت عليه ، سقوط الشرارة على البارود ، أشعل التفكير والقلب والارادة .

اذن فطالما كنا فى الجسد لن نستطيع القول بأننا نماثل أدم يوم خرج من بين يدى الخالق . فالفارق عظيم بيننا وبينه ، لأنه فى تلك اللحظة لم تكن طبيعته قد خضعت بعد للشر . أما طبيعتنا نحن فقد خضعت آلاف المرات ، سواء فى أولئك الذين قبلناها منهم ، أو فى تصرفاتنا نحن الخاطئة المتكررة . سوف يأتى الوقت السعيد الذى فيه يتغير شكل جسد تواضعنا هذا ليكون على صورة جسد مجده الذى قام به (فى ٣ : ٢١)

عندئذ يبطل مصدر عظيم للتجربة والسقوط . ولا نعود بعد نشكو من أن ناموس أعضائنا يحارب ناموس ذهننا ليسبينا الى أسر مميت .

وهلا يوجد أمل اذن فى هذه الحياة للتحرر من هذه العبودية ؟ لا شك فى أنه يوجد . يستطيع الناموس فى الأعضاء أن يحارب ناموس الذهن . ومع ذلك لا ينجح فى محاولته أن يسبيه لأنه يكون متحصنا بناموس روح الحياة فى المسيح يسوع ، الذى يعتق من ناموس الخطية والموت (رو ٧ : ٢٣ ، ٨ : ٢) .

والقوة الوحيدة الكافية لصد ايحاءات طبيعتنا البشرية وكبح جماحها هى الامتلاء من الروح القدس « اسلكوا بالروح فلا تكملوا شهوة الجسد . لأن الجسد يشتهى ضد الروح والروح ضد الجسد .. حتى تفعلون ما لا تريدون » (غل ٥ : ١٦ و١٧) .

وطالما كنا فى هذا العالم فان المجرب لن يكف عن الهجوم وحتى فى السماويات - فى أسمى درجات الاختبار الروحى - نحن لا نزال عرضة لهجوم جنود الشر الروحية . لاننا طالما كنا مقيمين فى هذا الجسد فاننا نحمل معنا قابلية للشر التى هى نتيجة آليمة لسقوط آدم . وكما يمر التيار الكهربائى فى لحظة واحدة فى كل جهاز التلغراف ، هكذا لما تهجم الفكرة الدنسة تمر فى طبيعتنا وتهز كل كياننا فى لحظة واحدة .

ولكن عندما نمتلىء من الروح القدس فان المجرب أن أتى بأشر ما عنده سقطت تحت أرجلنا كل ايحاءاته وباءت بالفشل ، ورفضت طبيعتنا أن تستجيب لنداءات المؤثرات التى أتتها من الخارج . كلنا نعرف ماذا يحدث اذا حككنا عود الكبريت فى سطح مشبع بالرطوبة هكذا يكون الحال فى تجاربنا . فان الطبيعة القديمة التى كانت قابلة للاشتعال

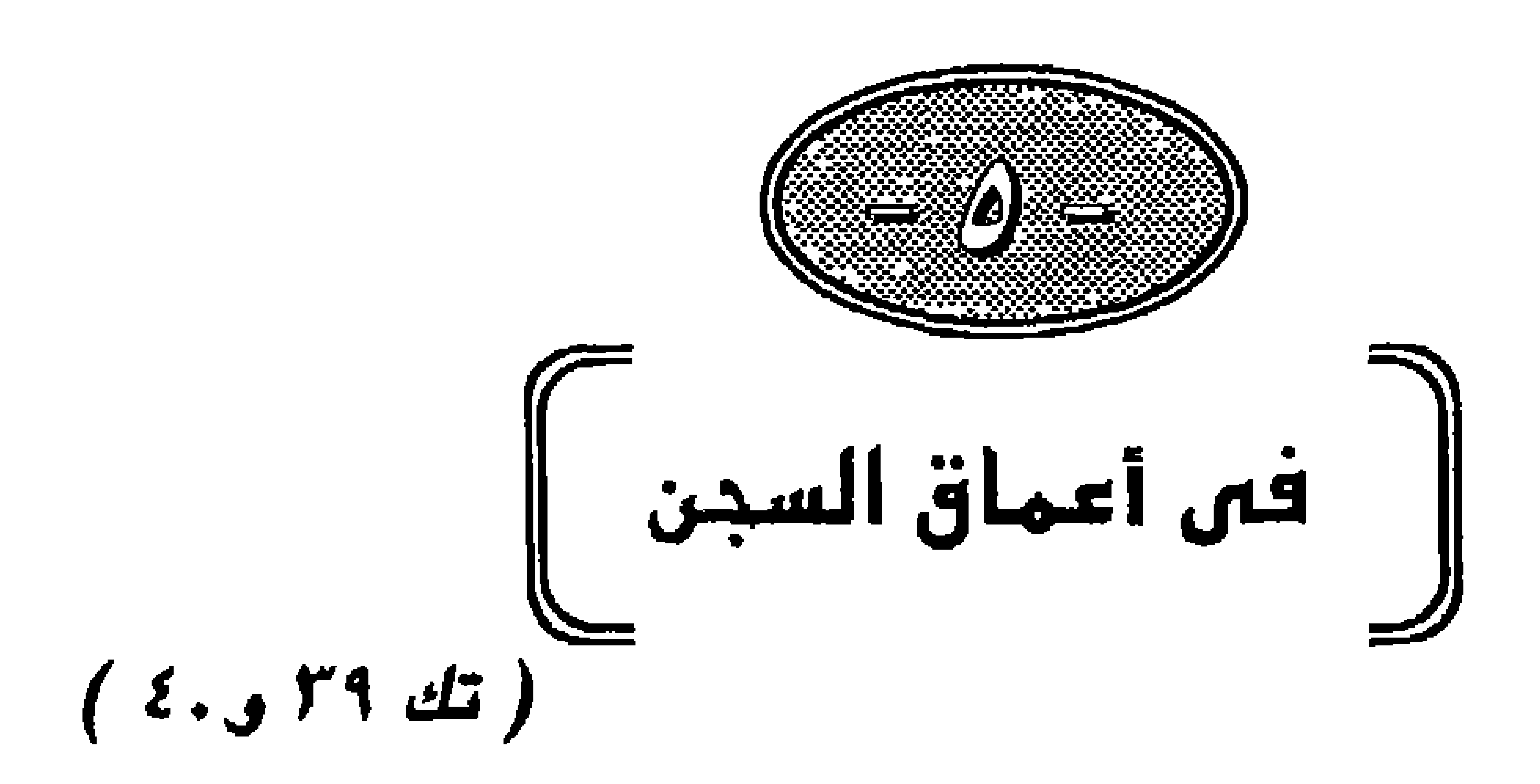
كالبارود تحرم من قوة استجابتها لنداءات الخطية ، طالما كنا ممتلئين من الروح القدس .

والأكثر من ذلك أن الروح القدس عندما يتملك بقوة على القلب فانه ينتزع نفس الرغبة في الخضوع للخطية ، ويحول المحبة القديمة الى كراهية ، وبذلك نبغض وننفر من تلك الأشياء التى كنا نحبها ونطرب لها من قبل .

وفى كثير من الأحيان ، عندما نثق في الهنا ثقة مطلقة ،، فانه يعمل عمله بهدوء وبقوة لحفظ الميول الخاطئة فى مكان الموت ، للدرجة التى فيها نظن أنها قد استؤصلت من طبيعتنا ، كأنها لم تكن . وهذا الاختيار المبارك يستمر طالما كانت النفس تعيش فى ملء التمتع بعمل الروح القدس المبارك .

ليت الرب يجعل هذا من نصيب كل
قارىء لهذه السطور .

✣ ✣ ✣



(تك ٣٩ و ٤٠)

(أنظر أيضا مز ١٠٥ : ١٧ - ١٩)

اختــر لــنــا يارينــا
لئــلا يسـبب لـنـا اختـيارنا السـىء
خسـارة الخيـر العميـم الذى قصـدته لنا
اخـتــر لــنـا يـاربـنـا
فـان حكمتـك لـن تخطـىء قـط
أمـا نحـن فأغبيـاء وعميـان .
فلنستمر فى جهـادنا بالصبر وانكـار الذات
متحملين الصعاب وغير خائفين من الخسـائر
فـان وراء التجـربة المجـد
ووراء الصليب العرش .

(برلى)

لم يكن بين الجب والسجن سوى فترة وجيزة استمتع فيها يوسف بالراحة والتوفيق والنجاح . ولكن سرعان ما تلبد الجو ثانية أمامه بغيوم قاتمـة . لأن فوطيفار لما سمع كـلام زوجـته المختلق الذى كـان يبدو أنه

معقول . ورأى الثوب فى يدها ، وتحقق أنه ثوب يوسف ، حمى غضبه ، ولم يشأ أن يستوضح حقيقة الأمر ، بل طرح يوسف فى السجن العام الذى كان موكلا اليه أمر ادارته .

(١) قسوة الآلام التى تحملها :

لم يكن ذلك السجن كالسجون التى نشاهدها اليوم ، المتوفر فيها الهواء والنور ، والتى يديرها قوم رقيقو العواطف . لقد كان « جبا » مظلما كئيبا ، حسب وصف يوسف له « وهنا أيضا لم أفعل شيئا حتى وضعونى فى السجن »(١) (تك ٤٠ : ١٥) .

هذا يذكرنا بكلمات يوحنا بنيان التى يصف فيها سجن بدفورد والتى يفتتح بها كتابه المنقطع النظير : « بينما كنت أسير فى برية هذا العام استقريت فى مكان ما . حيث كانت توجد فيه مغارة ، وفى هذا المكان اضطجعت لأنام ، وبينما أنا نائم حلمت حلما » .

كان السجن الذى قضى فيه يوسف هاتين السنتين المروعتين يحتوى على غرفتين صغيرتين أو ثلاث ، اكتظت بالمسجونين . هواؤها خانق ، وتملأها الروائح الكريهة ، لا ينفذ اليها نور الشمس .

ان الذين رأوا سجن الكئيب يستطيعون أن يكونوا فكرة عن سجن يوسف . تصور غرفة مظلمة لا نوافذ لها ، رصفت أرضيتها بحجارة غطتها طبقات من الأقذار ، لا يدخلها نور أو هواء الا عندما يفتح الباب لادخال الخبز والماء ، وهما القوت الضرورى للحياة ، بعيدة كل البعد عن أبسط وسائل النظافة ، لا تفكير فى فصل المسجونين بعضهم عن بعض .

---

(١) « هذا الجب » حسب ترجمة اليسوعيين ، وهى أقرب الى أصل النص العبرانى .

لا يسمع فيها طول النهار سوى صليل السلاسل الحديدية التى أوثقت بها أقدام المسجونين وهم يحاولون أن يجروا أنفسهم ببطء على أرضية الغرفة ، أو يدورون ويلفون حول الأعمدة الحجرية الضخمة التى استند عليها السقف ، والتى ربطت فيها السلاسل . لابد أن يكون يوسف قد أودع فى سجن كهذا . لكن انجيل المسيح « ينادى للمأسورين بالاطلاق » (لو ٤ : ١٨) .

كان هذا أمرا شاقا على شخص تعود أن يكون طليقا فى الصحراء السورية الفسيحة الأرجاء . الحبس مرعب لنا كلنا ، سيما للشباب وبنوع أخص للشبان الذين تجرى فى عروقهم دماء العرب ، الذين يرهبون العبودية أكثر مما يخشون الموت . لم أعجب عند سماعى تلك القصة المثيرة للعواطف التى تروى أن بحارا وقف على كوبرى لندن ، وبدأ يشترى قفصا بعد قفص من العصافير البرية السجينة ، ويطلقها حرة لتعود فرحة الى أوطانها . ولما سئل من المتفرجين المنذهلين عن السبب أجاب : بأنه قضى زمنا طويلا معذبا فى أحد السجون ، حرم فيه من حلاوة الحرية . ونحن لا نستطيع أن نقدر قيمة الحرية لأننا لم نحرم منها قط . كذلك لم يقدر يوسف قيمتها بقدر ما قدرها بعد أن زج به فى أعماق ذلك الجب .

وعلاوة على حشر السجن فقد كان يضايقه أيضا صليل القيود الحديدية . فقد كان موثقا بقيود ، وهذه القيود آذت قدميه . صحيح أنه وجد نعمة فى عينى رئيس بيت السجن ، ومنحت له حرية استثنائية داخل أبواب السجن حتى استطاع الاتصال بنزلائه . ولكنه أينما تحرك ذكره صليل القيود بأنه لا يزال سجينا . هذا يذكرنا بشخص آخر من أولاد الله

ممن ذاقوا مرارة السجون ، هو بولس ، الذى كان يأخذ القلم من يد حارسه ليدون توقيعه الذى هو « علامة فى كل رسالة » على صحتها وصدقها ونسبتها اليه (٢ تس ٣ : ١٧) واذ كان يفعل هذا كان يحس بشد السلسلة التى أمسك بها الجندى الحارس . ونحن نكاد نستمع صليل تلك القيود فى هذه الكلمات « اذكروا وثقى » (كو ٤ : ١٨) .

وفوق كل هذا فان معتقداته الدينية زادته ألما . لقد تعلم من أبيه يعقوب تلك النظرية التى كثيرا ما رددها أصدقاء أيوب الثلاثة والتى كثيرا ما نادى بها معلمو وفلاسفة الشرق فى تلك الأيام وهى : ان الأخيار يلقون الخير ، والأشرار يلقون الشر ، وأن النجاح علامة على رضى الله ، والمصائب دليل على الغضب الالهى . ولقد حرص يوسف على أن يكون صالحا .

ألم يكن دواما مطيعا لأوامر أبيه ، سالكا باستقامة ، مع أن اخوته كانوا أشرارا يحاولون أن يجذبوه الى شرهم ؟ ولكن ماذا جنى جزاء استقامته ونزاهته ؟ لم يجن سوى الحقد والحسد ممن كانوا من لحمه ودمه .

ألم يقف ثانيا - فى عنفوان شبابه - أمام غواية المرأة المصرية الجميلة اذ أبى أن يخطى الى الله ؟ وماذا جنى نتيجة لهذا ؟ لم يجن سوى اتهامه بتهمه شنيعة كان بريئا منها ، وعلاوة على هذا نال القصاص ظلما وعدوانا .

ألم يكن دواما شفوقا رقيقا نحو زملائه المسجونين ، ينصت لأقاصيصهم ، ويتكلم بالسلام والتعزية الى قلوبهم ؟ وماذا جنى نظير هذا ؟ أنه - فى نظره - لم يجن شيئا ، ولعله قد خيل اليه بأنه كان الأولى أن يحتفظ بعطفه لنفسه .

وهل كانت هنالك اذن أية فائدة من أن يكون صالحا ؟ هل كان صحيحا ما تعلمه من أبيه أن الخير يأتى للصالحين والشر للطالحين ؟ هل يوجد حقيقة اله يقضى بعدل فى الأرض ؟ أيها القارىء الكريم أن كنت قد زرعت بذور القداسة والمحبة ولم تحصد الا الفشل والخسائر والآلام والبغضاء ، فأنت تدرك ما أحس به يوسف فى ذلك السجن البغيض .

ثم ان مرارة الخيبة والفشل زادت كأسه مرارة . ماذا كان نصيب تلك الأحلام التى رآها فى فجر حياته منبئة بالعظمة ، والتى ملأت قلبه بالآمال والأمانى ؟ ألم تكن من الله ؟ هذا ما اعتقده هو وهذا ما اعتقده أيضا أبوه الوقور . ولابد أن يكون قد تحقق من هذا لأنه طالما تحدث مع الله . أكانت هذه أضغاث أحلام أو مجرد أوهام محموم ؟ هل انعدم الصدق والأمانة والاخلاص من الأرض والسماء ؟ هل تخلى عنه الله ؟ هل نسيه أبوه ؟ ألم يفكر فيه أخوته قط ؟ ألم يفكروا فى البحث عنه ؟ هل قضى عليه أن يقضى كل أيامه فى هذا السجن ، يعيش حياة كئيبة دون أن ينعم مرة ثانية ببركة الحرية ، وكل ذك لأنه سلك باستقامة ؟ أتعجب أن كان قلب ذلك الشاب قد كاد يتحطم ؟

على أن يوسف لا ينفرد بهذه الاختبارات . ربما لا تكون قد سجنت قط ، ومع ذلك جلست مرارا فى الظلمة وأحسست حولك بالقيود التى منعتك من أن تتصرف كما تحب . قد تكون سالكا باستقامة فأدى سلوكك المستقيم هذا الى بعض الضيقات والمتاعب التى لم تكن تتوقعها . فتميل الى القول : « لقد كنت أمينا أكثر من اللازم » ، أو ربما تكون قد صنعت خدمة نبيلة لانسان ما ، كما فعل يوسف لفوطيفار ، فأولت تأويلا سيئا . ومن ذا الذى لا يعرف مرارة سوء فهم الناس له ، وسوء تقديرهم لخدماته ، واتهامهم اياه بالباطل ، وقصاصهم له ظلما وعدوانا ؟

كل امرىء يبدأ الحياة فى حبور وآمال ، والشبان - وهم يحاولون حل مشكلة الوجود العويصة - لا يخشون شيئا . الامال تبتسم لهم . الشمس صافية لا تحجبها الغيوم . والسفينة تسير متئدة يهب عليها النسيم العليل . وبالرغم مما يسمع كثيرا عن تحطم سفن كثيرة فى البحر الغادر فلا شىء من الخوف يخامر الضمير .

وفجأة تتلبد السماء بالسحب الكثيفة ، فيحل الفشل والحزن والنكبات . ويستيقظ البحار الشاب كما من حلم ، صارخا : « أهذا هو أنا ؟ أنا الذى ظننت أن لا يحل بى أى ضرر قط ؟ » عندئذ تحل بالنفس مصارعات شديدة : وأخيرا ، بعد أن تضنى كل القوى فى هذا الصراع العنيف ، تسلم السلاح وترقد هامدة . يقينا أنه كان هنالك شىء من هذا القبيل فى حالة يوسف وهو ملقى فى ذلك السجن البغيض .

(٢) وهذه الآلام انتجت خيرا جزيلا :

ان أبسط ما يقال هو أن السجن خدم مصالح يوسف الزمنية . ففى ذلك السجن كان يزج مسجونو الدولة . كان يرسل اليه عظماء الحاشية الملكية المشتبه فى أمرهم . قد لا ندرك نحن الآن أهمية مركز كل من رئيس السقاة ورئيس الخبازين ، ولكنهما كانا فى وقتهما رفيعى القدر جدا . أمثال هذين كانوا يتكلمون بصراحة مع يوسف ، وبهذا كانوا يعطونه فكرة قوية عن الأحوال السياسية فى الدولة ، وفكرة عن رجال الدولة وكل الشئون بصفة عامة ، الامر الذى لابد أنه أفاده كثيرا فيما بعد .

على أنه يوجد ما هو أهم من ذلك . فى (مز ١٠٥ : ١٨) ، عند الاشارة الى سجن يوسف ، يعبر المرنم عن هذا السجن بتعبير آخر رائع « فى الحديد دخلت نفسه » ، أو بتعبير آخر « الحديد دخل الى نفسه » .

أليس فى هذا التعبير الكثير من الحق ؟ قد لا تكون هذه هى الحقيقة المقصودة من هذه الآية ، ولكن هذه حقيقة راسخة أن الآلام ، والفاقة ، ونير الصبا ، وكبح جماح النفس - هذه كلها تؤدى الى الارادة الحديدية ، وصلابة العود ، وقوة الاحتمال ، وشدة البأس ، والجلد . وهذه هى الأساسات التى لا غنى عنها لتكوين الصفات النبيلة ، فلاتجزع من الآلام . بل تحملها بصبر وصمت ورباطة جأش ، وتأكد بأن هذه هى طريقة الله لادخال الحديد فى تكوينك الروحى .

كانت صفات يوسف كصبى تميل الى الرخاوة . كاد يتلفه تدليل أبيه له . كان فخورا بقميصه . كان يحلو له أن يروى القصص . كان مزهوا بأحلامه وعظمته المرتقبة . لم تكن هذه أخطاء مشينة ، ولكنه كانت تنقصه القوة والعزيمة والقدرة على الادارة .

وما أعظم التغيير الذى صنعه به السجن . فمنذ تلك اللحظة اكتسب حكمة ، واتضاعا ، وشجاعة ورجولة كاملة ، لم تفارقه قط . أصبح يتصرف كأنه قد ولد للقيادة والزعامة . قاد مملكة غريبة فى تلك المجاعة الطاحنة دون أن يظهر شعبها أى أثر لروح التمرد . وقف وسط أرقى وسط طبقات عصره كأنه واحد منهم . عرف كيف يسوس الأمور وسط التغييرات الجوهرية فى الدولة . تعلم أن يصمت وينتظر . يقينا أن الحديد دخل الى نفسه .

هذا عين ما تفعله بك الآلام . يتطلب العالم رجالا من حديد ويتطلب الله قديسين من حديد . وطالما كانت لا توجد هناك طريقة لادخال الحديد الى النفس الا عن طريق الآلام فانه يسمح بها لشعبه . « ولكن كل تأديب فى الحاضر لا يرى أنه للفرح بل للحزن . وأما أخيرا فيعطى الذين يتدربون به ثمر بر للسلام » (عب ١٢ : ١١) .

هل أنت الآن سجين بسبب سلوكك باستقامة ؟ هل أوشكت أفخر سنى حياتك أن تنتهى فى حياة مملة مضجرة ؟ هل أنت محاط بالاضطهادات ، وسوء الظن ، والتشهير ، والاحتقار ؟ تشجع ، فان الوقت لم يضع عبثا . لأن الله انما يضع فى الحديد نفسك . ان تاج الآلام الحديدى يجب أن يسبق تاج المجد الذهبى . والحديد انما يدخل الى نفسك لكى يبعث فيها القوة والشجاعة . .

هل يقرأ هذه الكلمات شخص متقدم فى الأيام ؟ ان كان الأمر كذلك جاز توجيه هذا السؤال : لماذا يسمح الله أحيانا أن يملأ حياة شخص ما بأكملها بالتأديب ، ولا يعطى الا فرصا قليلة لاظهار صفات النفس الحديدية ؟ لماذا يعطى الحديد للنفس ثم يعوقها عن الخدمة الفعلية ؟ هذا سؤال يبرهن برهانا قويا على يقينية الأبدية المجيدة . لابد أن يكون هناك عالم أخر ، عالم خدمة مجيدة ، نتدرب له الآن . قد يرى الله أن الحياة أن وصلت الى السبعين ، أن قضيت كلها فى الآلام ، وليست طويلة لتدريب النفس التى سوف تخدمه طول الأبدية . فى السجن تدرب يوسف للحياة المجهولة التى كانت تنتظره فى قصر فرعون . وان كان الحجاب قد كشف عن عينيه وهو فى السجن ليرى المستقبل لما كان قد استغرب قسوة التدريب .

ونحن كذلك لو أتيحت لنا رؤية ما ينتظرنا فى قصر ملك الملوك لما استغربنا البلوى المحرقة التى قد تحل بنا فى سجون الأرض المظلمة . أنك الآن تدرب للخدمة فى بيت الله ، فى دوائر الكون العليا .

(٣) تعزيات الله ليوسف وسط هذه الآلام :

« وكان هناك فى بيت السجن ، ولكن الرب كان معه (ص٣٩: ٢٠و٢١) .

كان الرب معه فى قصر فوطيفار ولكنه عندما ذهب الى السجن ذهب معه الرب أيضا . لا شيء فى الوجود يفصلنا عن الله سوى الخطية . طالما كنا سائرين مع الله فالله سائر معنا . أن تركنا أعالى الجبال المشمسة المنيرة ، وسرنا فى الوادى المظلم فهو معنا . ورجل الله أكثر من غيره استقلالا عن الناس وعن الأشياء ، وذلك بفضل بركة الله له . هو كالمدينة الذهبية لا يحتاج الى الشمس أو القمر لأن الرب الاله هو نوره الأبدى (رؤ ٢١ : ٢٣) . أن وجد فى قصر أغتبط بوجود الله فيه أكثر من اغتباطه بما يجده فيه من ملذات . وأن وجد فى سجن استطاع أن يرنم ويسبح لأن الله الذى أحبه فى رفقته . فالنفس التى ذابت فى عشرة الله تجد كل الأمكنة وكل الاختبارات على حد سواء . « فقلت انما الظلمة تغشانى . فالليل (ليل الآلام والضيق) يضيء حولى . الظلمة أيضا لا تظلم لديك . والليل مثل النهار يضيء كالظلمة هكذا النور » (مز ١٣٩ : ١١ و١٢) .

وفضلا يضيء عن ذلك فان الرب « **بسط اليه (كشف أو أظهر أو أعلن له) لطفا** » (تك ٣٩ : ٢١) . ويا له من اعلان مجيد . لم يقف فى محراب على الجبل ، كموسى ، لما جازت عظمة الله أمامه . ومع ذلك أظهر له الرب منظرا مجيدا - أظهر له لطفه . كان السجن بمثابة جبل الرؤيا ، من قمته رأى ما لم يره قط من قبل - رأى منظر محبة الله ولطفه .

لذا فقد كان الأمر يستحق الذهاب الى السجن حتى يتعلم كل هذا . اذا أديرت آلة السينما انطبعت الصور على الشاشة البيضاء ، ولكنها لا تظهر اذا كانت الغرفة مليئة بالضوء . أما اذا أظلمت ظهرت الصور بأجلى وضوح . وهكذا كثيرا ما يسمح الله بأن يطفى أنوار حياتنا لأنه يريد أن يرينا رحمته ولطفه .

أيها الأخ الحبيب أن جازت نفسك سجون الضيقات فكن ساهرا فى السجون يندر أن يرى شيء . ومع ذلك ففى السجن رأى يوحنا بنيان قصته ، والتقى بولس بالرب ، ونظر يوحنا من باب السماء المفتوح ، ورأى يوسف لطف الله . وقد لا يرى الله طريقا آخر لاظهار رحمته للبعض منا الا عندما نكون فى حزن شديد . فالليل هو الوقت لرؤية النجوم .

ويستطيع الله أيضا أن يخلق لعبيده أصدقاء فى أحقر الأمكنة ومن أشر البشر . « ولكن الرب ... جعل له نعمة فى عينى رئيس بيت السجن » (ع ٢١) . كان ذلك الشخص على الأرجح فظا ، غليظ القلب ، يحاول التشبه بسيده فوطيفار فى القسوة ، وزيادة التنكيل بهذا العبرانى كل يوم . على أنه كانت هناك قوة أخرى تعمل فى الخفاء ، لا يدرى عنها شيئا وكانت تلك القوة تميل قلبه لذلك الشاب السجين ، وتدفعه الى أن يضعه فى مركز مسئول .. كل قلوبنا مكشوفة لملكنا . وهو يستطيع أن يفتح أقسى القلوب « اذا أرضت الرب طرق انسان جعل أعداءه أيضا يسالمونه » (أم١٦:٧) . ومن اليسير جدا على الله أن يحول قلب أى انسان كما يحول الفلاح مجرى الجدول الصغير ليحمل الخصب الى الأرض الجرداء .

أننا على الدوام نجد راحة من أتعابنا فى خدمة الاخرين

هذا ما اختبره يوسف . لابد أنه اذ وجد نفسه قد أؤتمن على الاهتمام بشئون سجناء الملك رأى فى ذلك عزاء كبيرا فى سلسلة أحزانه المملة المتواصلة . لقد فتح أمامه باب جديد للعمل ، فنسى – أو كاد ينسى – ضغط متاعبه الشخصية وسط لذة الاستماع الى روايات أولئك الذين كانوا أشد تعاسة منه .

جميل جدا أن نلاحظ كيف كان يوسف يهتم بحالة كل واحد ممن أوكلوا لرعايته ، ملاحظا ماذا كانت تعبر عنه وجوههم ، وساعيا لخيرهم بروح العطف ، وجالسا للانصات الى رواياتهم . ان يوسف ليعتبر أول مصلحى السجون . وهو لم يقم بهذا العمل المبارك لأنه كان مدفوعا اليه بروح الغيرة فحسب بل لأنه وجد فيه تخفيفا لألامه .

لا يوجد أى مسكن لأحزان القلب بقدر خدمة الأخرين . أن كانت حياتك قد تثقلت بالأحزان فلا تجلس وحيدا لتندب سوء حظك ، بل قم للبحث عمن هم أشد منك بؤسا ، حاملا اليهم بلسانا لجروحهم ومحبة لقلوبهم الكسيرة . وأن كنت عاجزا عن تقديم مساعدات عملية كثيرة فلا مبرر لك للجلوس وحيدا والاستسلام للحزن ، لأنك تستطيع تعزية مرى النفس بالاقتداء بيوسف فى الاصغاء لرواياتهم عن آلامهم أو أحلامهم المنذرة بالشر . أن حسن الاصغاء فن عظيم . فالقلب المثقل بالهموم يتوق الى أن يسكب روايته فى أذن تعطف . وفى الافضاء بآلامنا راحة عظمى ، ولكن ذلك لا يمكن أن يتم بتعجل ، فالأمر يستدعى طول الوقت ، والنفس لا تستطيع التحرر من كل ما يثقلها الا ان أعطيت الوقت الطويل ، ولذلك كثيرا ما رأينا الحزانى ينصرفون عن كثيرى المشاغل ، الذين تدفعهم الحياة دفعا بلا رحمة ، ويبحثون عمن قصت أجنحتهم مثلهم ، واضطروا الى السير ببطء كيوسف عندما وجد عبيد فرعون فى السجن . أن كنت لا تستطيع أن تفعل شيئا فتعلم كيف تحسن الاصغاء ، وعز الآخرين بالتعزية التى تعزيت بها أنت نفسك من الله (٢ كو ١ : ٤) .

وأنت اذ تصغى ، وتعزى ، وتمسح الدموع المنهمرة ، سوف تكتشف أن نيرك أخف ، وأن فرعا من الشجرة الحقيقة ، شجرة الصليب ، قد سقط

فى مياه حياتك المرة ، فحول مرة النفس الى نعمى ، وأبرأ مستنقع الدموع المالحة (خر ١٥ : ٢٣ و٢٤) . بمثل هذا التصرف تجد أنت ما وجده يوسف - تجد ذلك المفتاح الذى به تفتح الأبواب الثقيلة التى كنت محبوسا داخلها .

بقيت الآن بضع كلمات لمن يتألمون ظلما :

لا تتعجبوا . أنتم أتباع ذاك الذى أسيء فهمه منذ سن الثانية عشر الى يوم صعوده ، الذى لم يفعل خطية ومع ذلك حسب كخاطيء ، الذى قيلت عنه هذه الشهادة بالاجماع « أنى لا أجد فيه علة » (لو ٢٣ : ٤) ، ومع ذلك دعى « بعلزبول » ، أن كانوا قد قالوا هذا عن رب البيت فماذا يقولون بالأحرى عن أهل البيت ؟ « لا تستغربوا البلوى المحرقة التى بينكم حادثة كأنه أصابكم إمر غريب » (١ بط ٤ : ١٢) وكل ما عليكم هو أن تتأكدوا بأنكم تتألمون ظلما ، وكمسيحيين .

لا تفشلوا فى عمل الخير .كان ممكنا ليوسف أن يقول : فلأتركن كل شيء ، ما الفائدة من تقواى ، ولماذا لا أعيش كما يعيش الآخرون ؟ ولكنه كان نبيلا اذ استمر بالصبر فى العمل الصالح (رو ٢ : ٧) . افعلوا الحق لأن فعل الحق فضيلة ، لأن الله يراكم ، ولأن ذلك يملأ القلب فرحا وسرورا . اذا ما أسى اليكم بعد ذلك ، أو أسى الظن بكم ، فسوف لا تنحرفون عن الحق . ولا تولولون ولا تستسلمون لليأس .

وفوق كل شيء **لا تنتقموا لأنفسكم** . عندما عدد يوسف متاعبه لم يسب اخوته ، أو فوطيفار ، أو امرأة فوطيفار انما قال بكل بساطة « انى قد سرقت من أرض العبرانيين . وهنا أيضا لم أفعل شيئا حتى وضعونى فى السجن (ص ٤٠ : ١٥) . لعله جالت

بخاطره كلمات الرسول « لا تنتقموا لأنفسكم . بل اعطوا مكانا للغضب » (رو ١٢ : ١٩) ، « ان كنتم تتألمون عاملين الخير فتصبرون فهذا فضل عند الله » (١ بط ٢ : ٢٠) .

اننا نخطيء كثيرا ان كنا نحاول دواما أن نبرىء أنفسنا فالأحرى بنا ، والأكثر حكمة ، أن نستمر في عملنا ، نترك لله أن يظهر حقنا . « يخرج مثل النور برك وحقك مثل الظهيرة » (مز ٣٧ : ٦) . عندما تحدث المرنم عن يوسف قال « قول الرب امتحنه » أو (برأه) حسبما يحمله المعنى (مز ١٠٥ : ١٩) ويالها من تبرئة مجيدة تلك التى صنعها الله مع عبده الأمين هذا .

سوف تأتى ساعات في كل أيام حياتنا نعرض فيها لسوء الفهم ، سوء المظنة ، والسب ، والتهم الباطلة ، والاضطهاد ظلما . في مثل هذه الأوقات يعسر علينا عدم التصرف بنفس الخطة التى يسلكها الذين حولنا فى العالم . فانهم فى الحال يلجأون الى القضاء ، والقوة ، والرأى العام . أما المؤمن فانه يرفع قضته الى محكمة أعلى ، ويضعها أمام الهه . هو مستعد أن يستخدم أية وسيلة يظنها متفقة مع ارادة الله ، ولكنه يفضل بالأحرى الاعتماد على العناية الالهية التى تظهر حقه عن الاعتماد على أكمل تدبيرات شخصية . وهو لا يرى بأسا من الانتظار شهورا وسنوات حتى يقوم الله لينصفه . هو لا يبالى كثيرا اذا ما عوجت المحاكم البشرية قضيته ، لأن كل ما يهمه هو محاكمة الله ، وهو ينتظر اللحظة التى فيها يضىء الأبرار فى ملكوت أبيهم كالشمس ، عندما تظهر من وسط كل السحب القاتمة (مت ١٣ : ٤٣) « متى أظهر المسيح حياتنا فحينئذ تظهرون أنتم أيضا معه فى المجد » (كو ٣ : ٤) .

ياله من اجراء مجيد ذلك الذى يتم هناك : اعلان للاسرار ، وازالة لكل سوء مظنة ، واجلاء للحقائق . أيها المضطهدون ظلما ، انكم تستطيعون انتظار حكم الأبدية العادل ، حكم الله الذى سوف يخرج مثل النور بركم ، وحقكم مثل الظهيرة .

كم هو ضرورى جداً أن نرى ارادة الله تهيمن على كل تأديب فى الحياة . فان تطلعنا الى ضيقاتنا ومتاعبنا ، كأنها نتيجة خبث الانسان ، امتلأت حياتنا فزعا وضيقا . لأنه من العسير احتمال الآلام من أيدى البشر ؟ والتفكير بأنه كان من الممكن تلافيها . ولكن هناك نظرة أصدق ، وأكثر راحة ، هى أن نعتبر بأن كل الأشياء خاضعة لناموس الله وتدبيره . ولذلك فبالرغم من أنها آتية الينا بسبب خبث وشر اخوتنا ، لكن نظراً لأنها قبل وصولها الينا يجب أن تمر فى الجو المحيط بحضرة الله ، فانها سوف تتحول الى ارادة الله الصالحة من أجلنا .

كان يهوذا هو الذى تآمر لتدبير موت مخلصنا ، وملأ البستان بالمشاعل والجند الذين ألقوا القبض عليه . ومع ذلك فقد قال الرب يسوع ان الآب هو الذى وضع كأس الآلام على شفتيه (يو ١٨ : ١١) . وبالرغم من أن رؤساء الكهنة والفريسيين هم الذين قتلوه ، الا أنه يقول أنه رضخ لتدبير الآب كما يتحدث عن وضع حياته كأن موته من تدبيره كلية . أن من يحبون الله لا يلقون شرا . والمؤمن يغض الطرف عن المسببات الثانوية ، لأن كل نظره محصور فى التأمل فى كشف إسرار ارادة أبيه . قال مرة أحدهم وهو يحتضر : كل شىء خاضع لناموس ثابت .

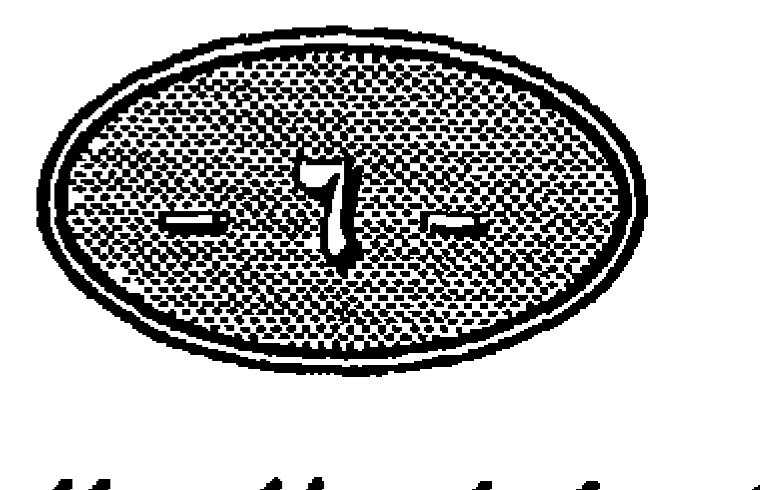
ينبغى أن لا نستغرب ان جازت حياتنا الخارجية أو اختباراتنا الداخلية وسط بعض الظلمات . فأشعة الشمس أن لم تحجبها السحب بعض

الأحيان خبلت عقولنا ، ونجاح النفس أو الظروف على طول الخط يسبب ثورة روحية وخيمة العواقب لأقصى حد . يجب أن نحرم من المنظور أو الملموس بعض الأحيان ، لكي نحصل على فن السلوك بالايمان . يجب أن ينتزع حزام العوم المصنوع من الفلين لكي نضطر الى الثقة بأنفسنا وسط الأمواج المتلاطمة . يجب أن ننزل الى الوادى المظلم لكي نختبر بأنفسنا ضرورة الاتكال على العصا والعكاز اللذين كنا فيما مضى نعتبرهما كأمرين زائدين عن الحاجة ، أو ثانويين .

أرسل أمامهم رجلا
بيع يوسف عبدا
آذوا بالقيد رجليه
فى الحديد دخلت نفسه
الى وقت مجىء كلمته
قول الرب امتحنه
أرسل الملك فحله
أرسل سلطان الشعب فأطلقه
أقامه سيدا على بيته
ومسلطا على كل ملكه
ليأسر رؤساءه حسب ارادته
ويعلم مشايخه حكمة

(مز ١٠٥ : ١٧ - ٢٢)

✣✣✣



الخطوات إلى العرش

(تك ٤١)

لـــم يصـــل العظمـــاء الى ذروة المجـــد
بخطـــوة فجـــائية فى يـــوم وليـــلة
ولكنهـــم كانـــوا يواصـــلون نهـــارا وليلا
بينمـــا كان زمـــلاؤهم يعيشـــون حياة
الخمـــول والكســـل ونحـن عندما نستمر
فى جهـــادنا نستـطيع أن نـــرى الطريق
الى المجد .

(لونجفلو)

ان الخطوات التى سار يوسف فى اثرها من السجن - حيث تركناه - الى العرش ، معروفة جيدا لكل قارىء ، حتى ان الحاجة لا تدعو لشرحها تفصيلا . وانما سنقصر تأملاتنا بايجاز فى هذا الفصل على النقط الأكثر أهمية :

(١) الرجاء المماطل :

« أذكرنى حينما يصير لك خير » (تك ٤٠ : ١٤) . كان هذا طلبا متواضعا مثيرا للعواطف ، طلبه يوسف من موظف الدولة الرفيع القدر

الذى فسر له حلمه تفسيرا فى مصلحته . على أن البعض يظنون بأن يوسف قد أخطأ فى تقديم هذا الطلب ، ويعللون هذا الرأى بالقول انه ما كان يليق به أن يطلب من هذا الرجل التوسط لدى فرعون طالما كانت صلته بملك الملوك وثيقة ، ويستطيع أن يقدم اليه شكواه فى أى وقت . ولاخواننا المسلمين حديث جميل فى هذا الشأن اذ يقولون ان الله حول سجنه الى جنة فيحاء تتوسطها نافورة ، وعلى بابها شجرة وارفة الظلال تثمر ثماراً شهية . وأنه عندما قدم هذا الطلب تحطمت النافورة وذبلت الشجرة ، ذلك لأنه اتكل على معونة انسان ضعيف بدلا من الثقة فى الله .

قد يكون هناك بعض الحق فى كل هذا . ومع ذلك فانه لا يليق بنا أن نشدد النكير على هذا الشاب فى أشد أوقات محنته . فان أقوى رجال الايمان قد خارت عزائمهم فى وقت ما . هوذا ايليا قد انبطح على رمال الصحراء وطلب الموت لنفسه ويوحنا المعمدان - قد خامرته الشكوك فى ظلمات السجن - أرسل اثنين من تلاميذه الى المسيح ليتأكد أن كان هو المسيح المنتظر . وغيرهما من الأبطال خارت نفوسهم فى بعض الظروف المحزنة ، وكادت تنطفى شعلة ايمانهم العظيم ، فان كان يوسف قد التجأ فى هذه اللحظة الى المعونة البشرية على أساس أنها أقرب اليه من المعونة الالهية ، وأنها حسية أكثر منها ، فمن منا يستطيع أن يدينه ؟ من منا لا يرثى له ؟ من منا كان فى استطاعته أن يسلك طريقا آخر كثيراً ما صرحنا بأن نفوسنا تنتظر الرب لا سواه ، وفى نفس الوقت التجأنا للبشر لطلب المعونة منهم .

يذكرنا هذا الطلب « اذا ذكرتنى » أو اذكرنى » بتلك الطلبة التى رفعها اللص اليمين - وهو منحدر الى الظلمة الكثيفة - الى المسيح . ولكن

ما أعظم الفرق بين استجابة كل من الطلبتين . فطلبة اللص قد استجيبت فى الحال . واذ كانت الشمس تغرب وراء الجبال الغربيه دخل اللص التائب المؤمن تلك المدينة التى لا تغرب شمس مجدها قط ، وأدرك معنى وجوده مع المسيح فى الفردوس . أما يوسف فقد كان الحال معه بعكس هذا .

تقبل الرجل العظيم هذه الطلبة عن طيب خاطر ، ووعد باجابة كل ما طلب قائلا : « يقينا سأذكرك » . لا شك فى أنه اعتزم أن يعطيه مركزا فى دائرة عمله . وعند خروجه نتخيله يقول استودعك الله ، ستسمع منى قريبا .

ولكنه « نسيه » . يالها من كلمة مرة . لعل الكثيرين منا يعرفون مرارتها عمليا . مرت الأيام ، يوما بعد يوم ، ويوسف يتوقع أن تصله أية علامة على أن صديقه ذكره وتوسط له . ومرت الأسابيع ، أسبوعا بعد أسبوع وهو يرقب رسالة النجاة ، وكثيرا ما نهض بسبب قرعات فجائية جعلته يتوهم أن وقت الفرج قد أتى .

بعد ذلك صار يتلمس المعاذير الواهية للابطاء : لا شك في أن رئيس السقاة كان عليه أن يتقبل تهانى الأصدقاء ، ولعل الكثير من الأعمال قد تراكمت أثناء غيابه فصارت الآن تشغل جزءا كبيرا من وقته . ولعل الكثير من الأعمال قد تعوج سيرها فتطلب تقويمها كثيرا من الجهد والوقت . أو لعله كان يتوقع فرصة مناسبة يرفع فيها قضيته الى الأعتاب الملكية . وهكذا ظل وقتا طويلا فى هواجسه يعلل نفسه بالآمال الكاذبة ويحارب الأفكار المزعجة التى كان من العسير أن لا تهاجمه . وأخيرا لم ير فائدة من أن يخفى عن نفسه تلك الحقيقة المرة التى تسللت الى عقله بقوة رويدا رويدا وهى أنه قد أصبح نسيا منسيا .

لابد أن هذا الرجاء المماطل قد أمرض قلبه (ام ١٣ : ١٢) ولكنه ظل ثابتا لا يتزعزع . أن كان قد خاب رجاؤه فى البشر فذلك أدعى لازدياد ثقته فى الله . ولعله قال نتيجة لهذا : « انما لله انتظرى يانفسى لأن من قلبه رجائى . انما هو صخرتى وخلاصى . ملجأى فلا أتزعزع » (مز ٦٢ : ٥ و٦) . أما ثقته فى الله فلم تذهب سدى ، لأنه بسلسلة من أعمال عنايته الالهية العجيبة أخرجه من السجن ، وضع له خيرا أكثر مما كان ممكنا أن يصنعه له رئيس السقاة .

قد يقرأ هذه الكلمات بعض ممن وقعوا فى حيرة أو ضيق كما حل بيوسف فى السجن ، وحاولوا مرارا أن يدبروا لأنفسهم طريقا للنجاة . ربما يكونون قد ساعدوا صديقا على الهجرة على أساس أن يرسل اليهم بعض النقود لمساعدتهم اذا ما وفق فى عمله بمهجره ، ربما يكونون قد لجأوا الى بعض أشخاص كانوا فقراء مثلهم ولكن انتقلوا الى سعة عظيمة . ربما يكونون قد طلبوا أى نوع من المساعدة من بعض معارفهم الذين كانوا شركاء فى الفقر ، لكنهم أصبحوا فجأة أثرياء . كانوا فى بداية الأمر يعللون أنفسهم بالآمال . كانوا يتوقعون كل يوم أن يحمل اليهم البريد الخطاب المرتقب . قيل عن سيدة فى أمريكا انها كانت تذهب كل يوم الى مكتب بريد القرية تسأل عن خطاب من ابنها وعدها بارساله وظلت على هذه الحال عشر سنوات ولكن الخطاب لم يصل . يالمرارة الفشل والخذلان . وتلك المرارة تشتد عندما ننسى.

(٢) لمثل هؤلاء نقدم ثلاث نصائح موجزة :

١ - « كفوا عن الانسان الذى فى أنفه نسمة » (أى نسمة الحياة فى أنفه) (اش ٢ : ٢٢) . صحيح أننا لا نقدر أن نعيش بدون

العطف البشرى والصداقة البشرية . أننا نتوق الى لمسة اليد البشرية ، وسماع الصوت البشرى . أننا نتلهف لأى تشجيع يقدمه الانسان الضعيف تلهف الغريق ليمسك قشة . لكن البشر يخيبون آمالنا . وكم برهنت الأيام على أن أحسن البشر عاجزون عن تقديم المساعدة التى كنا نتوقعها ، بل غير راغبين فى تقديمها . « ملعون الرجل الذى يتكل على الانسان ويجعل البشر ذراعه وعن الرب يحيد قلبه ، ويكون مثل العرعر فى البادية ولا يرى اذا جاء الخير بل يسكن الحرة فى البرية أرضا سبخة وغير مسكونة » (ار ١٧ : ٥ و٦) .

٢ - **تحولوا من فشل الانسان ونسيانه الى ثبات الله وأمانته** . فهو ، يبقى أمينا » (٢ تى ٢ : ١٣) . اذا وعد لا يمكن أن يخل بوعده . هو يقول بنفسه « لا تنسى منى » (اش ٤٤ : ٢١) قد تنسى الأم رضيعها ولا ترحم ابن بطنها أما الرب فلا ينساكم (اش٤٩:١٥). قد يترككم طويلا بلا معونة ، قد يترككم معذبين فى العاصفة حتى الهزيع الرابع ، قد يبدو صامتا قاسيا ويبقى حيث هو يومين كأنه لا يعنيه موت لعازر ، قد يهمل صلواتكم فتتراكم كما تتراكم الخطابات على الطاولة دون فضها بسبب غياب صاحب البيت ، ولكنه سوف يقول أخيرا « ياامرأة عظيم ايمانك ، ليكن لك كما تريدين » (مت ١٥ : ٢٨) .

٣ - **انتظروا الرب** . نحن كثيرو التسرع ، والتعجل ، والقلق ، والجزع . هذا خطأ جسيم . كل الذين ينتظرون يفوزون بتحقيق آمالهم . « والذين ينتظرون الرب هم يرثون الأرض » (مز ٣٧ : ٩) . ربما تكون قد حملت - كما حلم يوسف فى حداثته - بأن تكون قويا ، نافعا ، سبب بركة للآخرين . ولكن تلك الأحلام لم تتحقق . فكل تدابيرك فاشلة . وكل

باب يبدو مغلقا . والسنون تمر وهى تزيدك شعورا أليما بأنك لم تصنع أى خلاص فى الأرض والان حول قلبك الى الله ، اقبل ارادته ، أخبره بأنك تترك له تحقيق أحلامك . « انتظر الرب واحفظ طريقه فيرفعك لترث الأرض الى انقراض الأشرار تنظر » (مز ٣٧ : ٣٤) . قد يتركك الله فى انتظارك مدة أطول ، ولكنك سوف تراه يحقق كلمات أحد الذين عرفوا بالاختبار أمانته « أما خلاص الصديقين فمن قبل الرب حصنهم فى زمان الضيق . ويعينهم الرب وينجيهم . وينقذهم من الأشرار ويخلصهم لأنهم احتموا به » (مز ٧ : ٣٩ و٤٠) .

(٣) حلقات سلسلة العناية الالهية :

أما أولا فان امرأة فوطيفار اتهمت يوسف تهمة شنيعة لا أساس لها أدت الى سجنه . ثم نرى ذلك الشاب السجين ينال عطف حارس السجن فيمنحه حرية الاتصال بالمسجونين . بعد ذلك يحدث فى نفس الوقت أن اثنين من موظفى الدولة يزج بهما فى السجن بتهمة محاولة دس السم لفرعون . ثم يدل تفسير يوسف لحلميهما ، واتمام الحلم كما فسره ، على أنه وهب قوة غير عادية . بعد ذلك تنطمس ذاكرة رئيس السقاة لئلا يحاول اتخاذ تدبير فى مصلحته قبل الوقت المعين . وأخيرا يحلم فرعون بعد مرور سنتين كاملتين .

قد يبدو للشخص العادى أن للصدفة دخلا كبيرا فى كل هذا . أما المؤرخ المسترشد بروح الله فانه يكشف لنا القناع ، ويبين لنا أن الله كان يتمم قصده خطوة خطوة .

تكرر حلم فرعون على نمط واحد لكى يبين لأبلد العقول أن حادثا جوهريا قصد به أن يتم . وكان المنظر فى كل من المرتين هو شاطىء

النهر ، أولا المرعى الأخضر « روضة » ، وبعد ذلك التربة الدسمة . كان فألا رديا أن ترى البقرات الهزيلات تبتلع السمينات ، والسنابل الرقيقة تبتلع السمينة . ولا يدعو الى الدهشة أن يستدعى على عجل جيش الكهنة الذين كانوا على صلة مستمرة به ، والذين سندهم فى هذه المناسبة كل الحكماء الماهرين فى هذا الفرع من العلم . ولكن لم يوجد من يستطع تعبير حلم فرعون . هكذا « جهل الله حكمة هذا العالم » (١ كو ١ : ٢٠) .

وفى وسط الارتباك الذى ساد القصر تذكر رئيس السقاة فجأة اختبارات السجن ، وحدث الملك عن الشاب الأسير العبرانى . رحب الملك بالاقتراح بشغف ، واستدعى يوسف « فأسرعوا به من السجن » (أو « جعلوه يركض » كما جاء فى بعض الترجمات) . وبالرغم من تلهف الملك الشديد فقد اضطر للانتظار حتى يحلق يوسف شعره ويبدل ثياب السجن . كان أمرا جوهريا لدى المصريين أن يراعوا النظافة الكاملة وحسن الهندام لدرجة أن أسرع الأمور كانت ترجأ حتى يراعى هذان الأمران . مما يؤسف له أن يهتم البشر بمظهرهم أمام بعضهم البعض مع أنهم لا يبالون بمظهرهم أمام الله . كم من أشخاص لا يتجاسرون على دخول صالون عام أن لم تكن ثيابهم بيضاء شفافة ، ولكنهم لا يبالون أن كانوا يحملون قلوبا سوداء كالحبر .

يحلو لنا أن نلاحظ اشارات يوسف الوقورة لله فى مقابلته الأولى لفرعون « ليس لى ، الله يجيب بسلامة فرعون » (تك ٤١ : ١٦) ، « قد أخبر الله فرعون بما هو صانع » (ع ٢٥) ، « الأمر مقرر من قبل الله والله مسرع ليصنعه » (ع ٣٢) ، يحاول المراؤون حشر اسم الله فى أحاديثهم ، ولا شك فى أن هذا ناشىء عن اعتقادهم بأن هذا ما يفعله

أولاد الله الحقيقيون . وفى هذا الاعتقاد بعض الحق . فانه اذا امتلأ القلب بالله اضطر اللسان أن يلهج بذكره ، فتصبح أمثال تلك الاشارات سهلة وطبيعية . ليت حياتنا الداخلية تزداد امتلاء من محبة يسوع وقوته ، بل من شخصه المبارك . ان فاضت قلوبنا بكلام صالح غلت وتحدثنا كثيرا عما يمس ملكنا (مز ٤٥ : ١) . لم يخجل يوسف من التحدث عن الهه وسط الجمع الحاشد من الوثنيين فى قصر فرعون . فخليق بنا أن لا نحجم عن الشهادة لالهنا مهما اشتدت المقاومة أو السخرية .

ازاء هذا الموقف ، وهو اعتراف يوسف بالله ، لم تكن هناك صعوبة فى تفسير التهام السبع البقرات الهزيلة للسبع السمينة ، وابتلاع السبع السنابل الرقيقة الملفوحة بالريح الشرقية للسبع السمينة ، أو فى اشارته بأن سبع سنى الشبع ستتبعها سبع سنى جوع ، لدرجة أن سنى الشبع تنسى فى أرض مصر .

والان وأمامنا التفسير فاننا لا ندهش لأن يوسف قدمه ، بل لأن جميع حكماء فرعون عجزوا عن الوصول اليه . ولكن لعل الله سمح بطمس بصائرهم لكى تكون الفرصة مهيأة لرفعة يوسف التى قصدت له منذ طفولته . هنا - كما فى مناسبات أخرى كثيرة - نرى توضيحا لهذه الكلمات الالهية : « أخفيت هذه عن الحكماء والفهماء وأعلنتها للأطفال . نعم أيها الآب لأن هكذا صارت المسرة أمامك » (لو ١٠ : ٢١) .

فى وسط الجمع المحتشد فى القصر فسر يوسف حلم الملك وكانت تحيط به أعين السحرة الذين كان عسيرا عليهم أن يعترفوا بفضل العبد العبرانى عليهم . صيغ الحلم فى قالب مصرى بحت وكان متصلا بالنيل الذى يحترم المصريون مياهه احتراما عظيما ، سواء لحلاوتها وعذوبتها ،

أو لفيضانه السنوى الذى كان يحمل الخصب الى كل الأراضى . لهذا ، ولاعتبارات مماثلة ، كان النيل موضوع عبادتهم . أما الجاموسة ، المعروفة فى مصر جيد المعرفة ، فيلذ لها الوقوف فى المياه فى الطقس الحار ، والبقاء ساعات فيها لترطّب جسمها ، غامرة فيها كل جسمها عدا رأسها اذن فلم يكن منظر القطيع الخارج من النهر أمرا شاذا . لم يجد يوسف صعوبة فى اقناع مستمعيه عندما قال ان هذه السبع البقرات، وكذا السبع السنابل فى ساق واحد ، تركز الى سبع سنى شبع فى كل أرض مصر .

ولكن لعل الذى أكسب يوسف هيبة لدى السامعين لم يكن التفسير بل الخطة الحكيمة الرشيدة التى رسمها . عندما كان يسرد توصياته التالية : أى اقامة رجل حكيم حصيف الرأى لادارة ذلك العمل الخطير ، وانشاء ادارة جديدة تتولى مهمة جمع مؤونة البلاد لتوزيعها أثناء المجاعة القادمة ، وتشييد مخازن متسعة فى المدن المختلفة - كان واضحا أنه يتحدث بروح أسمى منه ، وبقوة ملكت مشاعر فرعون ومستشاريه حتى انهم لم يستطيعوا الا الموافقة على ما أشار به « فحسن الكلام فى عينى فرعون وفى عيون جميع عبيده . فقال فرعون لعبيده هل نجد مثل هذا رجلا فيه روح الله » (ع ٣٧ و٣٨) .

ليتنا نحمل معنا طابع روح الله حتى فى أعمالنا العالمية ، أنه لأمر يستحق الآلام ، حتى فى السجن ، لو كانت هذه هى الطريقة لطلب روح الله . ولكنه يعطى بشروط أسهل « اسألوا تعطوا . اطلبوا تجدوا . افتحوا قلوبكم تنالوا » .

هنا نجد توضيحا جميلا لقول الوحى « أنى أكرم الذين يكرموننى » (١ صم ٢ : ٣٠) . فأنه لما فسر يوسف الحلم وقدم نصيحته ، ولم يكن يفكر قط أنه انما يمهد الطريق لمستقبله . قال فرعون لعبيده « هل نجد مثل هذا رجلا فيه روح الله ؟ » ثم التفت الى يوسف وقال « بعد ما أعلمك الله هذا ليس بصير وحكيم مثلك . أنت تكون على بيتى . وعلى فمك يقبل جميع شعبى . الا أن الكرسى أكون فيه أعظم منك . انظر قد جعلتك على كل أرض مصر » (ع ٣٩ - ٤١) .

كانت رفعة يوسف أمرا عجيبا . فقد انتقل فى طرفة عين من السجن الى العرش . سبق أن وبخه أبوه ، أما الآن فاننا نرى فرعون ، أرفع ملوك زمانه ، يكرمه . سبق أن احتقره اخوته ، أما الآن فان أعظم كهنة العالم يفسحون له الصفوف ليقبلوه بينهم بالمصاهرة ، معتبرين أنه من الحكمة كسب عطف ذاك الذى منذ تلك اللحظة ستؤول اليه أقوى سلطة فى البلاد . أما اليدان اللتان كانتا تشقيان فى الخدمة كعبد فقد ازدانتا بالخاتم الملكى . والقدمان لم تعودا تعذبان بالقيود . وعلق حول عنقه سلسلة ذهبية والقميص الملون الذى نزع عنه بقسوة ولطخ بالدماء ، والثوب الذى تركه فى يدى الزانية ، استبدلا بأفخر الثياب الملكية .

لقد مرت عليه أيام كان ينظر اليه فيها « كوسخ كل شىء » ، أما الآن فقد صدر الأمر لكل المصريين لكى يجثوا أمامه عندما يمر فى مركبته كرئيس لوزراء مصر ، لا يوجد من هو أرفع منه الا الملك . ألا يفسر لنا ذلك ترنيمة حنة أم صموئيل التى ترنمت بها على مثال أنشودة القديسة العذراء مريم :

الـــرب يمـــيت ويحيـــى
يهبط الى الهاوية ويصعد

الـــرب يفقـــر ويغنـــى
يضــــع ويـــــرفـــع
يقيـــم المسـكين مـــن التـــراب
يرفع الفقير من المزبلة للجلوس مع الشرفاء
ويملكهـــم كرســـى المجـــد
(١ صم ٢ : ٦ - ٨)

كل هذا تم ليوسف لأنه يوما ما لأجل الله ، قاوم تجربة واحدة . لو أنه خضع لها ربما لم نكن قد سمعنا عنه بعد . ربما كان قد فتك به ذلك العدو الجبار الذى كل قتلاه أقوياء ، وانحدر الى ظلمات القبر ، ولما كان قد تزوج زيجة سعيدة ، ولا أنجب أولادا ، ولما كان قد تكلل بالمجد والكرامة ، وما كانت هناك فرصة لكى تكون حياته نافعة ومثمرة ، وما كان قد رأى وجوه الأب والأخوة العزيزين ، وما كان قد ظهر ببركاتهم الغزيرة . ياله من خير جزيل حل به لأنه لم يستسلم للتجربة .

اذن فلنقف ثابتين ، لنطلب أولا ملكوت الله وبره ، لنحرم نواتنا من اللذات الوقتية من أجل محصول القناعة البعيد المدى ، لنكرم الله باطاعة أصغر وصاياه ، لنجرؤ على أن نقول « لا » أمام المجرب . لنرتض بأن ننقص . وعندئذ يتحول التيار ، فالله أمين حتى لا ينسى ، أنه يعود ويرحمنا ، ثم يرفعنا لنرث الأرض (مز ٣٧ : ٣٤) .

وعندما يأتى ذلك اليوم فلننسب كل شىء لله . أننى أعجب كل الأعجاب بالاسمين اللذين دعا بهما يوسف ولديه . فهما يعبران عن طبيعة قلبه اذ كان فى أوج مجده . فالاسم « منسى » يعنى « منسى » لأن الله أنساه كل تعبه . والاسم « افرايم » معناه « ثمر مضاعف » لأن الله جعله

مثمرا . كن ثابتا فى الحق فانك سوف تنسى آلامك وطول انتظارك ، وتكون مثمرا . ثم كن مطمئنا وأعط المجد لله .

(٤) أوجه الشبه بين يوسف والرب يسوع :

انها كثيرة على كل وجه . أن الحوادث المقبلة تسطع بنورها مقدما . فالروح القدس أبرز مقدما فى حياة يوسف أسمى صفات سر المحبة التى كانت سوف تعلن فيما بعد .

لقد رفض يوسف من اخوته ، ورفض يسوع من اليهود ، اخوته حسب الجسد .

بيع يوسف بعشرين من الفضة للاسماعيليين ، وبيع يسوع بخيانة يهوذا بثلاثين من الفضة ، ثم سلم للأمم .

طرح يوسف فى السجن واضطجع يسوع فى القبر .

استطاع يوسف فى السجن أن يكرز ببشارة الخلاص إلى رئيس السقاة ، ونزل يسوع الى الجحيم وكرز بالانجيل للأرواح المنتظرة هناك .

أما اللصان اللذان علقا على الصليب فيشبهان زميلى يوسف فى السجن .

مع أن يوسف كان يهودى المولد ، ورفض من اخوته ، الا أنه رفع الى أسمى مركز فى مملكة وثنية ، وخلص ربوات من بنيها من الموت . ويسوع ، مع أنه كان يهودى المولد ، ورفض من اليهود ، الا أنه ارتفع الى عرش القوة ، وهو الآن متوج فى قلوب ربوات من الامم الذين أتى اليهم بخلاص من الموت ويخبز روحى لجوعهم .

ونفس الاسم الذى أطلقه فرعون على يوسف يعنى « مخلص العالم » (ع ٤٥) وهو لقب مخلصنا .

نعم ويجب أن تتمشى أوجه الشبه الى مدى أبعد ، فان يوسف بعد أن ظل بعض الوقت يحكم مصر ويباركها أتى اليه اخوته الحقيقيون طالبين الصفح والمعونة . هكذا سوف تأتى الأيام قريبا حيث يهرع اليهود الى المسيح ، كما يفعل الان ألوف فى روسيا الشرقية ، صارخين « يسوع أخونا » . « وهكذا سيخلص جميع اسرائيل » (رو ١١ : ٢٦) .

والآن لنتأمل فى يسوع جالسا على عرشه ، رئيس وزراء الكون ، مفسر ارادة أبيه . على رأسه أكاليل كثيرة ، وفى أصبعه خاتم السلطان والعظمة ، وعلى حقويه منطقة القوة ، مرتديا ثياب النور . وهذا هو النداء الذى يتقدمه « اجثوا له » . فهل أحنيت الركبة عند قدميه ؟ عسير عليك أن تقاوم سلطانه . قد يشهر به لسان الحقد والحسد ، ويرفض الخضوع له . لكن لا شىء يقدر أن يغير قصد الله وخطته « أما أنا فقد مسحت ملكى على صهيون جبل قدسى » (مز ٢ : ٦) « لكى تجثو باسم يسوع كل ركبة .. ويعترف كل لسان أن يسوع المسيح هو رب » (فى ٢ : ١٠ و١١) . فتصالح معه سريعا . اجث عند قدميه . « قبلوا الابن لئلا يغضب » (مز ٢ : ١٢) .

(٥) حاجة العالم الى المسيح :

أنتم تذكرون حلم فرعون ، وتذكرون كيف أن السبع البقرات الهزيلة التهمت السمينة ، وكيف أن السبع السنابل الرقيقة ابتلعت الممتلئة . هذا يرمز لحقيقة تحدث كل يوم ، وهى الآن حادثة .

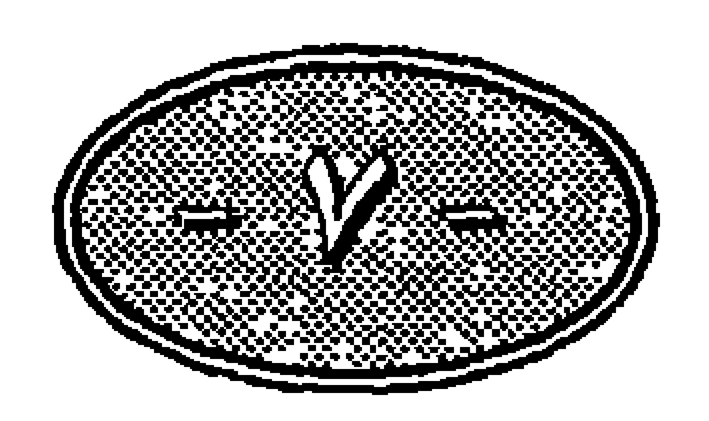
فحكامنا - كفرعون - يرون الآن رؤى مزعجة . فى أوربا وانجلترا ترى الأشياء الضعيفة تبتلع القوية . والمخلوقات الجائعة تبتلع السمينة ، العقيمة تبتلع المثمرة . وليس هناك تحسن منظور . والذين يعرفون مقدرا

ما ينفق كل عام على الخمور والجيش ، على مظاهر البذخ والفخفخة ، يفهمون ما أعنى أليس محزنا للغاية أن نرى الملايين تنفق على هذه الأمور بلا مبرر بينما الطبقة الكادحة لا تزداد الا بؤسا وشقاء وفقرا ؟

وأين العلاج ؟ يبدو أنه ليس فى متناول أيدينا ، فان حكمتنا ببرلماناتها وعلمائها ومؤتمراتها قد أفلست . فى هذه الساعة بالذات نرى ملايين البشر يجندون لصد الجائعين والضعفاء عن الاستمرار فى ابتلاع الشباعى والسمينين . والله نفسه يدفع مصر الى الفشل واليأس لكى تدرك حاجتها الى يسوع المخفى عن عينها الآن كما كان يوسف مخفى مرة . وعندئذ يطلب الكتاب المقدس للاسترشاد ، وتكتظ أماكن عبادة المسيحيين ، ويحكم ذاك الذى سبق أن رفضوه ، وتزف اليه عروسه . من ثم تفرح كل الارض لأنه يأتى لكى يملك بالعدل ويصبح ملكه للناس مسرة .

أخى العزيز ، قد تكون أنت الآن مجتازا سبع سنى جوع تلتهم كل ما ادخرته فى أيامك السعيد ، وتتركك مجردا من كل شىء . ألم تفكر قط فى السبب ؟ ربما تكون قد رفضت المخلص وأودعته جبا منزوياً فى قلبك ، وطالما كان هنالك فلن يرجى لك أى تقدم أو سلام . فأسرع فى طلبه . اركض اليه . اطلب منه أن يغفر لك سنوات التغافل المخزى . أعده الى عرش قلبك . سلمه زمام قيادتك . عندئذ يعوض لك عن السنين التى أكلها الجراد (يوئيل ٢ : ٢٥) .

✢ ✢ ✢



لقاء يوسف الأول لإخوته

(تك ٤٢)

ايــه أيتهــا الخطيــة البغيضــة
عنــدمــا يلتقــى الأحبــاء
ويتبــادلــون ذكريــاتــك الأليمــة
ويوجهــون اتمــام الســاعات الماضيــة
فانك تتدخلين بيننا وبين كل فكــرة كريمة
(كبل)

كانت حياة يوسف كرئيس وزراء مصر جليلة القدر . كان فى متناول يده كل مظاهر الرفاهية والعظمة . لا تزال آثار القصور المصرية تشهد بأنه قد توفرت لديهم كميات وفيرة جدا من الضروريات والكماليات . فى كثير من النواحى لا تمتاز مدينة القرن العشرين على مدينة ذلك العصر الذى عاش فيه ، الذى لا تزال آثاره باقية .

كانت قصور يوسف تضم غرفا لا عدد لها ، وتحيط بها الأشجار اليانعة . كانت الأثاثات بديعة الصنع ، مطعمة بالأبنوس ومطلية بالذهب . كانت أوانى العطور من الذهب والابريز والمرمر . وكانت السجاجيد تغوص فيها الأقدام . كان الخدم كثيرى العدد جدا . كانت الجوقات الموسيقية تملأ الجو بالموسيقى العذبة . لقد قيل أن هذا وصف حقيقى لمظاهر ظروف يوسف الخارجية .

وبالرغم من كل مظاهر العظمة النادرة هذه فقد كانت هناك بعض العوامل التى تسبب له الهم والقلق . كان عليه أن يحتك بالمصريين الفخورين بشرف محتدهم ، الذين امتلأت قلوبهم غيرة وحسدا بسبب ما أعطى من سلطان ونفوذ ، وأن يتعامل مع شعب جن من الجوع . فى السبع سنوات الأولى كان يتجول فى كل أرض مصر ليتفقد الجسور والبحيرات التى يجب أن تحجز أكبر كمية من فيضان النيل غير العادى ، ويشرف على بناء المخازن وشراء خمس محصول الحنطة . « أثمرت الأرض فى سبع سنى الشبع بحزم . فجمع كل طعام السبع سنين .. وخزن قمحا كرمل البحر كثيرا جدا حتى ترك العدد اذ لم يكن له عدد » (تك ٤١ : ٤٧ - ٤٩) .

لابد أن يكون كل هذا قد سبب الكثير من القلق ، اذ لم يكن يسيرا على شاب كهذا غريب الجنس أن ينفذ خططه الواسعة المدى أمام مقاومات كبار الموظفين ومصالحهم الشخصية الثابتة .

ومع ذلك فقد كان فى منتهى الكفاءة لهذا العمل ، لأنه كانت هناك فيه قوة غير بشرية ، كما قال فرعون بأنه « رجل فيه روح الله » (تك ٤١ : ٣٨) .

آه متى يأتى الوقت الذى فيه يتعلم البشر أن روح الله يجب أن يكون فيهم فى البيع والشراء ، وفى جميع الأعمال العالمية متى يصدقون بأن الذين يؤدون عملهم على الوجه الأكمل فى مكان العمل وفى البيت هم الذين امتلأوا بالروح القدس ؟ ليت الله يرسل الينا روح ذلك الشاب الذى كان يضع الله دواما أمام نظره حتى وهو فى أوج مجده . هذه هى الروح التى تجعلنا بركة لجيلنا . فان يوسف - عندما أتت أيام المجاعة أخير -

استطاع أن يكون أبا لفرعون كما قال هو فيما بعد (٤٥ : ٨) . وأن يخلص الأرض .

كل هذه الحوادث تطلبت زمنا طويلا . كان يوسف فتى فى السابعة عشر عندما انتزع من بيت أبيه ، ورجلا فى الثلاثين عندما وقف أمام فرعون لأول مرة . يضاف الى ذلك سبع سنى الشبع ، وربما سنتان أخريان حتى بدأت مخازن الحنطة تتناقص . ومن ذلك يتضح أنه انقضت نحو خمس وعشرين سنة منذ مأساة الجب حتى الوقت موضوع تأملنا الآن . كانت الحياة في بيت يعقوب فى تلك الفترة الطويلة تسير بهدوء ، وعلى وتيرة واحدة ، وكانت العلامة الوحيدة لعدد السنوات التى تمر ببطء هى تزايد ضعف يعقوب ووهن قوته . كثيرا ما كان يتحدث عن شيخوخته . لهذا اضطر بنو اسرائيل أن يحملوا يعقوب أباهم (تك ٤٦ : ٥) .

لم يكن هذا مجرد نتيجة لتقدم السن بل للحزن . فقد كان يحمل فى قلبه آثار جروح عدة ، أهمها حزنه على يوسف حبيبه . كان حزنا اضطر هو وحده أن يحمل وطاته . واشتدت وطأته بسبب الشكوك التى خامرته عن الأكاذيب التى ربما يكون أولاده قد اخترعوها بصدد موت أخيهم . لهذا فقد كان ينزل الى الهاوية خطوة خطوة حزينا على ابنه . لم يستطع قط أن ينتزع من ذاكرته منظر القميص الملوث بالدم ، وهو الأثر العزيز الذى كان يذكره بمن لم يحلم قط بأن يرى وجهه .

وفى نفس الوقت كان أبناؤه قد تقدموا فى الأيام ، وأصبح لكل منهم عائلته . ولعلهم لم يتحدثوا مع بعضهم عن تلك المأساة بل بذلوا كل ما فى وسعهم لينتزعوا الفكرة من مخيلتهم . لعلهم فى بعض الأحيان كانوا يرون

فى أحلامهم شبح رجه ذلك الشاب فى ضيقته ، أو يسمعون صدى توسلاته فى مرارة نفسه . فكانوا يحاولون أن يغرقوا تلك الذكريات فى بحر النسيان ، ذلك لأن الضمير قد نام .

ومع ذلك أتى الوقت الذى فيه قصد الله أن يستخدم هؤلاء الأشخاص لتأسيس أمة عظيمة . لكى يعدهم لهذه الغاية كان لابد أن يقوم نفوسهم . ولكن كيف يمكن أن تستقيم نفوسهم طالما كانوا لم يتوبوا عن الخطية التى سودت صفحة حياتهم الماضية ؟ عندما يقصد الطبيب الأعظم شفاء أى جرح فأنه لا يعالجه من الخارج بل من الداخل ، وبعد فحص دقيق ، وجس عميق وأساسات الصفات النبيلة يجب أن تصل الى صخرة التوبة الصادقة.

على أن توبة هذه القلوب الحجرية المظلمة كانت تبدو مستحيلة . وعلى أى حال فانه للوصول الى هذه الغاية أتخذ الله الأزلى عدة من أعمال عنايته العجيبة ، ولنلاحظ ونحن ندرسها كيف أن الله يخضع كل حوادث حياتنا الخارجية لاختبارنا وامتحاننا ، ولكى يرى ما فى قلوبنا ويقربنا الى شخصه .

وستكون خطتنا هى درس طرق الله الرحيمة لايقاظ ضمائر هؤلاء الأشخاص من سباتها العميق الطويل الذى لم تكن تنتظر له نهاية . وهى خطة خليقة بالدرس . لأنه ان كان هناك أمر تحتاج اليه الجماعات المسيحية ، بل كل العالم – قبل أى أمر آخر – فهو الاقتناع بالخطية . ما أشد الحاجة اليوم لبوق القيامة ليبوق ويوقظ ضمائر البشر النائمة ، ويدفع الخطايا – التى طال عليها النسيان والتى لم تغفر بعد – على أن تقوم وتخرج من قبورها . لأنه أية منفعة من تقديم المخلص لمن

لا يشعر بالحاجة اليه ؟ ومن ذا الذى يبذر البذار على رجاء الحصاد ما لم يعمق حديد المحراث فى جوف الأرض ؟

(١) كانت الخطوة الأولى لاقناعهم بالخطية هى شدة ضغط المجاعة .

لقد عمت المجاعة كل البلاد ، وشملت أيضا أرض كنعان كثيرا ما كانت المجاعات فيما سبق ، أيام البطاركة ، تدفعهم للنزول الى مصر . لهذا أيقظ يعقوب أولاده من سباتهم ويأسهم بقوله « لماذا تنظرون بعضكم الى بعض . أنى قد سمعت أنه يوجد قمح فى مصر . انزلوا الى هناك واشتروا لنا من هناك لنحيا ولا نموت . فنزل عشر من اخوة يوسف ليشتروا قمحا من مصر . (تك ٤٢ : ١ ـ ٣) .

لما كانت الجبال خضراء والمراعى مكتظة بالقطعان ، والأودية ممتلئة قمحا ترن فيها أصوات غناء الحصادين ، لم يشترك أحد مع يعقوب فى حزنه . لم يبد رأوبين وشمعون والباقون أقل اكتراث . ولكن لما أتت المجاعة تفتحت قلوب هؤلاء الأشخاص للاقتناع بالخطية ، وتلاشت طمأنينتهم ، تهيأوا لبعض الاختبارت الروحية التى لم يحلموا بها قط . نعم وكانوا يتهيأون للقاء يوسف .

وهذه هى معاملة الله لنا نحن أيضا . انه يحطم عشنا ويستأصل جذورنا . يرسل مجاعة تكسر قوام الخبز . وفى مثل هذا الوقت الملىء بالتعب والضيق والحزن ، نهيأ للاعتراف بخطايانا وقبول كلمات المسيح عندما يقول « تعالوا الى ياجميع المتعبين والثقيلى الاحمال وأنا أريحكم » .

هل تضغط على حياتك الآن مجاعة ؟ هل توشك مواردك أن تنضب ؟ هل يخور قلبك وأنت تنظر الى الأمام للمصائب التى تهددك ؟ تشجع ، فان هذه ليست الا حركات التيار الذى يدفعك الى المسيح والى حياة أفضل .

فى الأيام التالية تطلع هؤلاء الرجال الى الوراء لتلك الضيقات الشديدة كأفضل ما كان ممكنا أن يحل بهم . لم يكن هناك شىء أقل يأتى بهم الى يوسف . نعم سوف يأتى الوقت الذى فيه تشكر الله من أجل كل ما مر بك من مصائب وأحزان سوف تقول « قبل أن أذلل أنا ضللت . أما الان فحفظك قولك » (مز ١١٩ : ٦٧) .

(٢) كانت الخطوة الثانية الخشونة التى استقبلهم بها يوسف .

يبدو أنه كان يشرف بنفسه على عملية بيع القمح فى بعض الأسواق الكبيرة . ولعله كان يذهب اليها متعمدا ، مؤملا أن يرى أحد الاسماعيليين الذين لم ينس قط وجوههم ، أو يسمع بعض الأنباء عن أسرته . أو لعله كان يترقب ، أو يصلى ، لكى يحضر أخوته بأنفسهم . وأخيرا أتى اليوم المرتقب . كان واقفا فى مركزه كعادته ، محاطا بشوشرة الأسواق الشرقية ، واذ به يبصر فجاة أولئك الرجال العشرة . تفرس فيهم لحظة ، فصار قلبه يخفق فى داخله ، ولم يصبح فى حاجة الى تأكيد آخر ، فقد « عرفهم » (ع ٧) .

كان طبيعيا أنهم لم يعرفوه . وأنى لهم ذلك ؟ لقد صار رجلا فى الأربعين وكانوا قد تركوه غلاما فى السابعة عشرة . كان يلبس ثوبا من كتان ناصع البياض ، مطرزا بذهب يتفق مع مركزه ، ثوبا يختلف كل الاختلاف عن ذلك القميص المشهور الذى جلب عليه الويلات . لقد كان حاكما للبلاد ، وان كانوا قد فكروا فى يوسف لدى دخولهم اليها (ولا شك فى أنهم تذكروه) فقد كانوا يتوقعون أن يروه ضمن العبيد الذين يفلحون الأرض ، أو العمال المسخرين فى تشييد الأهرامات . هكذا عندما مثلوا فى حضرته « سجدوا له بوجوههم الى الأرض » (ع ٦) وبهذا تمموا حرفيا – وهم لا يدرون – ذلك الحلم الذى رآه فى حداثته .

أدرك يوسف الحالة أنهم لم يعرفوه . « فتنكر لهم » (ع ٧) ، أولا لكى يتأكد أن كان اخوته قد تابوا ، وثانيا لكى يعرف سبب تأخر بنيامين عن رفقتهم . ثم « تكلم معهم بجفاء » (ع ٧) ، واتهمهم بأنهم جواسيس (ع ٩) ، ورفض أن يصدق كلامهم ، أمر أن يزجوا فى أعماق السجن الى أن يفحص أمرهم ، ثم « أخذ منهم شمعون وقيده أمام عيونهم » .

وأننى أعتقد بأنه فى كل هذا قد كرر تماما نفس منظر حافة الجب . والواقع اننا قد ندرك ما تم فعلا هناك على ضوء ما نراه فى هذا المنظر .

فالأرجح أنهم عندما رأوه يقترب منهم فى قميصه الملون هجموا عليه ، واتهموه بالتجسس لنقل تصرفاتهم الردية لأبيهم كما فعل من قبل . ان كان هذا قد حدث فانه يفسر لنا سبب اتهامه اياهم الآن بأنهم جواسيس .

لا شك فى أن الصبى احتج مؤكدا بأنه ليس جاسوسا ، وأنه انما أتى لكى يفتقد سلامتهم . أما هم فقد قابلوا احتجاجاته بقسوة وعنف ، وهى نفس الخطة التى سلكها معهم الوالى الان وربما يكونون قد دفعوه فى الجب ليبقى فيه الى أن يتحققوا من صدق كلامه كما فعل معهم يوسف الان .

ولعل شمعون كان هو رأس العصابة .

ان كان الأمر كذلك – وهذا أميل الى التصديق – فواضح أن هذا كان التجاءا قويا الى ضمائرهم وذاكرتهم ، ولم يكن ممكنا الا أن يوقظها .

لعلكم تذكرون رواية هملت . قتل عم هملت أخاه ، أى والد هملت وملك الدانمارك . لقد تم هذا سرا . ولكن الأمير الشاب عرف ما استتر ، وأمر الممثلين بتمثيل دور القتل فى تمثيل صمامت أمام الملك والملكة المجرمين وضيوفهما . ففعلوا كذلك . أخيرا لم يحتمل الملك المنظر ، بل نهض مسرعا من مقعده ، وخرج من غرفة التمثيل قائلا :

يالشناعة جرمى ، فقد صعدت رائحته الى السماء .
واستحق اللعنة الأولى التى انصبت
على قاتل الانسان الأول لأخيه الانسان

ولا شك فى أن هؤلاء الأخوة عندما انفرد كل منهم فى سجنه ، وتأمل فى المعاملة القاسية التى عومل بها ، تذكر تلك القسوة التى عاملوا بها ذلك الشاب البرئ منذ سنوات طويلة .

وتذكرنا هذه الظروف بحادثه أخرى فى العهد القديم .

هى منظر « صرفة » عندما مات الولد ، فصرخت أمه فى وجه النبى . قائلة « هل جئت الى لتذكير اثمى » (١ مل ١٧ : ١٨) . لقد حاولت أن تتناسى خطيتها ، ودفنتها عميقا جدا . ولكن كان فى موت الولد ما أعاد اليها كل ذكرياتها . فتذكرت ، لا لذتها لأن هذه قد تلاشت منذ زمن طويل ، بل مرارتها التى بقيت وحدها .

الذاكرة أحد العوامل القوية العجيبة فى طبيعتنا . هى الموهبة التى تمكننا من تسجيل الماضى واستعادته . لولاها لبقى المخ صفحة بيضاء ، كما كان وقت الطفولة ، تمر عليها الحوادث فلا تترك فيها أى أثر ، كما أن الصور لا تترك أى أثر على سطح المرآة الأملس . وهى مع أهميتها تعمل عملها فى سر غامض لا يستطيع الانسان أن يدركه . وعلى أى حال فان الحقيقية الوحيدة التى تهمنا هى أن للذاكرة قوة حفظ واستبقاء الأشياء . فانه لن يمر عليها شىء دون أن يترك أثرا على لوحاتها المرنة .

وأنه لأمر ضرورى أن نميز بين الذاكرة والتذكر . نحن نستبقى كل شىء فى ذاكرتنا . كل ما نراه أو نفعله مختزن فى أحد-

أركان الذاكرة . ولكننا لا نتذكر دوما كل حادث أو نستعيده فى اللحظة المطلوبة . هب أنك لا تحرق خطاباتك ، بل تحفظها كلها فى صندوق ضخم . هذا يشبه الذاكرة . وهب أنك لا تبوبها أو تحفظها بانتظام . ولذلك فانك لا تستطيع أن تضع يدك على الخطاب المطلوب . هذا يشبه عدم امكانية التذكر . أما سهولة التذكر فانها تجد طلبها بالسهولة التى بها تجد الخطاب المطلوب فى الوقت المطلوب . وعدم العثور على الخطاب ليس معناه عدم وجوده فى الصندوق ، أنما لأن الترتيب كان رديا . هكذا لا يدل عدم تذكر الماضى على فقده من الذاكرة ، بل على أن قوة التذكر ضعيفة . وبتعبير آخر أن ذاكرتنا تستبقى فعلا كل شىء . ومع أن قوة التذكر قد تكون أحيانا ضعيفة الا أنه قد يثيرها أتفه الأمور ، ويعينها على تذكر الأشياء التى أودعت فى أحد أركان الذاكرة منذ مدة طويلة .

ربما يكون القارىء قد تربى فى بيت تحيط به حديقة ريفية ولكنك لم تفكر فيها منذ سنوات طويلة حتى يأتى اليوم الذى يتصادف أن ترى فيه نباتا أو تشم رائحة كانت تقترن بتلك الحديقة فأعادت الى ذاكرتك كل شىء . هذا حال الخطية . ربما تكون قد ارتكبت خطية منذ سنوات طويلة وحاولت أن تتناساها . أنها لم تغفر ولم تمح . لقد كدت تنجح فى ابعادها عن تفكيرك ، ولكن تأكد أنها لا تزال هناك . وقد يعيد الى ضميرك كل شىء أتفه الأمور بمنتهى الوضوح كأنك قد ارتكبتها أمس فقط . أما ان كانت الخطية تغفر فانها تنسى فعلا . فالله يقول « لا أذكر خطيتهم بعد » (ار ٣١ : ٣٤) وأما أن كانت تنسى دون أن تغفر فقد تستيقظ يقظة مزعجة مروعة .

هكذا كان الحال مع اخوة يوسف . فعندما طلب منهم ذلك الحاكم الغريب الجنس بينة على أنهم ليسوا جواسيس « قالوا بعضهم لبعض

حقا اننا مذنبون الى أخينا الذى رأينا ضيقة نفسه لما استرحمنا ولم نسمع . لذلك جاءت علينا هذه الضيقة » (ع ٢١) .

(٣) وأما الخطوة الثالثة نحو اقناعهم بالخطية فكانت اعطاءهم فرصة للاصغاء لروح الله المتحدث اليهم فى هدوء السجن .

بدون عمل الروح القدس ربما يكونون قد أحسوا بالندم لا باثم الخطية . لا يكفى الاحساس بأن الخطية غلطة دون الاحساس باثمها . فهذا الاحساس باثم الخطية هو امتياز روح الله . هو وحده الذى يستطيع أن يبكت على خطية . لما يعمل عمله تصرخ النفس « ويحى أنا الانسان الشقى » (أو الخاطىء) « حقا اننا مذنبون الى أخينا » .

أتعتبر هذه الكلمات رسالة خاصة للقارىء . ألست أنت حقا مذنبا ؟ فى أيامك الأولى ربما تكون قد أسات الى شخص ، رجلا أو امرأة . ربما تكون قد علمت أحد الأولاد أن يحلف ، ربما تكون قد هزأت بتائب فعدل عن توبته بلا رجعة . ربما تكون قد أهملت فى بذل أقصى جهدك لخلاص من أوكلوا اليك . والأن يبدو أن الآخرين يعاملونك بنفس المعاملة التى عاملت بها رفقاءك فى أيامك الأولى . أنت الآن متلهف على الخلاص ، وتدرك مرارة الهزء والتجربة والمقاومة . أنت تذكر الماضى ، فهو يبرق أمامك بشدة مزعجة . فتصرخ : اللهم اغفر لى ، لقد أثمت جدا مع تلك النفس التى خنتها أو أسات اليها . وهذا هو عمل الروح القدس . دعه يعمل عمله المبارك حتى يأتى بك تحت أقدام خشبة الصليب التى تفرخ كعصا هرون ، حتى وان كانت قد كفت عن النمو منذ ألف وتسعمائة سنة ، وأوراقها لكل الأمم .

يوجد على الأقل أخ أساءت اليه . هل تحتاج الى أن أذكر لك اسمه ؟ انه « لا يستحى أن يدعوك أخا » (عب ٢ : ١١) ، أما أنت فطالما خجلت منه . انه لم يتردد عن أن يصلب من أجلك ، أما أنت فلم يخطر ببالك قط أن تشكره . هو لم يكف أبدا عن أن يقرع على باب قلبك يبغى الدخول ليباركك ، أما أنت فقد أبقيته منتظرا فى ندى الليل (نش ٥ : ٢) لقد قدم اليك مجانا أعظم البركات ، أما أنت فقد وطئتها بقدميك ، واحتقرته ، وصلبته لنفسك ثانية (عب ٦ : ٦) .

لا شك فى أنه سوف يأتى الذى يقول فيه اليهود عن ذاك الذى رفضوه وطرحوه فى جب الموت ، ولكنه منذ ذلك الوقت يقدم قمحا للأمم : « حقا اننا مذنبون الى أخينا » . على أن هذه الكلمات قد تنطبق أيضا مع الأسف الشديد على الكثيرين منا . فلنعترف بأننا مذنبون الى أخينا ، مذنبون ، مذنبون ، مذنبون .

كان يوسف واقفا بجوار اخوته لما تكلموا هكذا . لم تبد على وجوههم أو أعينهم أية علامة للتاثر . « لم يعلموا أن يوسف فاهم » . كم من المرات تذهب النفوس المثقلة الى الكهنة أو الخدام أو الأصدقاء ويقصون عليهم رواياتهم المريرة ، وهم لا يدركون أن ذاك الواقف بجوارهم يسمع ويفهم كل شىء ، ويتوق الى تحطيم كل حاجز ليقدم اليهم المساعدة . صحيح أنه يتحدث معهم بواسطة مترجم أو وسيط ، ولكنهم عندما يذهبون اليه مباشرة فانه يتحدث مباشرة الى قلوبهم الملتهفة .

فى (ع ٤٢) نجد شيئا من التناقض الغريب . فأولا نرى أنه « تحول عنهم وبكى » ، وبعد ذلك نعود ونقرأ فى الحال أنه « أخذ منهم شمعون وقيده أمام عيونهم » . لم ير الأخوة الا هذه الحركة الاخيرة ، ولابد أنهم

ظنوه قاسيا غليظ القلب . أى رعب تملكهم فى حضرته ! ولكنهم لم يدركوا ذلك القلب الممتلىء رقة ومحبة ، الذى كان يخفق وراء هذه القسوة الظاهرية . كذلك لم يخطر ببالهم أنه قصد بحجز شمعون أن يكون بمثابة خيط حريرى ليجذب الاخوة اليه ، وكخطوة ضرورية لتذكيرهم بأخيهم الاخر الذى فقدوه منذ سنوات طويلة .

هذا ما يحصل بصفة مستمرة فى تأديبات الحياة . اننا نتألم ونتألم بشدة . نحبس ، ونفقد الأعزاء ، ونهان . فنحسب الله قاسيا وبلا رحمة . ونحن لا ندرك مقدار الالام التى يتحملها عندما يسمح لنا بالآلام ، أو كيف يمتلىء قلب أخينا الرقيق حزنا ، ويخفق فى داخله عندما يتنكر أمامنا ويعاملنا بقسوة .

ونحن أن استطعنا أن نرى الوجه الرقيق وراء وجه الوزير ، ونعرف مقدار رقة محبته التى تختفى وراء مظاهر البطش والسلطان ، لأحسسنا بالطمأنينه وسط غضبه كما كنا وسط أرق معاملاته .

كانت هناك أيضا بعض مخففات لمتاعبهم . ملئت العدال قمحا ، وأعطوا زادا للطريق حتى لا يمسوا ما حملوا من قمح لبيوتهم . وأعيدت فضة كل واحد فى فم عدله (ع ٢٧) . عمل كل ذلك بدافع المحبة الرقيقة ، ولكن قلوبهم امتلأت خوفا ورعبا عندما عثروا على فضتهم فى عدالهم وهم يفرغون القمح .

ان الضمائر الآثمة تسىء فهم أعظم البركات التى تحنن بها الرب علينا ، وبدهاء شرير تمتص السم من أحلى الزهور . كم من مرة صرخنا مع أولئك الرجال قائلين « ما هذا الذى صنعه الله بنا » (ع ٢٨) وامتلأنا خوفا فى الوقت الذى تفيض فيه معاملات الله معنا فى الواقع بالبركات ، وتدبر عملا من أعمال الرحمة يسعدنا كل أيام حياتنا .

مهما اشتد الضيق فلنعلم بأن لابد له من جزاء . فتطلع الى هذا الجزاء . اعرف قيمة لمسات المحبة الرقيقة التى تعلن قلب يسوع ، كما تتمسك الفتاة بأقل علامات المحبة التى تختفى - لسبب ما - وراء بعض المظاهر الغريبة . وسط تأديبات الله يضع قليلا من علامات محبته لحفظ القلب من اليأس الكامل . فانتفع بهذه العلامات على قدر استطاعتك الى أن ينتهى التأديب وتبزغ الشمس مبددة كل السحب الكثيفة .

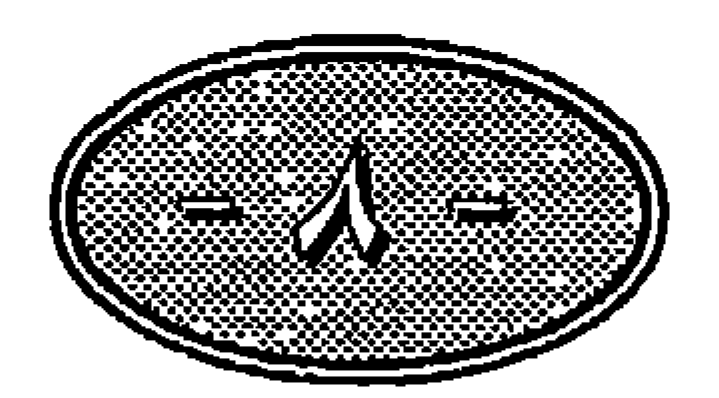
لا تحكم على أعمال الله بحواسك الضعيفة .

بل كـــن واثقـــا فى رحمتـــه ومحبتـــه .

فـانـــه وراء غضبـــــه وســـخطـــه ،

يخبىء وجهـــا باشـــا ومبتســـما .

✣ ✣ ✣



لقاء يوسف الثانى مع اخوته

(تك ٤٣)

مهما عظمت رقة القلب فهناك حدود لرحمته
أما رحمة الله فليست لها حدود
قد يكون تسامح الانسان صادقا وجميلا
ولكنه مع ذلك يحس بأنه يتناول ليصفح
أما المحبة الأزلية الكاملة
فانها تضع الصفح عند قدميك وتتوسل اليك
أن ترفعه وعندما تقول السماء « مغفورة لك
خطاياك » فانها تعنى أنك لبست الاكليل
ولا تعنى أنك غلبت على أمر .

(بروكتور)

أية رواية كرواية يوسف هذه فى بعض الأحيان يبدو مستحيلا أن نصدق بأن فصولها تمت منذ خمسة وثلاثين قرنا فى أرض النيل والاهرام غير الممطرة . ربما تكون قد تمت فى ذاكرتنا ، فالاختبارات والمناظر طبيعية ، تماثل اختباراتنا . ومع ذلك فان علماء الآثار يؤكدون أنها بكل

تفاصيلها الدقيقة قد ثبتت صحتها من النقوش التى لا تزال محفوظة الى الان سليمة على جدران القصور والهياكل المصرية .

وأننى أحس بأنه من المستحيل التأمل فيها سطرا سطرا ولذلك فسأكتفى بالتأمل فى رؤوس مواضيعها .

فى الفصل التالى سنتأمل فى ذلك المنظر الرهيب حين طلب يوسف أن يخرجوا كل انسان عنه ، خلع عنه هيبة مركزه ونزل عن عرشه ، ووقع على عنق اخوته وبكى . أما فى هذا الفصل فأمامنا مهمة أقل شأنا ، ولكنها مليئة بالدروس الهامة . أمامنا أن نتأمل فى الخطوات التالية التى أتت بهؤلاء الرجال قساة القلب الى حالة يمكن فيها أن ينالوا الصفح والبركة .

ليت الروح القدس يعيننا على فهم هذا ، لأن يوسف الذى ارتفع من السجن الى العرش لم يكن الا صورة اضحة لمن وضع فى القبر ، ولكنه ارتفع عن يمين الآب ليعطى اسرائيل التوبة وغفران الخطايا (أع ٥ : ٣١) .

ونحن اذ نتأمل فى الخطوات المتتابعة التى بها قرب يوسف اخوته الى نفسه ، سوف نرى بعض لمحات خاطفة عن تلك الخطوات المختلفة التى بها يخضعنا المخلص ويقربنا الى نفسه .

ان كانت هذه الكلمات تقع تحت أبصار بعض الأشخاص ممن يعيشون فى هذا العالم المصاب بالمجاعة الشديدة ، الذين لا يفكرون الا فى الملذات والخطية ، لا يعرفون شيئا عن أخيهم العظيم الجالس على العرش ، يفيض قلبه حبا من نحونا - فليقرأوها ، ويدرسوها ، ويدققوا البحث فيها ، ويهضموها ، لأنها قد تنير بعض خفايا الظلام فى حياتهم ، وتوضح لهم بعض الأمور الغامضة .

(١) كان هناك ضغط الفقر والحزن (ص ٤٣ : ١) .

لم يكن ممكنا أن يتجه تفكير يعقوب الى مصر لو كان هناك القوت الكافى فى كنعان . فالمجاعة دفعت بنى اسرائيل الى مصر ليشتروا قمحا . وبالرغم من حجز شمعون فى مصر فما كان لهم أن يفكروا فى العودة لولا الحاجة الملحة التي تدفع أحيانا أشد الطيور والظباء جبنا الى بيوت الناس . فى بداية الأمر قاوم الوالد الشيخ فكرة أخذ بنيامين معهم . فتوانى أبناؤه .

فى الحديث الذى دار بين الشيخ وأبنائه نرى صورة جميلة كأن مجلسا حربيا انعقد للمشاورة . يبدو أن رأوبين قد فقد أقدميته المكتسبة بحق الولادة ، وأن يهوذا أصبح له حق الزعامة بين اخوته . لقد تعهد بأن يحاج أباه نيابة عن الجميع . لما قدم يعقوب اقتراحه لينزلوا ويشتروا طعاما رفض الاقتراح رفضا باتا ان لم يسمح لهم بأخذ بنيامين معهم . وعندما شكا من اعلانهم لحقيقة وجود أخ آخر برر الجميع موقفهم ، قالوا أنه لم يكن ممكنا لهم أن يتصرفوا تصرفا آخر ، وأخيرا جعل يهوذا نفسه مسئولا شخصيا عن سلامة الفتى ، وسوف نرى فيما بعد كيف سلك بمنتهى النبل والنزاهة ليبر بهذا الوعد .

وأخيرا رضخ الوالد المسكين ، مقترحا فقط أن يأخذوا معهم هدية ليستعطفوا قلب الوالى (٤٣ : ١١) ، ويعيدوا ضعف الفضة التى ردت اليهم فى أفواه عدالهم (ع ١٢) ، ثم زودهم بصلاة حارة الى القدير ليرعاهم بعين عنايته (ع ١٤) .

وهكذا ترى أن الله برحمته أغلق كل الأبواب ولم يبق أمامهم مفتوحا سوى ذلك الباب الواحد الذى يدخلون منه الى حياة الاثمار والبركة . فلم يكن إمامهم الا أن ينزلوا الى مصر .

هكذا حياتك لقد كان لك كل ما يمكن أن يعطيه العالم جمال ، ومال ، وشباب ، وصحة ، ونجاح . كان لك كل ما يمكن أن يشتهيه الانسان . ولكن ماذا كانت حالة قلبك فى نفس الوقت ؟ هل فكرت فى الاساءات التى وجهتها الى أخيك الأكبر ؟ هل وجهت أشواقك الى ما هو فوق ؟ هل عشت للعالم الذى وراء المنظور ؟ أنت تعرف أنك لم تفعل هذا . لذلك جلب الله المجاعة على بلادك فحرمتك من كل عزيز . لقد خسرت المركز والأصدقاء . لقد فشلت أعمالك التجارية . تلاشى الجمال والشباب والصحة . يوسف مفقود . وشمعون مفقود . وبنيامين على وشك أن يؤخذ كل شىء يعمل ضدك (٤٢ / ٣٦)

هذا مكيال قاس ، فكيف تحتمله ؟ عند بدء هبوب العاصفة قد تقول بعناد : لن أنزل ، لن أرضخ . سأرفض الى النفس الأخير . لكن حذار . انه لخطأ مميت أن تقاوم محبة الله . لقد جرب يعقوب ذلك عند مخاضة يبوق ، فصار يخمع على حق فخذه الى أن ضم رجليه على فراش الموت . سوف يتمم الله رأيه أخيرا ان لم يكن أولا . لابد أن تستمر المجاعة الى أن يعود الابن الضال الى الأب نادما تائبا ، واضعا كلمات التوبة على شفتيه . عبثا يحاول ربان السفينة أن يعود بها الى الشاطىء ، ولن يهدأ البحر الهائج ، الا اذا كان النبى الهارب فى طريقة الى بلاده التى هرب منها . لهذا يقول الرب « لأنى لافرايم كالاسد ولبيت يهوذا كشبل الأسد . فانى أنا أفترس وأمضى . آخذ ولا منقذ . أذهب وأرجع الى مكانى حتى يجازوا ويطلبوا وجهى.فى ضيقهم يبكرون الى (هوه:١٤و١٥). ليتك تجيب بما أجاب به النبى بعد ذلك مباشرة « هلم نرجع الى الرب لأنه هو افترس فيشفينا . ضرب فيجبرنا » (هو ٦ : ١) .

(٢) وهنا استيقظ الضمير .

ظل الضمير نائما عشرين عاما . وطالما كانت الحال كذلك فلم يكن ممكنا أن يكون هناك سلام حقيقى بين يوسف واخوته . من جهتهم لم يكن ممكنا أن يثقوا بأنه قد صفح عنهم . ومن جهته كان يحس دواما بأن هناك بعض السدود فى مجرى محبته . لا يمكن أن تحس بالراحة الكاملة بينك وبين صديقك طالما كان هناك أى خطأ بينكما لم تتفاهما عليه . يجب أن يستيقظ الضمير ، ويعترف بخطأه ، ويتوب عنه . هذا هو المفتاح الذى به نستطيع فهم تصرفات يوسف .

ولكى يوقظ يوسف ضمائرهم النائمة كرر على قدر الاستطاعة نفس المعاملة التى عاملوه بها . سبق أن تأملنا هذا فى الصفحات السالفة . « جواسيس أنتم » هذا هو صدى تلك الكلمات الفظة التى وجهوها اليه . أما السجن حجزوا فيه ثلاثة أيام فكان يقابل الجب الذى طرحوه فيه . عندما نختبر عمليا مرارة المعاملة التى تصرفنا بها نحو الاخرين نعرف تماما حقيقة شرورنا . ولقد نجحت خطة يوسف . اسمع ما رددوه فى تأوهاتهم « حقا اننا مذنبون الى أخينا » .

وهنا أيضا نجد المفتاح لكشف أسرار حياتنا وغوامضها . فالله يسمح أحيانا أن نعامل كما عاملناه ، لكى نرى اثمنا على حقيقته ، ونضطر للرجوع اليه بالتوبة الصادقة . ان كان ابنك قد فسد ، وبذلت معه أقصى جهد ، والآن تراه يرفض أن يتمم ارادتك ، بل وصلت به الجرأة الى أن يهينك ، هل تحس بما فى ذلك من مرارة ؟ لعل هذا يعلن لك ما يشعر به الله نحو تمردك عليه بالرغم مما أغدقه عليك من بركات .

ان كان أخوك فى ضيقته قد لجأ اليك بالحاح لطلب المساعدة ، ووعد بردها مع فائدة ، والآن وقد أصبح فى يسر ورخاء فانك تطلب منه أن يرد اليك ما سبق أن أقرضته . ولكنه أما أن يسخر منك ، أو يسوف . **هل يحس بما فى ذلك من مرارة ؟** انك الآن تعرف ما يحس به الله الذى أغاثك فى ضيقك ، والذى قدمت اليه الكثير من الوعود ، وعبثا يحاول أن يذكرك بالماضى .

أنت تعرف معنى وقوفك على باب أحد أصدقائك يوما بعد يوم موقف المتوسل ، ولكن الباب لا يفتح قط . هل تحس بما فى ذلك من مرارة ؟ انك الآن تعرف ما يحس به الله الذى يقف على باب قلبك منذ سنوات طويلة ، يقرع يبغى الدخول ، وهو لا يزال واقفا ويداه ممتلئتان بالخير ليغنيك . ان الضمير الذى لا يستيقظ أمام كل هذه التوسلات لابد أن يكون مستغرقا فى نوم عميق .

(٣) تأمل فى مظاهر محبة يوسف العميقة لهم .

حالما فرغ يوسف من اختبارهم دعاهم لتناول الطعام معه على مائدته . أدخل الى بيته حيث قوبلوا بكل حفاوة واكرام ، كأنهم لم يكونوا رعاة أغنام بل من عظماء البلاد . أما مخاوفهم بسبب الفضة التى ردت اليهم فى عدالهم فقد بددها ذلك الرجل الحكيم التقى الذى على بيت يوسف ، اذ أكد لهم بأنهم ان كانوا قد وجدوا فضتهم فى عدالهم فلابد أن يكون الله هو الذى وضعها فيها . لأنه لا يوجد أقل شك فى أنه قد وصله ثمن القمح الذى أخذوه (ع ١٨ - ٢٣) .

وحالما دخل يوسف خروا أمامه على وجوههم ، اتماما لذلك الحلم الذى سبق أن رآه فى حداثته . ثم سألهم بكل رقه عن سلامة أبيهم ، ولابد أنه كان فى حديثه مع بنيامين حنين خاص كان ممكنا أن يكشف لهم السر كله لولا أنهم لم يخطر ببالهم أن يروا يوسف فى هذا الحاكم المصرى العظيم .

يالها من اشارة منقطعة النظير تلك التى تخبرنا كيف أن قلب يوسف كان يخفق فى داخله حتى انه أسرع الى خلوة لكى تنفجر تلك العواطف المكبوتة التى كادت تتغلب عليه أمامهم . « واستعجل يوسف لأن أحشاءه حنت الى أخيه وطلب مكانا ليبكى . فدخل المخدع وبكى هناك . ثم غسل وجهه وخرج وتجلد . وقال قدموا طعاما » (ع ٣٠ و٣١) .

هنا ترى بعض اشارات نبوية . فاننا سوف نرى هذا المنظر يتم حرفيا عندما يأتى الرب ليفتقد شعبه القديم ويقبلهم . ولكن فى نفس الوقت ماذا نقول عن محبته لنا ؟ آه اننا نحتاج الى القلب المتقد والكلمات النارية لتعطى الاجابة . قد يبدو الأخ المرفوض غريبا وخشنا . قد يعاملنا بقسوة . قد يقيد شمعون أمام أعيننا . ولكنه رغم ذلك يحبنا محبة دونها محبة كل الآباء للأبناء ، ومحبة كل الأصدقاء لمحبيهم ، متجمعة معا .

وهذه المحبة تحاول باستمرار تدبير الوسائل لاظهار نفسها قد تضع فضة فى عدالنا ، وتدعونا لبيتها ، وتولم لنا الولائم وتوعز لخدامها للترحيب بنا ، وتغسل أرجلنا ، وتعطف على من نحبهم ، وتتمنى لنا نعمة من الله ، وتكيف نفسها بحسب أمزجتنا وراحتنا ، حتى تخفق قلوبنا بمحبة يسوع . انه يحس من نحونا بحنين شديد يضبطه ولا يريد اظهاره الى أن تتم عملية الاقناع بالخطية ، عندئذ يسكب علينا فيض محبته دون أن يحل أى أذى بنا أو بغيرنا .

(٤) ثم تحطمت كل ثقتهم بأنفسهم .

ظنوا أن كلماتهم مقبولة ، ولكن عندما قصوا تاريخ عائلتهم رفض يوسف تصديقها ، وطلب منهم اثبات صحتها . كانوا واثقين فى مالهم ، وعندما دفعوا الفضة التى أتوا بها هنأوا أنفسهم لأنهم فى هذه الناحية

على الأقل مصطلحون مع هذا الوالي القاسي ، وهو لا يستطيع أن يمسهم بسوء أو يحسبهم خونة . ولكنهم اذ وصلوا أول مكان للاستراحة فيه في طريقهم الى بلادهم « فتح أحدهم عدله ليعطي عليقا لحماره في المنزل فرأى فضته واذا هي في فم عدله . فقال لاخوته ردت فضتي وهاهي في عدلي . فطارت قلوبهم وارتعدوا بعضهم مع بعض قائلين ما هذا الذي صنعه الله بنا » (تك ٤٢ : ٢٧ و٢٨) .

كثيرا ما يحدث هذا في اختبارات الخطأة . انهم يريدون أن يصطلحوا مع الله ، ولكنهم يحبون أن يفعلوا هذا بطريقتهم الخاصة . وهم في ذلك يشبهون قايين ، اذ يقدمون الثمار التي غرستها أيديهم . ويشبهون هؤلاء الرجال ، اذ يقدمون الفضة التي تعبوا في اقتنائها . ويشبهون الفريسيين ، اذ يقدمون الصلوات والعشور والتقدمات .

ولكنهم عند تقديم هذه التقدمات على المذبح يدهش مقدموها اذ يرون انها لم تقبل ، بل « ردت اليهم » . نعم فان رحمة الله التي هي طعام الروح الحقيقي ، لا يمكن أن تشترى بأي شيء نقدمه ، بل يجب قبولها هبة بلا فضة وبلا ثمن . قال يعقوب لأولاده عن رد الفضة « لعله كان سهوا » (ع ١٢) ، ولكنه لم يكن كذلك ، بل كان جزاء من خطة مرسومة بمنتهي الحكمة ، وضعت ونفذت لقصد خاص . لا مجال للسهو ، أو للتخمين في حياة الانسان .

كل الطبيعة ليست الافنا لا ندركه .
وكل صدفة ليست الا اتجاها لا تراه .
وكل تشويش واضطراب ليس الا تناسقا غير ملحوظ .
وكل مصيبة ليست الا خيرا عاما .

كانوا واثقين أيضا فى نزاهتهم . فى الصباح الباكر بدأوا رحلتهم الثانية الى بلادهم وهم لا يدرون ماخبىء فى عدل أحدهم . كانوا فى نشوة الطرب . فشمعون معهم ، وبنيامين أيضا ، بالرغم من الخوف الشديد الذى استحوذ على قلب أبيهم الشيخ وواضح أنهم نالوا نعمة عظمى لدى الوالى ، والا لما كان قد أولم لهم وليمة فاخرة فى اليوم السابق وعدالهم ملئت على قدر ما يمكن أن تسع .

على إنهم لم يكادوا يغادرون أبواب المدينة حتى بوغتوا بسماع صوت وكيل يوسف : قفوا . قفوا ، « لماذا جازيتم شرا عوضا عن خير » . فأجابوا « لماذا يتكلم سيدى هذا الكلام .. هوذا الفضة التى وجدنا فى أفواه عدالنا رددناها اليك .. فكيف نسرق من بيت سيدك فضة أو ذهبا » .

واذ كانوا واثقين من نزاهتهم كل الثقة ذهبوا الى أبعد من هذا وقالوا « الذى يوجد معه من عبيدك يموت . ونحن أيضا نكون عبيدا لسيدى » وهكذا « استعجلوا وأنزلوا كل واحد عدله الى الأرض وفتحوا كل واحد عدله » .

وابتدأ الرجل يفتش عدالهم على قارعة الطريق مبتدئا من الكبير الى الصغير « **فوجد الطاس فى عدل بنيامين** » .

وحسنا فعل يهوذا واخوته اذ أتوا الى بيت يوسف ، وسقطوا أمامه على الأرض قائلين « ماذا نقول لسيدى ؟ ماذا نتكلم ؟ وبماذا نتبرر ؟ الله قد وجد اثم عبيدك » . لقد تجردوا من كل بقية للثقة بالنفس . ولم تبق لهم بارقة أمل فى النجاة الا فى رحمته .

ان البعض يشبهون بنيامين . هم بطبيعتهم بريئون ، يتحلون ببعض آثار بسيطة من البراءة الأصلية . مثلهم فى ذلك مثل الشاب الذى أحبه يسوع ، الذى ركض بأقصى سرعة ، ووقف أمامه مفتخرا بأنه قد حفظ

كل الوصايا منذ حداثته ، وأنه بلا لوم . أمثال هؤلاء نعتبرهم نحن بلا خطية ، كما يعتبرون أنفسهم . ان العشار والخاطىء فى حاجة قصوى لدم المسيح ، ولكن النطرون والأشنان لا تكفيهم (ار ٢ : ٢٢) « وان اغتسلت بنطرون وأكثرت لنفسك الأشنان فقد نقش اثمك أمامى يقول السيد الرب » أمثال هؤلاء يبدون صالحين لأنهم انما يقارنون بخطاة أشر منهم فارنهم بالمثل الأعلى للطهارة اللانهائية يتضح أنهم يستحقون الدينونة . « لو اغتسلت فى الثلج ونظفت يدى بالأشنان فانك فى النقع تغمسنى حتى تكرهنى ثيابى » (أى ٩ : ٣٠ و٣١) .

يظن الخادم أن الملاءة نظيفة حينما يعلقها على الحبل ويقارنها بالمبانى المعتمة التى حولها .. ولكن اذا تساقط الثلج الناصع البياض عرف أنها غير كاملة البياض . ويظن التلميذ أن خطه جميل لأنه يقارنه بخطوط أردا ، ولكنه سرعان ما يغير راية عندما يقارنه بالانموذج . وهكذا يفتخر البعض بسمو مستواهم الأخلاقى ، الى أن يروا ثوب المسيح الذى لا يستطيع قصار على الأرض أن يبيض مثله . ولكن هؤلاء يجب أن يعرفوا أنهم خطاة فى مستوى باقى البشر . يجب انزال بنيامين الى مستوى شمعون ويهوذا . يجب أن يوجد الطاس فى عدل بنيامين .

كان أحد خدام الله يتحدث مرة مع سيدة متقدمة فى السن يعتبرها الجميع من فضليات شعبها وأتقاهم . فبين لها حاجتها القصوى الى المسيح . وأخيرا أغرورقت عيناها بالدموع وقالت : اننى ياسيدى لم أتاخر مرة واحدة عن الكنيسة ، اقرأ الكتاب المقدس كل يوم ، أصلى كل يوم ، أفعل الخير للأخرين لا أتاخر عن أداء أى واجب أراه ضروريا . والآن هل تريد أن تقول ان كل هذه لا قيمة لها ؟ !

فأجابها : عليك أن تختارى أما الاتكال على هذه أو على الفداء الذى يقدمه اليك الله فى المسيح . ولا يمكن الاتكال على كليهما . ان ارتضيت أن تتخلى عن برك الذاتى منحك الله بره أما ان تشبثت بقراءة الكتاب وحفظ الأحد والأعمال الصالحة فقط فليس لك نصيب فى بر الله .

وبعد ذلك قال الخادم : كان منظرا مؤثرا ذاك الذى بدا على وجه السيدة . فان الطاس وجد فى عدل بنيامين . جلست السيدة بعض الوقت صامتة وجهها بين يديها . كان صراع عنيف فى داخلها . وأخيرا بدأت تنهمر الدموع من عينيها ، ثم رفعت يديها الى السماء وصرخت :

« ربى والهى ، ان أعمالى كلها كلا شىء قدامك » . وفى لحظة جثت على ركبتيها ، وقبلت الرب يسوع مخلصا شخصيا لها حقا ان بنيامين يأتى هو أيضا الى قدمى يسوع عندما يوجد الطاس فى عدله .

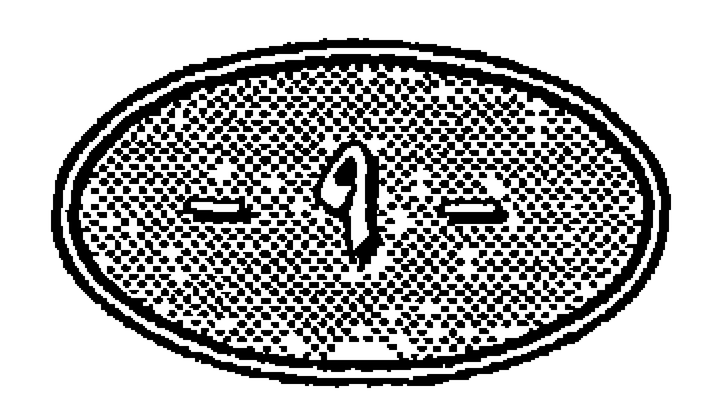
صديقى العزيز المحترم الحسن الأخلاق ان فى عدلك طاسا مسروقا . لعلك لا تشعر بوجوده . أنك تفتخر بحياتك التى بلا لوم . أنت تتوهم أنه لا توجد خصومة بينك وبين المسيح . ولكنك لو عرفت لأدركت أنك سرقت طاسه . فأنت تستخدم لمصلحتك الشخصية ما وهبك من مال ووقت ومواهب أخرى ، تلك التى اشتراها بدمه الكريم ، وقصد بها أن تكون أوانى مختارة لنفسه . ومن الغريب أنك أنت الذى لا تتردد قط عن ايفاء الناس حقوقهم ، لا تبالى بالمرة بالخيانة اليومية التى ترتكبها باختلاس ما اشتراه الرب لنفسه . ان كنت تخفى عن نفسك هذه الحقيقة المرة فانك لا تستطيع اخفاءها عن الله . ألم تعلموا أنه يعرف حقا كل شىء (تك ٤٤ : ١٥) . « هو فاحص القلوب والكلى » (مز ٧ : ٩) « الأول فى دعواه محق ، فيأتى رفيقه ويفحصه » (أم ١٨ : ١٧) .

وكيف العمل اذن ؟

أولا : لا تتوان « لأننا لو لم نتوان لكنا قد رجعنا الآن مرتين » (تك ٤٣ : ١٠) . لو لم تتوان لكنت قبل الآن مسيحيا غيورا سعيدا . لما تراني لوط أمسك الملاكان بيده ليعجل في الهرب (تك ١٩ : ١٦) . فعجل يأخي ولا تتوان . يكاد الباب يغلق ، وأن أغلق لا يمكن أن يفتح . طالما كنا في هذا العالم فباب الرحمة مفتوح ، أما في العالم الآخر فلا مجال للرحمة .

ثانيا : قدم اعترافا تاما بكل خطاياك ، وأعد الشيء الى أصله أو الى صاحبه . « فتقدموا الى الرجل الذى على بيت يوسف وكلموه » (ع ١٩) ، كلموه عن كل ما يختص بالعثور على الفضة وردوها كاملة . فتحدث مع يسوع الآن ... قبل الفراغ من قراءة هذه الكلمات . أخبره بكل ما في قلبك . رد اليه أو الى الآخرين ما سلبته منهم بغير حق ، رد كل شيء الي أصله كاملا . « لما سكت بليت عظامي من زفيري اليوم كله . لأ يدك ثقلت على نهارا وليلا . تحولت الى يبوسة القيظ . اعترف لك بخطيتي ولا أكتم اثمي . قلت أعترف للرب بذنبي . وأنت رفعت آثام خطيتي » (مز ٣٢ : ٣ - ٥) . « من يكتم خطاياه لا ينجح ، ومن يقر بها ويتركها يرحم » (أم ٢٨ : ١٣) .

ثالثا : أرتم على رحمة المسيح . لم يلتمس يهوذا المعاذير لنفسه ولا لاخوته . لأنه لو فعل لبطلت دعواه . ولكنه سلك طريقا أوفر حكمة اذ التمس الرحمة . رحمة بهم ، ورحمة بالغلام ، رحمة بالوالد الشيخ . فجرب هذه الطريقة مع ربك وأنت لا يمكن أن تخيب . قل ، وأنت تقرع صدرك ، « اللهم ارحمني أنا الخاطيء » (لو ١٨ : ١٣) انه لن يردك خائباً ، بل يقول لك بصوته المتهدج : تقدم الى . فأنا يسوع أخوك ، لقد سمرتني خطاياك على الصليب ، ولكن لا تذكر ذلك ثانية ، لا تتأسف عليها . فقد حولها الله للخير ، لكى أصنع لك خلاصا عظيما .



يوسف يعرف أخوته بنفسه

(تك ٤٥)

إنـــت تعـــرف نقائصنـــا وعيـــوبنـــا
وكـــل شـــىء مكشـــوف لـــديـــك
فان عينيـك تخـتـــرقان أســـتار الظلام
يالهـــا من كلمة عذبة أن تدعـــونا أخوة
فانـــك أنـــت الذى تعـــرف كل ما فينـــا
لا زلت تحبنا محبة عميقة .

(كبل)

« فوجد الطاس في عدل بنيامين » . ياله من اكتشاف مرعب . هناك على قارعة الطريق ، فى الصباح الباكر بينما كان القرويون يحملون حاصلاتهم الزراعية الى المدينة ، وبدأت المدينة تتحرك وجد طاس رئيس الوزراء الذى فى يده سلطان الموت والحياة ، وجد مخبأ فى القمح بكيفيه تدل على أنه مسروق . ولكن كيف أتى الى العدل ؟ هذا ما لم يستطع الأخوة ادراكه . فلاهم عرفوا ولا اعتقدوا أن بنيامين يعرف عنه شيئا . كان الأمر لغزا لم يستطيعوا أن يجدوا له حلا . وكأنه قد خيل اليهم أن الشيطان لعب دورا فى وضع الفضة فى عدالهم أولا ، ثم فى اخفاء الطاس فى عدل بنيامين .

وفى لحظة كان كل من الاخوة يتمنى لو وجد الطاس فى أي عدل آخر غير عدل بنيامين ، تذكر الجميع تردد أبيهم الغريب فى نزوله الى مصر . خيل اليهم بأنه كان يتنبأ بمصيبة قادمة . عندما عادوا من مصر فى المرة الأولى قال لهم بشكل قاطع « لا ينزل ابنى معكم . لأن أخاه قد مات وهو وحده باق . فان أصبته أذية فى الطريق التى تذهبون فيها تنزلون شيبتى بحزن الى الهاوية » (تك ٤٢ : ٣٨) . ولكن عندما اضطرهم ضغط المجاعة الى الرضوخ كانت آخر كلمات للوالد المحطم « الله القدير يعطيكم رحمة أمام الرجل حتى يطلق لكم أخاكم الآخر وبنيامين . وأنا اذا عدمت الأولاد عدمتهم » (٤٣ : ١٤) .

ظل قلبه طول الوقت مضطربا من هول المصيبة القادمة والآن يبدو أن تلك التنبؤات قد أوشكت أن تتم ، لابد أن كلا من هؤلاء الرجال كان يحدث نفسه أثناء عودتهم الاليمة : كيف أجرؤ على مقابلة أبى ؟ حالما نصل لابد أن يسأل أولا عن بنيامين . وان لم يجده نفذ الى قلبه سهم الحزن القاتل ، ونزلت شيبته الى الهاوية عاجلا .

لم يكن أمامهم الا أن يحملوا دوابهم ثانية ويعودوا ليوسف . ولكن الطريق الذى سلكوه فى العودة قد تغيرت أوضاعه على نفوسهم عما كان عليه منذ وقت وجيز .. كانت نفس الشمس تشرق ، ونفس المناظر المحيطة بها ، ولكن بدا لهم كان حجابا كثيفا مظلما قد بسط على الأرض والسماء .

والآن لنتأمل فى المنظر التالى الخليق بكل اهتمامنا ، لأنه يبين لنا معاملة الله للنفوس المنسحقة من أجل خطاياها ، ويرمز فى نفس الوقت الى ذلك اليوم الذى يطلب فيه اسرائيل بدموع ذاك الذى سبق أن سمروه على الصليب ، الذى « رفعه الله بيمينه رئيسا ومخلصا ليعطى اسرائيل التوبة وغفران الخطايا » (اع ٥ : ٣١) .

(١) لاحظ الظروف التى وجدوا أنفسهم فيها :

استيقظت الآن ضمائرهم واشتدت وخزاتها . لم يكن هناك مبرر لذكر تلك الجريمة التى ارتكبوها منذ عشرين عاما ومع ذلك فقد وجدوا أنه من المستحيل عليهم الامتناع عن ذكرها طالما كانت هى التى تحتل كل تفكيرهم . واضح أنهم كانوا يفكرون عميقا فى تلك المأساة التى مثلوها على حافة الجب . لقد ذكرتهم ضيقتهم الحالية بضيقة ذلك الغلام وقتئذ . ولم يكن ممكنا الا أن يحسوا بأن هناك علاقة بين الموقفين . ولذلك فان الكلمات التى نطق بها يهوذا - الناطق بلسانهم - عندما مثل فى حضرة يوسف كشفت ما كان يجول بخاطرهم « ماذا نقول لسيدى ؟ ماذا نتكلم وبماذا نتبرر ؟ الله قد وجد (١) اثم عبيدك » .

الله يفضح آثامنا دواما . انه يتعقبنا . قد تمر السنون قبل أن يلقى القبض علينا . لكن لابد أن يأتى الوقت الذى فيه يكشف مخبأنا ويفتضح أمرنا . « وتعلمون خطيتكم التى تصيبكم (٢) » (عد ٣٢ : ٢٣) . قد تمضى عشرات السنين على خطيتك ، وتهنىء نفسك - كهؤلاء الاخوة - لأن الخطية نسيت وأصبحت الآن آمنا . ولكن يحدث بعد ذلك أن تأتى سلسلة من الحوادث - التى لا يشتم منها أى رائحة للشك فيها ، ولكن العناية الالهية رتبتها - وعندئذ تظهر الحق فجأة ، وتكتب حكم الله العادل

---

(١) أو « كشف » حسب ترجمة اليسوعيين والترجمة الانكليزية .

(٢) أو « ثقوا أن خطيتكم ستفضحكم » حسب النص الانكليزى .

بأحرف من نار على حائط البيت الذى تشبع فيه ملذاتك الفاسـدة بلا اكثرات(١) . فلنعلم هذه الحقيقة وهى أنه لا أمان طالما كانت الخطية لم تغفر .

روى الدكتور دون Dr . Donne رئيس كاتدرائية القديس بولس بلندن ، خبرا عن حادث مزعج فى هذا الصدد . قال : بينما كانت بعض الحفائر تجرى بجوار الكاتدرائية عثر المنقبون على جمجمة فيها مسمار ، وتصادف أن كان القسيس حاضرا فتناول الجمجمة بيده ، وأخذ يقلب فيها ، ثم سأل خادم الكنيسة المتقدم فى السن ان كان يعرف صاحبها ويعرف كيف مات فأجاب بلا أكتراث : انها جمجمة رجل مسن مات فجأة منذ بضع سنوات ، لا تزال زوجته عائشة ، وقد تزوجت عقب وفاته مباشرة . وأخيرا وجدها القسيس وواجهها بالجمجمة . وفى الحال امتقع وجه المرأة ، وعلته صفرة كصفرة الموت ، ثم اعترفت بأنها هى التى قتلت زوجها . ، أنها منذ ذلك الحين لم تجد راحة لا بالليل ولا بالنهار .

هذا مثل مروع لما يجريه ناموس الله فى هذا العالم . إذا لم تفضح كل الخطايا فى هذا العالم فانها على الأقل ستفضح أمام العرش الأبيض العظيم فى ذلك اليوم الذى فيه « سينير خفايا الظلام » (رؤ ٢٠ : ١١ - ١٢ ، ١ كو ٤ : ٥) . لن يوجد ملجأ يحتمى فيه الخاطىء الا جراحات المسيح . هذه هى مدينة الملجأ التى لن يستطيع ولى الدم دخولها ، والتى يجد فيها الهارب الأمن والسلام .

وفضلا عن ذلك شعروا أنهم تحت سلطان يوسف المطلق لم يكن أرفع منه فى كل أرض مـر سوى فرعون . كل الجيوش والقوات رهن اشارته .

---

(١) راجع دانيال ٥ .

لو أمر بسجن الجميع سجنا مؤبدا ، أو بحجز بنيامين واطلاق سراح الباقين لما وقف معترض لحظة واحدة .

يقابل هذا تماما أن الخاطىء الذى استيقظ ضميره تزعجه هذه الفكرة اذ يرى أنه تحت رحمة ديان الأحياء والأموات . ليس من ينقذ من يده أو يقول « ماذا تفعل » . وكما لا تستطيع الفريسة الافلات من براثن الأسد ، ولا الحشرة الذنيئة من يد الانسان ، كذلك لن يستطيع الخطاة الافلات من يد الله . لذلك « كن مراضيا لخصمك سريعا ما دمت معه فى الطريق لئلا يسلمك الخصم الى القاضى ، ويسلمك الى الشرطى ، فتلقى فى السجن » (مات ٥ : ٢٥) .

كذلك رأوا أن كل الظواهر الخارجية ضدهم . لم يكن ثمت شك فى أن الطاس وجد فى عدل بنيامين . ومع أنهم كانوا فى الواقع أبرياء من السرقة ، الا أنه لم يكن ممكنا لهم الا أن يحسوا بعجزهم عن تبرئة أنفسهم أو التماس أى عذر . لأنه ما دامت القرينة قائمة فالجريمة ثابتة .

أما طاس التفاؤل فيعرفه كل من درس التاريخ القديم . كان يصنع أحيانا من البللور والأحجار الكريمة . وكان المفروض أن كل من يشرب منه تعلن له كل الأسرار . تغنى هومر بكأس نسطور . ويخبرنا سبنسر الانكليزى أن بريتومارت ابنة الملك وجدت كأس مرلين فى مخدع أبيها ، واستخدمته لكشف سر يتعلق بها مباشرة .

ونحن بطبيعة الحال لا نعتقد أن يوسف استخدم كأسا كهذه لغرض كهذا ، ولكنه أراد أن يحتفظ بطابع المصرى الرفيع الشأن فقد كان كل الأشراف المصريين يستخدمون مثل هذه الكأس وكان هذا الالتجاء اليها أمرا طبيعيا .

أما الاخوة فانهم فى انكسار قلوبهم لم يجدوا دافعا - ليطلبوا الالتجاء الى الكأس والاحتكام اليها ، أو يطلبوا أن يمتحنوا مرة أخرى امتحانا حاسما لاثبات براءتهم أو اثمهم .

(٢) لاحظ تصرفهم :

أنهم « وقعوا أمامه على الأرض » (ص ٤٤ : ١٤) متممين بذلك أحلام صباه وهم لا يدرون . لابد أن يكون يوسف قد استعادت ذاكرته ذلك المنظر الذى رآه فى حلمه قديما ، اذ تمثلت أمامه الآن حزمهم ساجدة لحزمته المنتصبة فى الوسط .

ولكن من ذا الذى يتقدم ليكون الناطق بلسانهم . كان رأوبين يميل دواما الى تبرير نفسه ، ثم انه كان واثقا من حسن النتيجة حتى أنه ضمن سلامة بنيامين بحياة بنيه ، ولكنه لزم الصمت . وشمعون كان على الأرجح هو المحرض ضد يوسف ولكنه لم يتجاسر على النطق بأية كلمة . بنيامين البرىء ، الذى يمثل ذلك الشاب الذى أحبه يسوع ، قد ضبط متلبسا بالجريمة ، ولم يكن لدية ما ينطق به .

فمن ذا الذى يستطيع الكلام اذن ؟ لم يكن هناك سوى يهوذا ذاك الذى سبق أن حول الاخوة قديما عن مؤامرة القتل عند حافة الجب . ولاحظ كيف تكلم . لم يحاول تقديم ظروف مخففة ، أو تفسير الماضى ، أو تلمس المعاذير لبنيامين أو لسائر الاخوة . وانما ارتمى بكليته على رحمة يوسف « ماذا نقول لسيدى ، ماذا نتكلم ، وبماذا نتبرر » .

لا يزال هذا مثلا طيبا أمامنا لنتبعه . لاشك فى أننا خطاة . نحن مجرمون بسبب معاملتنا لأخينا الأكبر ، الذى ألقى مرة فى القبر ، ولكنه الآن يجلس عن يمين القوة . ان حاولنا تلطيف خطايانا ، والتماس

المعاذير لأنفسنا ، وتفسير الماضى ، فانما نزيد الطين بلة ، سنواجه بدليل الجريمة ، عندئذ يستد كل فم ونضطر الى أن نصرخ « الله قد وجد اثم عبيدك » . أما ان أرتمينا على رحمته فلن نخيب .

ونحن نقف على أساس أمتن منهم . فهم لم تكن لديهم أية فكرة عن رقة قلب يوسف . لم يروه وهو يتحول ليبكى . لم يفهموا لماذا أسرع في التنحى عنهم فى احدى المناسبات . ولم يبصروا الدموع التى انهمرت من عينيه ، وأنما رأوه انسانا قاسى القلب فظا . « تكلم معنا الرجل سيد الأرض بجفاء » (٤٢ : ٣٠) .

أما نحن فنعرف رقة قلب الرب يسوع ، ورأينا دموعه تنهمر باكيا على أورشليم ، وسمعنا صوته الحنون الذى يدعونا به اليه ووقفنا عند صليبه وسمعنا صلاته الأخيرة من أجل قاتليه ، ودعوته للص المشرف على الموت . ونعرف أنه لا يقصف قصبة مرضوضة ولا يطفىء فتيلة مدخنة .

اذن فليس لدينا قط مبرر للخوف عندما نلجأ لرحمته . لا داعى للوقوف فى الغرفة الخارجية ونحن نرتعش ونقول كأستير « اذا هلكت هلكت » (أستير ٤ : ١٦) . لا داعى للتطلع بفزع الى عرشه لنرى ان كان قد مد عصا نعمته الذهبية . من المستحيل أن النفس التى تعترف بالخطية وتلجأ لرحمة الله تقابل بالفشل أو الرفض .

فى كل أدبيات اللغات لا يوجد حديث عاطفى مثل التماس يهوذا هذا . ان اللهفة التى دفعته للاقتراب ، والاتضاع الذى اعترف بأن غضب يوسف ان اشتعل فهو محق لأنه مثل فرعون ، والصورة التى رسمها عن الوالد الشيخ الذى حرم من أحد أبنائه ، والمتعلق الآن بابنه الأصغر الاثر الوحيد لأمه ، وذكره للضغط الشديد الذى فرضه الوالى

عليهم بالزامهم احضار أخيهم الأصغر ، ورؤيته لتخوفات أبيهم التى لم تقو عليها الا المجاعة الطاحنة التى تكتسح أمامها كل النواميس وتحطم كل الحواجز ، الصورة الواضحة التى رسمها عن تلهف أبيهم لرجوع الغلام الذى ارتبطت به حياته ، والحزن المحطم للقلب الذى ينجم عن عدم رؤيته بينهم ، والغرض الذى قدمه بكل بسالة ليبقى هو كعبد بدلا من بنيامين الذى يعود لأبيه ، وتفضيل حياة العبودية عن أن يرى أباهم الشيخ نازلا بحزن الى الهاوية - كل هذه صورها يهوذا بمهارة منقطعة النظير .

كم من الأشعار والأدبيات المحركة للعواطف تختبىء فى أشد الناس غلظة ، ولكنها تنتظر فقط الحزن العميق لكى يبعثها من مرقدها . ولكن أن استطاع أنسان فظ تقديم توسلات كهذه فكم تكون تلك الطلبات التى يرفعها يسوع أمام عرش الآب ؟

هل هناك وجه للشبه بين أشعة القمر وأشعة الشمس ، أو بين عواطف الكلب ومحبة الانسان النبيل العميقة ؟ هكذا لا يمكن المقارنة بين توسلات يهوذا وشفاعة كاهننا الأعظم . لنا شفيع أمام ملك الملوك لن يخسر قضية واحدة . فلنضع إنفسنا بين يديه . ولنثق فيه عندما يقول « طلبت من أجلك » (لو ٢٢: ٣٢) ، « كان يليق بنا رئيس كهنة مثل هذا » (عب ٧ : ٢٦) .

وهكذا تحقق غرض يوسف

أولا : لقد أراد أن يعيدهم الى الراحة الكاملة ، والسلام التام ولكنه كان يعرف أن ذلك مستحيل طالما كانت خطيتهم لم يعترف بها ولم تغفر . أما الآن فقد اعترفوا اعترافا كليا .

ثانيا : وأراد كذلك أن يعرف شعورهم نحو بنيامين . لهذا الغرض بالذات أعطاه نصيبا خمسة أضعاف نصيب كل منهم عندما كانوا على

مائدته (٤٣ : ٣٤) . يظن البعض أنه فعل هذا لكى يبين محبته الخاصة لبنيامين . قد يكون كذلك ، ولكن الأرجح أنه كان هناك باعث أعمق . لقد أبغضوه بسبب أحلامه التى ترأس فيها عليهم . لهذا أراد أن يعرف شعورهم نحو بنيامين أن عامله - وهو الأصغر - معاملة ممتازة على الباقين . ولكن بالرغم من هذه المعاملة الممتازة فقد كانوا جميعا متلهفين على عودته معهم .

ثالثا : وفوق ذلك أراد أن يعرف مقدار استعدادهم للصفح . كان بنيامين هو الذى سبب لهم كل هذا الارتباك . فلو أنهم عاملوه بنفس الروح السابقة لكانوا قد تركوه يلقى نصيبه . وفى هذه الحالة ما كان ممكنا لهم أن ينالوا الصفح . « ان لم تغفروا للناس زلاتهم لا يغفر لكم أبوكم أيضا زلاتكم » (مت ٦ : ١٥) . على أنهم لم يحقدوا على هذا الفتى الصغير ، بل بالعكس أظهروا من نحوه كل عطف من أجل أبيهم الشيخ ومن أجله هو أيضا .

واضح اذن أن كل أغراض يوسف قد تحققت ، وكل الشروط تمت ، ولم يبق هناك ما يمنع من ازاحة الستار عن شخصيته الأمر الذى كان على وشك الوقوع .

(٣) لاحظ اعلان يوسف نفسه لاخوته وتصالحه معهم .

« فلم يستطع يوسف أن يضبط نفسه » (تك ٤٥ : ١) .

لم تكن الحاجة تدعو لبذل أى مجهود لكشف النقاب ، انما سبق أن دعت اليه لضبط نفسه طويلا . فلو أنه كان قد استسلم لعواطفه الطبيعية لكان قد أعلن لهم الحقيقة منذ وقت طويل ، ولكنه ضبط نفسه طويلا ، لانه ظل يدرس كيف يعمل لصالحهم الدائم . وحالما انتهى يهوذا من مرافعته المثيرة للعواصف لم يستطع الاستمرار فى ضبط نفسه .

قد يقرأ هذه السطور من يميل الى الظن بأن مخلصنا ليس من السهل ارضاؤه ، لا يقبل الخطاة الا بعد مثل هذه الفترة الطويلة . ان الامر على العكس من هذا . فهو رقيق وسهل الوصول اليه . قلبه يفيض محبة . وان كان يبدو بأنه متغافل فليس ذلك لنقص فى محبته ، فانه فى الواقع ليس هينا عليه أن يظهر بهذا المظهر ، وانما هو يضطر اليه لكى يختبرنا ، ويمتحننا ويعلمنا . لقد أحب عائلة بيت عنيا ، ولكنه ضبط نفسه ، ومكث فى الموضع الذى كان فيه يومين الى أن مات لعازر ، وبعد ذلك ذهب ليجرى أعظم معجزاته عند القبر الذى دفنت فيه كل آمال الأختين .

عندما نكون مجتازين الامتحان يدعونا لوليمته ، ويتحدث الينا حديث المحبة ، ومع ذلك قد يكون هناك حجاب بيننا وبينه . ولكن عندما ينتهى الامتحان فانه لا يضبط نفسه فيما بعد ، بل يعلن نفسه لنا ، الأمر الذى لا يفعله للعالم . « خروجه يقين كالفجر » (هو ٦ : ٣) .

ثم صرخ يوسف « اخرجوا كل انسان عنى » هنا منتهى الكياسة . فانه لم يشأ أن يشهر باخوته ، كما أنه أراد أن يقول بضع كلمات لا يمكن أن يفهمها الحاضرون . ثم كان يجب اعطاء الفرصة أيضا لاخوته ليتصرفوا بمنتهى الحرية . وهكذا « لم يقف أحد عنده حين عرف يوسف اخوته بنفسه » (٤٥ : ١) .

أن أردنا أن نعرف المسيح فيجب أن نختلى به . في الاختلاء به نجد الفرص الطويلة لسكب نفوسنا قدامه . وكما « ظهر لصفا » (أى بطرس) وهو وحده فى فجر يوم القيامة هكذا ينبغى أن نختلى به لكى نراه . ولماذا لا نختلى به حالا ، الآن ؟ .

بعد ذلك « أطلق صوته بالبكاء » (ع ٢) . ولما سمع المصريون الصوت تعجبوا . هذا صوت الفرح أم صوت الحزن ؟ اننى أميل الى الاعتقاد بأنه لم يكن هذا أو ذاك ، بل كان صوت انفجار

العواطف المكبوتة . لقد ضبط نفسه طويلا . كان شديد الرغبة فى أن لا يخسرهم ، وشديد الخوف لئلا يفشلوا فى الامتحان عندما كان يرقبهم عن بعد وهم يخرجون من المدينة مساء لعله ويخ نفسه لسماحه لهم بالانطلاق . هكذا كان عقله مشغولا ، وأعصابه متوترة . والآن وقد زال الضغط ، ولم تبق هناك حاجة اليه ، أطلق صوته بالبكاء .

أيها الخاطىء اعلم أن قلب يسوع دائم التفكير فيك .

وأخيرا قال لهم « أنا يوسف » . ومع أنه قالها بصوت متهدج لكن لابد أن الكلمات نزلت عليهم كالصاعقة .

يوسف ؟ أكانوا طول الوقت بين يدى أخيهم الذى فقدوه منذ عشرين عاما ؟

يوسف ؟ اذن فقد وقعوا فى فم الأسد لا محالة .

يوسف ؟ أيمكن أن يكون هذا صحيحا ؟ نعم ولا يمكن الا أن يكون هو حقا ، فهذا يفسر لهم كثيرا من الالغاز التى أربكتهم .

كان طبيعيا أن يسودهم الاضطراب والفزع . لقد ذهلوا اذ رأوا أخاهم كأنه قد قام فجأة من الموت ، وخلع قلوبهم الفزع بسبب ما ترقبوه من نتائج ، والخوف لئلا يستوفى منهم الدين القديم - كل هذه العوامل عقدت أالسنتهم فلم يجيبوه . لذلك قال لهم ثانية « أنا يوسف أخوكم الذى بعتموه الى مصر » ، ثم أضاف الكلمات التالية بكل رقة « لا تتأسفوا ولا تغتاظوا ... لأنه لاستبقاء حياة أرسلنى الله قدامكم » .

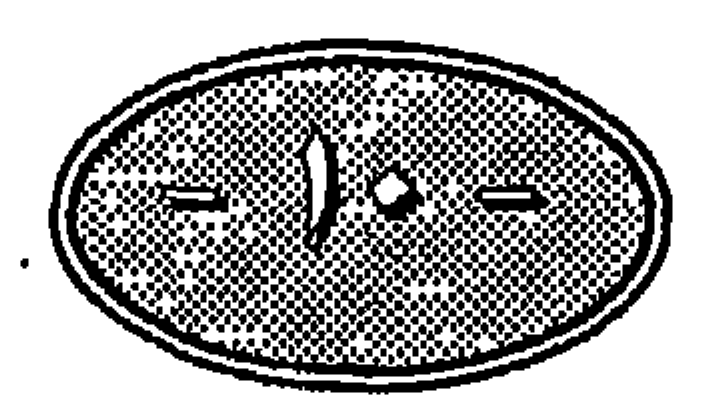
يذكرنا هذا المنظر بآخر مماثل ، هو ذلك الذى حدث عند أبواب دمشق عندما استوقف يسوع ذلك الشباب المضطهد بهذه الكلمات « شاول لماذا تضطهدنى ؟ » . فقال « من أنت يارب ؟ » فكانت الاجابة « أنا يسوع الذى أنت تضطهده » .

يسوع ، أخوك ، الذى بعته وصلبته . ولكن لا تتأسف من أجل هذا ، فأننى قد أسلمت بمشورة الله المحتومة وعلمه السابق ، وأن كانت الأيدى التى صلبتنى وقتلتنى ليست أقل جرما منك (اع ٢ : ٢٣) . ان تبت محيت خطاياك . « كل خطية وتجديف يغفر للناس » (مت ١٢ : ٣١) ، والتجديف الذى جدفت أنت به مهما كانت شناعته .

« وقال يوسف لاخوته تقدموا الى » ، لقد تراجعوا الى الوراء وتباعدوا عنه ، أما الآن فقد أمرهم بالاقتراب . هذا تشبيه جميل لما يفعله الله مع الخطاة لكى يقربهم اليه بعطفه ومحبته . أنه لا يضعنا مدة طولية تحت الاختبار . ولا حاجة لوقوف بعيدا . بل نستطيع الدخول فى الحال فى حياة الشركة السرية العميقة مع ابن الله . لقد كنا « بعيديين أما الآن فقد صرنا « قريبيين » بدم المسيح (أف ٢ : ١٣) . أن سلكنا طريق التوبة الوعر كانت الخطوة التالية قبلة الآب والوليمة فى بيت الآب .

بعد لحظة « وقع يوسف على عنق بنيامين وبكى . وبكى بنيامين على عنقه » (ع ١٤) . نعم « وقبل جميع اخوته » (ع ١٥) . شمعون ؟ نعم . ورأوبين ؟ نعم . أولئك الذين قيدوا يديه وهزأوا بصراخه ؟ نعم . لقد قبل جميعهم . بعد ذلك تحدثوا اليه .

سوف يأتى اليوم الذى يتم فيه هذا أيضا . تنتظر اليهود شدائد كثيرة لكى تعدهم للاعتراف بمسيحهم المرفوض . على أن الوقت ليس بعيدا عندما يسمعونه يقول : أنا يسوع أخوكم الذى صلبتموه . والآن لا تتأسفوا ولا تغتاظوا ، لأن الله أخرج من الشر خيرا سواء للأمم أو لليهود ، اذ صنع لهم خلاصا عظيما . « وحينئذ ينظرون الى الذى طعنوه وينوحون عليه » (زك ١٢ : ١٠) « وهكذا سيخلص جميع اسرائيل » (رو ١١ : ٢٦) .



ادارة يوسف لشئون مصر

(تك ٤٧)

نـــــراه وهـــــو يتحـــــرك بـا لـــلأدب
والوقـــار والقـــدرة والحكمـــة بالقـوة
ضبط النفس وبالـرقـــة القـلـب والنعمـــة
(تنيسن)

بينما كانت تلك الأمور العائلية التى تأملنا فيها فى الفصول الأخيرة تأخذ مجراها كان يوسف يقود المملكة ، التى احتضنته ، فى تلك الأزمة الطاحنة التى يصح أن تسمى ثورة . وهو عندما اعتلى كرسى رئاسة الوزراة كان عرش فرعون ضعيفا نسبيا . ولكن بعد قيادته للبلاد نحو ثلاثة عشر عاما أصبح فرعون مالكا لكل أرض مصر .

كان الحال فى مصر كما كان فى انجلترا فى عهد الاقطاعيات فكل الأرض قسمت اقطاعيات بعيدة عن العرش . أما تاريخ هذا التغيير فان درسه يستحق عناية أوفر مما هو فى مقدورنا الآن ، ولكنه على أى حال كان من بدايته الى نهايته يعزى لسياسة ذلك الشاب العبرانى . وليست هذه هى المناسبة الوحيدة التى فيها قاد عبرانى المملكة التى احتضنته أثناء أخطار استثنائية بحكمة استثنائية .

خلال سبع سنى الشبع أمر يوسف بخزن خمس محصول كل منطقة (محافظة) فى مدينتها الرئيسية ، وبذلك تتوفر فى مخازن فسيحة جدا فى كل مدينة المؤونة التى تحتاجها منطقتها . أخيرا أتت سنو المجاعة ، وبالهولها ومتاعبها . وأن الاختبارات الأليمة الحديثة فى الهند لتعيننا على أن ندرك معنى هذه الكلمات : « ولم يكن خبز فى كل الأرض لأن الجوع كان شديدا جدا . فخورت أرض مصر وأرض كنعان من أجل الجوع » (ع١٣). لا شك فى أنه لو لم يكن يوسف قد احتاط لهذه المجاعة بما خزنه من مؤونة لامتلأت الشوارع من الجثث البشرية ، رجالا ونساء وأطفالا ، ولما أمكن أن تستعيد البلاد عدد سكانها السابق الا بعد سنوات طويلة .

وسرعان ما بدأت مخازن المصريين - كأفراد - تفرغ . ولما اشتد الجوع فى كل أرض مصر هرع الشعب الى فرعون صارخين : الخبز ، الخبز اعطنا خبزا . هل اقتحموا أبواب القصر الملكى كما فعل شعب باريس مرار أثناء الثورة المروعة ؟ هذا ما لا نعلمه .

على أن فرعون كان يجيب على الدوام : « اذهبوا الى يوسف والذى يقول لكم افعلوا » (تك ٤١ : ٥٥) . « حينئذ فتح يوسف جميع ما فيه طعام وباع للمصريين » (ع ٥٦) . كان هذا هو العدل والحكمة . فلو أنه وهبهم الطعام مجانا لكان هذا خطأ جسيما . فى المجاعة الايرلندية فرضت الحكومة على الشعب أن يكسبوا طعامهم بشق الطرق ، اذ لو قدمت المساعدة لهم بلا مقابل لأحدث مجانا بدلا من بيعه لكان الأمر قد استغرق أكثر من قرن أو اثنين لاقناعهم بتغيير موقفهم بعد انتهاء المجاعة . أذن فقد كانت سياسة يوسف تتفق تماما مع أحدث نظم الاقتصاد السياسى الحديثة .

ولكن المال نفد بسرعة ، ولم يستغرق أكثر من سنة واحدة . فما العمل لم يبق الا الأشخاص والأراضي . وهذه يعز على النفس رهنها . ولكن لم تكن أمامهم وسيلة أخرى . لذلك جاءوا الى يوسف وقالوا « لماذا نموت أمام عينيك .. اشترنا وأرضنا بالخبز » (٤٧ : ١٩) . وبتعبير آخر انهم أصبحوا فلاحين لفرعون ، ودفعوا له خمس المحصول كايجار للأرض (ع ٢٤ - ٢٦) . قد يبدو أن هذه ضريبة ثقيلة ، ولكنها في الواقع قيمة معقولة تتفق مع ما هو سار الآن في كل مملكة تقريبا في أوربا .

(١) لنتأمل في روح يوسف في ادارته

انها تتلخص في ثلاث عبارات وجيزة : هي أنه كان « مجتهدا في عمله ، حارا في الروح ، عابدا الرب » أم ٢٢ : ٢٩ ، رو ١٢ : ١١) .

(أولا) أما عن اجتهاده في عمله فالأدلة على ذلك كثيرة .

فانه في بداية الأمر عندما اعتلى منصبه الرفيع « اجتاز في كل أرض مصر » (٤١ : ٤٦) . فكانت المخازن تبنى ، والقمح يخزن ، تحت اشرافه الشخصي . ولما أتت المجاعة ، كان القمح يباع تحت اشرافه . ويبدو أن عبء كل الترتيبات وقع على كتفيه ، لأن فرعون نفض يده من هذه العملية ، وكان يقول « اذهبوا الى يوسف » .

ويوسف هو الذي جمع كل الثروة التي وجدت في كل أرض مصر .

ويوسف هو الذي اشترى كل الأرض لفرعون .

ويوسف هو الذي باشر عملية توزيع العمال في كل البلاد لسهولة بيع القمح .

ويوسف هو الذي وضع اللوائح والتعليمات . « أرأيت رجلا مجتهدا في عمله . أمام الملوك يقف ، لا يقف أمام الرعاع » (أم ٢٢ : ٢٩) .

أيها الشبان ، ليكن يوسف مثالا لكم فى الجد والاجتهاد . يقوم بعض الناس بأعمالهم بمنتهى البطء والتلكؤ والتراخى والاهمال ، والآخرون يقومون بأعمالهم بعد فوات الفرصة المناسبة ، أنهم دواما متأخرون ، يذهبون الى محطة السكة الحديد بعد قيام القطار ، يؤمنون على أثاثهم بعد احتراق المنزل ، يغلقون باب الاسطبل بعد هرب الحصان . فاحذروا من الاقتداء بأحد هؤلاء . اختاروا أولا عملا معينا ، مهما كان متواضعاً ، تظهرون فيه كُل نشاطكم واجتهادكم ، ثم ابذلوا أقصى جهدكم فيه بلا تراخ .

وهاكم بعض قواعد جوهرية جدا وإن كانت بسيطة :-

١ - **انتفعوا بالوقت على قدر استطاعتكم** . ان أوفر الأشخاص حظا فى النجاح فى العالم هم الذين عرفوا كيف يوفرون ما يسرف فيه الآخرون ، الذين يقتصدون اللحظات ، ويفتدون فضلات الوقت الذهبية ، وبذلك يخلقون من أوقات الفراغ حظا ذهبيا .

٢ - **تعودوا المحافظة على المواعيد** . هناك أشخاص تعودوا عدم المحافظة على المواعيد . هم لا ينسونها ولكنهم يصلون دواما بعدها بخمس دقائق . ويبدو كأنهم ولدوا متأخرين ، ولم يستطيعوا أبدا الانتفاع باللحظات الضائعة .

٣ - **راعوا الدقة والنظام فى عملكم** . رتبوا عملكم اليومى على قدر الاستطاعة كما يرتب ساعى البريد خطاباته بحسب الشوارع والمناطق . على أن تفسحوا المجال بطبيعة الحال للدعوات الخاصة التى قد يضعها الله فى طريقكم .

٤ - **كونوا سريعين** . ان كان لديكم عمل يجب أن تتمموه فأدوه فى الحال . بعدئذ تشعرون بلذة الراحة .

٥ - **كونوا نشيطين** . التقى مرة شخص « بتوماس كارليل » - وكان من المعجبين به - فجأة فى هايدبارك ، بينما كان غارقا فى تفكيره ، ثم طلب منه أن يزوده بشعار لحياته . صمت توماس كارليل لحظة ثم قال : لا يوجد شعار للشاب أفضل من كلمات الكتاب « كل ما تجده يدك فافعله بقوتك » (جا ٩ : ١٠) .

(**ثانيا**) على أن يوسف كان أيضا حارا فى الروح . كان غصن شجرة مثمرة على عين ، ارتفعت أغصانه فوق حائط (تك ٤٩ : ٢٢) . يكاد يكون مستحيلا ادراك جمال هذا التشبيه البديع . غرست الشجرة فى أرض ناشفة ، فلا ينتظر أن تورق أغصانها ، وبالأحرى لا ينتظر أن تثمر ، وفجأة ترى أغصانها مورقة ، ارتفعت فوق حائط محملة بعناقيد العنب . لماذا ؟ لأن عينا عميقة كانت أسفل الشجرة ، فامتدت اليها جذورها وارتوت منها .

هكذا قضى يوسف حياته فى أرض ناشفة عطشة ، لم يكن فى مصر ما يغذى حياته الروحية ، ومع ذلك أثمرت حياته ثمارا أبهجت الانسان وأرضت الله . امتلأت حياته بل فاضت محبة ، فرحا ، سلاما ، طول أناة ، لطفا ، صلاحا ، ضبطاً للنفس (غل ٥ : ٢٢) . وكان ذلك بلا شك نتيجة حرارة قلبه .

قيل عن وزير عظيم أنه كان فى فجر حياته راعيا للغنم . ولما وصل الى مركزه الرفيع خصص فى قصره غرفة لاستعماله الشخصى ، ولم يسمح لأى شخص آخر بدخولها . فى هذه الغرفة أودع أثاث بيته المتواضع الأول ، وكل عدته التى كان يستعملها فى عمله الأول (رعاية الغنم) . فى كل يوم كان يدخلها ليقضى بعض التأملات الهادئة فيما كان عليه بالأمس ، لئلا ينتفخ .

ويقينا أن يوسف كان له في قصره غرفة للعزلة ، يقضى فيها ساعات طويلة كل أسبوع فى مناجاة اله آبائه ، الذى اليه عزا الفضل فى كل ما وصل اليه .

ليت كل رجال الأعمال فينا يكونون « حارين فى الروح » فهذا يندر أن نراه . يعطون أفضل أوقاتهم لدفاترهم وأوراقهم ، ولكنهم لا يعطون وقتا للكتاب . يعطون وقتا للمنتديات والمجتمعات ، ولكنهم لا يعطون وقتا للكنيسة . يعطون وقتا للتحدث مع أصدقائهم ولكن لا وقت للتحدث مع الله .

ونتيجة لهذا سرعان ما تذبل الروح ، وينطفىء النور من العينين ، وتتعثر الخطوات . وأصبح الناس يبدو عليهم التعب ، والقلق ، وعدم القناعة . وأصبحت الحياة قاتمة مقبضة للنفس . والناس فى هذا الوضع يعجزون عن انعاش النفوس المتعبة التى تمر بهم ، وهى تبحث عبثا عن عناقيد العنب المنعشة .

اننا لن نستطيع أن نثمر بأى مجهود من ذواتنا . ولكننا بهذا فقط نثمر - عندما تمتد الجذور الى العين . يجب أن نخصص وقتا للصلاة الانفرادية ودراسة الكتاب المقدس الحلوة . وعندئذ لا يمكن أن تنطفىء جذوة الحرارة فى القلب ، ولا تذبل الأوراق ، ولا تنعدم الثمار .

لا تتوهم بأن حرارة الروح مستحيلة لمن يعيشون وسط مشاغل الحياة . لم يكن هذا مستحيلا على يوسف ، ولن يكون مستحيلاً على من يسلك حسب قواعد الكتاب المقدس البسيطة . لا يكفى أن نشعل النار بل يجب أن نغذيها . ولعل الكثيرين من القراء قد غاصوا تدريجيا فى عادة اهمال الصلاة السرية ، كأنهم قد آلوا على أنفسهم أن يطفئوا حرارة الروح .

هاكم هي « عين » (أو « بئر ») كلمة الله . اقتربوا اليها . عمقوا جذوركم اليها . استقوا منها بدراسة الكلمة كل يوم . وبذلك تستطيعون مقاومة العوامل الكثيرة التي تحاول أن تطفىء غيرتكم ، وتفت في عضدكم .

(ثالثا) على أن يوسف كان أيضا عابدا الرب (أو « عبدا الرب ») . كان الله في كل تفكيره . كان شعاره « انني أخشى الله » وكان الفكر السائد على عقله « ليس أنتم أرسلتموني الى هنا بل الله . وهو قد جعلني متسلطا على كل أرض مصر » (تك ٤٥ : ٨) . في هذا القول يبين احساسه بأنه كان مدينًا لله بكل ما آل اليه ، وبكل ما فعل .

يقينا نحن في حاجة الى الرابطة التي تربط أعمالنا اليومية بمبادئنا الدينية . من المؤلم أن نرى الكثيرين يلبسون في محال أعمالهم لباسا خاصا ، وفي الكنيسة لباسا آخر . أين المبدأ الذي يجعل حياتنا خاضعة لقاعدة واحدة مباركة ؟ لا أعرف مبدأ آخر سوى ذاك الذي وضعه قائد المائة الصالح حينما قال « انسان تحت سلطان » . يجب أن نحس كل ساعة أننا نعيش – رجالا ونساء – تحت سلطان الرب يسوع المسيح .

يتحكم قانون الجاذبية في الكواكب السيارة المحيطة بالشمس كما يتحكم في ذرات التراب الدقيقة . هكذا الطاعة لمخلصنا في كل شيء فانها تبسط وتنظم كل شيء ، تحول كل اضطراب وتشويش في حياتنا الى نظام بديع . ان كانت في حياتك عادة ، أو ملبس أو أي تصرف لا يصادق عليه المسيح وجب الاقلاع عنه في الحال . يجب أن يكتب اسمه على كل أجراس الحياة . والا توقفت عن أن ترن .

ما أجمل ما قاله الرسول لعبيد زمنه المساكين الذين أضفى عليهم شرفا جديدا حينما خاطبهم قائلا « كعبيد المسيح . خادمين بنيه صالحة كما للرب ليس للناس » (أف ٦ : ٦ و٧) .

ليس أمرا ذا بال ان كان عملك وضيعا ، فانك تستطيع أن تؤديه من أجل ربك العزيز ، ولسان حالك يهتف على الدوام : هذا من أجلك ياربى ، كل شيء لأجلك . هذا يمنعنا من تأدية أى عمل بتعجل أو بكيفية سطحية .

العالم ملىء بالخدام الكثيرين غير الأمناء . وأن وبخت أحدهم أجابك : أجرى ضئيل ، سيدى لا يبالى بى ، انني أعامل كعبد ، سأترك عملى فى أقرب فرصة . لكن قف قليلا ، فمن ذا الذى أتى بك الى هذا العمل ؟ هل للمسيح دخل فى الأمر ؟ ان كانت الاجابة سلبية فكيف تقدمت اليه دون طلب الاذن منه ؟ وان كان قد أعطى الأذن كيف تجرؤ على تركه الا اذا كنت واثقا من أنه يدعوك لتركه ؟

أما من جهة الخدمة فلماذا تخدم ؟ هل لأجل المال ، أم للحصول على ثناء الناس ، أو على سبيل العادة ؟ كلا يجب أن تكون الخدمة لأجل المسيح . اذن فأبذل كل ما فى وسعك من أجله . كل غرفة تدخلها انما هى غرفة فى هيكله . وكل آنية تلمسها انما هى آنية مقدسة . وكل عمل تعمله يلفت نظره كما لفت نظره سكب قارورة الطيب . اكتب على كل قطعة من عملك « قدس ليسوع المسيح » (زك ١٤ : ٢٠ و٢١) . هذا يضفى شرفا جديدا على العمل ويعطى معنى جديدا للحياة .

يجب أن لا ننسى قط أن ارادة الرب هى أن يجعل الحياة كلها فى مستوى واحد ، وأنه يعمل ليوفى كل مطالبها . « لأن من دعى فى الرب وهو عبد فهو عتيق الرب كذلك أيضا الحر المدعو هو عبد للمسيح » (١ كو ٧ : ٢٢) وكل الحياة تصل الى وحدتها الحقيقية ومثلها الأعلى لما هو رأسها وربها .

(٢) لاحظ اعتراف المصريين

« فقالوا أحييتنا » (تك ٤٧ : ٢٥) يالها من مواهب ممتازة : الطمأنينة ، وبعد النظر ، والبديهة الحاضرة . هى هبة من الله . فقد ساعدت الكثيرين على أن يخلصوا أقرانهم . ذلك المهندس الذى حول البحار قديما لكى يدفع السفينة فتشق عباب المحيطات المخيفة كانت له هذه الهبة . كانت أيضا لستانلى ولفنجستون بين الرحالة ، وكثيرا ما أنفذتهما وأتباعهما من رعاع البرابرة . كانت أيضا لكروموبل وولنجتون بين رجال الحرب ، وقد مكنتهما من انقاذ رجالهما من مواقف كان الموت فيها مؤكدا . كانت أيضا لكافور Cavour وبت Pitt وبرايت Bright بين رجال السياسة . لعل كلا من هؤلاء قد وجهت اليه كلمات المصريين « أحييتا » .

على أن هناك ما هو أسمى من هذا . فأننى اذ أرى هؤلاء المصريين مزدحمين حول يوسف بهذه الكلمات على شفاههم أتذكر ذاك الذى ما كان يوسف الا رمزا له . لقد ألقى يوسف فى الجب ، ومن الجب أصعد ليعطى طعاما لاخوته الذين سبق أن رفضوه ، ولأمة وثنية . ويسوع رقد فى القبر ، ومن هاويته المظلمة أقيم ليعطى خلاصا لاخوته اليهود ، وللملايين من شعوب الأمم . اننى أسمع أصوات ربوات لا حصر لها وهم يخرون أمام العرش صارخين « أحييتنا » .

ان الاسم المصرى (صفنات فعنيح) الذى أطلق على يوسف يعنى « مخلص العالم » (تك ٤١ : ٤٥) . ولكن هيهات بين هذا الخلاص وذاك الذى أتممه يسوع . فيوسف خلص مصر بحكمته ، ويسوع خلصنا ببذل حياته . وخبز يوسف لم يكلفه شيئا ، أما الخبز الذى يقدمه يسوع فقد كلفه الجلجثة . لقد قدم ليوسف المال والمواشى والأراضى ، أما يسوع

فيأخذ بضاعته الى سوق الفقراء ويبيعها لمن لا فضة له ولا ثمن ، وهو يقدر أن يسد كل أعوازنا .

وشرطه الوحيد هو أن يتمم ذلك مجانا . وتقديم أى ثمن معناه قطع كل صلة به . أما أن كنت مستعدا للذهاب اليه بلا ذهب في يدك ، وبعدل فارغ ، فانه يعطى بسخاء ، بكلتا يديه ، « مهزوزا ، فائضا » (لو ٦ : ٣٨) لأنه « يشبع الجياع خيرات ويصرف الأغنياء فارغين » (لو ١ : ٥٣) . « طوبى للمساكين لأن لهم ملكوت السموات » (مت ٥ : ٣) .

(٣) ولاحظ ما اعتزمه هؤلاء المصريون

« ليتنا نجد نعمة فى عينى سيدى فنكون عبيدا لفرعون » . « أحييتنا فنكون عبيدا لفرعون » . هل نجد باعثا أكثر من هذا لتكريس حياتنا لمخلصنا ؟ لقد خلصنا ، أليس خليقا بنا أن نصير له عبيدا ؟

هناك بواعث كثيرة تدعونا لقبول نير المسيح :-

١ - **فان فيه شرفا رفيعا** . كان رئيس السقاة يفخر بلبس ثوب الأمراء والنبلاء ، وأي ثوب يليق بخدام المسيح ؟ « اننى حامل فى جسدى سمات الرب يسوع المسيح » (غل ٦ : ١٧) .

٢ - **وفيه سعادة لا تقدر فهو الحرية الكاملة** . ان التحرر من المسيح هو العبودية الكاملة . أما إطاعة المسيح فهى الخروج الى حرية مجد أولاد الله .

٣ - وأنتقل الآن من هذين الباعثين لأقدم باعثا اقوى وإشد : هو أن المسيح قد خلصك . فهلا تخدمه ؟

وهذه هى الخطوات المتتابعة . فلاحظها جيدا :

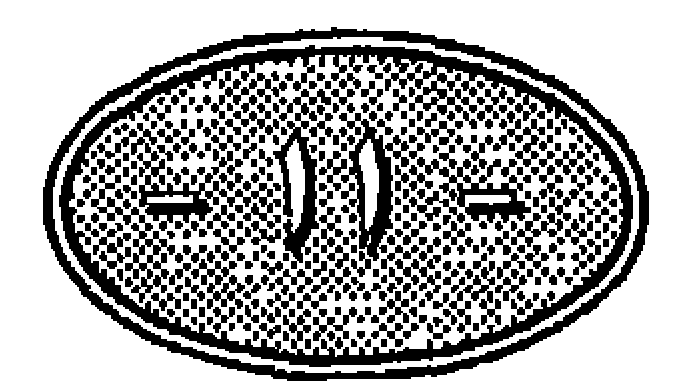
١ - اذكر أن يسوع قد اشترك بسفك دمائه فداء عنك ، وباعطاء جسده عنك وعن حياة كل العالم ، وذلك لكى تكون ملكا له .

٢ - قدم ذاتك بكليتك له ، قائلا باتضاع ومحبة وثقة : اننى ياربى أقدم لك الآن شخصى ونفسى وجسدى ذبيحة حية مقدسة مرضية . من هذه اللحظة أنت لست لنفسك بل له . حينما نقدم اليه شيئا يتقبله حالا . اعتمد عليه ليحفظك ويسد كل أعوازك . اتخذ يسوع مخلصا لك وصديقا وربا فى كل لحظة من لحظات الحياة . قدم له طاعة تشمل كل كيانك ، وتشغل كل ثانية من وقتك . ان أغويت لتتركه ردد الكلمات التى كان يقولها العبد العبرانى قديما : « انى أحب سيدى .. لا أخرج حرا » (خر ٢١ : ٥) .

ألا يستحق منك الرب هذا ؟ لأجلك اضطجع فى مذود فى بيت لحم . لأجلك أفتقر ، ولم يكن له أين يسند رأسه . لأجلك تساقطت قطرات الدماء من جبينه ، وسكب للموت نفسه .

« فاطلب اليكم أيها الأخوة برافة الله أن تقدموا أجسادكم ذبيحة حية مقدسة مرضية عند عبادتكم العقلية » (رو ١٢ : ٢) .

+ + +



والد يوسف

(تك ٤٧ : ١ - ١١)

تقاس الحياة بالأعمال لا بالسنين وبالأفكار لا بالنسمات وبالمشاعر لا بعدد الساعات . فمن سمت أفكاره ورقت مشاعره وعظمت أعماله كانت حياته هى الأفضل .

(بيلى)

كثيرا ما دفعنا اعجابنا بشخص بارز الى التساؤل عن أبيه وأمه . ويقرر لنا التاريخ أن وراء أغلب العظماء آباء أفاضل وأمهات فضليات . لذلك لا نعجب أن وجدنا فى الكتاب المقدس ما يشبع هذه الغريزة البريئة – غريزة حب الاستطلاع – سيما فى رواية يوسف ، التى سمح لنا فيها بالتطلع فيما وراء الستار لنرى العلاقات بينه وبين والده الشيخ يعقوب .

(١) محبة يوسف البنوية التى لم تنقص :

كان واضحا أن محبة يوسف لأبيه اضطرمت فى قلبه بنار لا تطفأ ، ولذلك منذ اللحظة الأولى التى رأى فيها أخوته بين الجموع المحتشدة فى

سوق القمح من كل الجنسيات . لم يدرك هؤلاء الاخوة كم كان متلهفا ليعرف ان كان أبوه لا يزال حيا ، ولا أدركوا نشوة الفرح التى هزت قلبه عندما قالوا « هوذا الصغير عند أبينا اليوم » (تك ٤٢ : ١٣) . فواضح اذن أن صورة الأعرج المحبوب كانت لا تزال مرتسمة فى مخيلته رغم مرور خمسة وعشرين عاما منذ أن رآه لآخر مرة .

وعندما أتى اليه أخوته للمرة الثانية لابد أن يكونوا قد تملكتهم الدهشة عندما لاحظوه يسأل برقة واهتمام عن سلامتهم ويقول لهم « أسالم أبوكم الشيخ الذى قلتم عنه أحي هو بعد » (تك ٤٣ : ٢٧) . أما يهوذا فكان يجهل أنه يضرب على الوتر الحساس فى حديثه عن أبيه مرارا وتكراراً ، وعن محبته للابن الأصغر ، الأثر الوحيد الباقى لأمه ، ذاك لأب الذى كان فى أشد القلق لئلا يصيبه أذى الذى كان يخشى أن تنزل شيبته بحزن الى الهاوية ان لم يعد . حركت تلك الأشارات المتكررة عن الوالد كل عواطف يوسف حتى أنه « لم يستطع أن يضبط نفسه » . ولذك فانه بعد أن أعلن ذاته قائلا « أنا يوسف » كان هذا هو أول ما سأل عنه « أحى أبى بعد » (تك ٤٥ : ٣) .

وفى الكلمات المضطربة التالية ، الممتلئة من العواطف والشجون ، أنسابت من بين شفتيه كلمات كثيرة عن والده ضمن الكلمات التى فاه بها للصفح عن اخوته . « اسرعوا واصعدوا الى أبى وقولوا له هكذا يقول ابنك يوسف قد جعلنى الله سيدا لكل مصر . انزل الى لا تقف . وتخبرون أبى بكل مجدى فى مصر وبكل ما رأيتم . وتستعجلون وتنزلون بأبى الى هنا » (تك ٤٥ : ٩ و١٣) .

ولا مشاحة فى أن الايام والشهور التى انقضت فى انتظار يوسف لأبيه قد سببت له كثيرا من القلق والاضطراب . وعندما سمع أخيرا أن

أباه الشيخ وصل الى حدود مصر على احدى المركبات التى أرسلها اليه « شد مركبته وصعد لاستقبال اسرائيل أبيه » (تك ٤٦ : ٢٩) .

يا لجلال ذلك الاستقبال . مهما كان السفر قد أضنى ذلك الشيخ فلابد أن يكون قد استعاد قواه عندما سمع القوم يقولون « أن يوسف قادم » . ويخيل الى أنه نزل عن مركبته وبدأ يحدق ببصره الضعيف فى الجماعة القادمة التى خرج من وسطها ذلك الحاكم الجليل القدير ، وأسرع « ووقع على عنقه وبكى على عنقه زمانا) وبعد أن تفرس فيه من هامة رأسه الى أخمص قدمه قال بكل سرور وافتخار وراحة قلب « أموت الآن بعدما رأيت وجهك أنك حى بعد » . ولست أدرى ماذا كان شعوره عندما تذكر تأوهاته السابقة التى قال فى احداها « صار كل هذا على » (تك ٤٢ : ٣٦) .

لم يكن هذا هو كل ما فى الأمر . ولكن يوسف أحب أباه محبة مفرطة لدرجة أنه لم يستح به . عندما سمع فرعون بوصول أبيه وأخوته سر سروراً عظيما ، وطلب من يوسف أن يعمل كل ما فيه راحتهم . « أرض مصر قدامك . فى أفضل الأرض أسكن أباك واخوتك ليسكنوا فى أرض جاسان . وأن علمت أنه يوجد بينهم ذوو قدرة فاجعلهم رؤساء مواش على التى لى » (تك ٤٧ : ٦) . وبعد ذلك أحضر يوسف أباه أمام فرعون .

ونحن لا يسعنا الا الاعجاب بصراحة يوسف التى قدم بها أباه لذلك الملك العظيم الذى تحف به تقاليد أعظم ملوك العالم . كانت هناك هوة اجتماعية سحيقة بين مصر وكنعان ، بين القصر والخيمة ، بين الملك والراعى .

ولو كان يوسف أقل نبلا أو بساطة مما كان لأحجم أو تردد فى جمع النقيضين ، وخشى من أظهار أصله الوضيع ، وخجل من أقربائه الذين أتوا ليكونوا عالة على البلاد التى أحتضنته . ولكن كل هذه الاعتبارات انتفت من مخيلته أمام اعتبار آخر هو أن هذا الرجل المهدم الأعرج كان أباه .

ان هناك تهاونا شديدا فى هذه الناحية فى جميع طبقات مجتمعنا الآن ، سيما أبناء العمال فى المدن الصناعية الكبرى . فالشبان يستطيعون أن يكسبوا دخلا طيبا يمكنهم من أن يستقلوا عن والديهم . واذا ما دفعوا اليهم بعض المساعدة الضئيلة توهموا أنهم ليس لهم حق فى طلب مساعدات أخرى فيما بعد ، وينسون أنهم ملتزمون بايفاء باقى ديونهم الطويلة العريضة . ولا يفكرون فى أن يذكروا كم كلفت سنوات الطفولة الطويلة التى لم يكونوا فيها الا عبئا ثقيلا . لا يذكرون الرقة المتناهية التى خدمتهم أثناء أمراضهم الخطرة ، التى لم تذق طعما للنوم أو الراحة ، والتى اعتبرتهم ملائكة وقديسين وأبطالا ، واحتملت شراستهم ومضايقتهم ، وسهرت الليالى فى اعداد ملابسهم أو سائر مطالبهم .

فى بعض الحالات لا تزال تصرفات الأبناء البالغين نحو والديهم مخزية . أنه أمر عادى أن نرى بعض الأشخاص ينتقلون فى سنوات قليلة من الفقر الى الثراء . وعندما تزداد الثروة يتغير الوضع الاجتماعى للشخص ، فيسكن بيتاً جميلا ، ويولم الولائم ، ويشترى السيارات ، ويرسل أبناءه لأرقى المدراس .

وماذا يفعل بالوالدين المتقدمين فى السن ؟ أنه لا يقدم لهما إلا مساعدة ضئيلة . ويحرص على أن يعيش بعيدا عن بيته وأسرته ، لشدة

استحائه بهما . ياللعار ... يقينا أن من يتصرف هذا التصرف كثيرا ما يبدو فى أقواله أو أفعاله - دون أن يدرى - ما يظهر لرفقائه الجدد أصله الوضيع أكثر من وجود والديه معه . أننى أعجب كل الاعجاب بمروءة وشهامة يوسف الذى افتخر بتقديم أبيه المحطم الأعرج الى فرعون .

أيها الشبان : اكرموا والديكم . لا تسيئوا معاملتهم لمجرد معرفتكم بأن محبتهم لكم تحتمل وقاحتكم . ان الأدب الذى لا يوقر الأقرباء ان هو الإ طلاء كاذب . لا تنادوهم بأسماء محقرة . افتخروا بأن تنادوهم بهذا اللقب الرفيع السامى « أبى ، أمى » . قد تكون لهم أخطاؤهم ، ولكن ليس من كرم النفس أو الشهامة أن تطيلوا التفكير فيها . من الممكن أن تعتبروا هذه الأخطار أو النقائص ثانوية جدا بجانب صفاتهم الطيبة التى تغطى عليها . تشبهوا - فى الاحترام البنوى - بابنى نوح اللذين سترا حتى خطية أبيهما .

(٢) سؤال فرعون :

« كم هى أيام سنى حياتك » (تك ٤٧ : ٨) . كان هذا أول ما سأله فرعون عندما دخل يعقوب فى حضرته . ولعل الباعث على السؤال كان مظهر يعقوب الذى أحنى الهم ظهره . هذا سؤال طالما جرى على أفواهنا ، ولكنه مقياس خاطىء لتقدير طول حياة الانسان ، فالحياة لا تقاس بعدد أيامها ، بل بالكيفية التى صرفت بها تلك الأيام .

تقاس الحياة بالأعمال لا بالسنوات .
وبالأفكار لا بالنسمات .
وبالمشاعر لا بعدد الساعات .

يعمر البعض سنوات طويلة ، وفى نهايتها يقدمون قليلا أو لا يقدمون شيئا . ان أخرجت الساعات التى ضاعت هباء ، ساعات التراخى والكسل ، ساعات البطالة ، ساعات الانغماس فى الملذات ، فانه لا يتبقى الا ساعات قليلة ، هى ساعات الحياة الحقيقة . هناك أشخاص عاشوا سبعين عاما ولكنهم لم يعيشوا من كل هذه السنوات سوى سته شهور . لما تضغط كميات هائلة من القطن فانها لا تشغل الا حيزا ضئيلا . هكذا تنكمش حياة الكثيرين الى حيز ضئيل جدا تحت ضغط الحقيقة . وحياتنا الحقيقيه لا تبدأ من الولادة الأولى بل من الثانية وأما ما قبل ذلك فليس له اعتبار .

يعمرالآخرون سنوات قصيرة . ولكنهم يملأونها بحياة نبيلة حافلة بجلائل الأعمال . عرفوا كيف يحافظون على المواعيد ويجدون فى أعمالهم ، وينظمونها ، ويفتقدون الوقت . حافظوا على الدقائق بكل حرص وتقتير ، انتفعوا أحسن انتفاع بأوقات الفراغ التى بذرها غيرهم كشىء لا قيمة له . والنتيجة أنهم قدموا الكثير . كم من كتاب قرأوه . كم من أعمال قاموا بها . كم من أصدقاء اكتسبوهم فى الثلاثين من عمرهم ، ولكنهم فى هذه السنوات القصيرة عاشوا حياة يعيشها معظم البشر فى ستين عاما .

هل لى أن أتطفل فأسأل كل واحد من قرائى الأعزاء وأنا الآن فى سن الشيخوخة – هذا السؤال : كم هى أيام سنى حياتك ؟

هل أنت فى السابعة عشر ؟ هذا هو الوقت الحرج . هو السن الذى تكون فيه حياتك . فكما تكون حياتك الآن سوف تكونها فيما بعد . أنت الآن على وشك ترك المرفأ الأمين لتخرج الى عرض المحيط . احذر ، أنه يبدو جميلا ولكنه مخادع . احرص أن يكون على ظهر سفينتك الربان

الأعظم ، يسوع المسيح . لن يستطيع أحد سواه انقاذ سفينتك من الصخور والمخاطر المختفية فى الطريق . ولا تتخذ أحدا من الملاحين الا من يختارهم هو .

هل أنت فى الحادية والعشرين ؟ هذا هو سن الرشد ، أو سن الاستقلال . لا تنس أبدا انه يوجد على الأقل واحد لا يمكنك الاستقلال عنه . قد تتمرد عليه ، وتذهب الى كورة بعيدة ، وتبذر مالك وماله فى عيش مسرف ، ولكنك لابد عائد اليه فى النهاية . فلا راحة حقيقية ، أو طعام ، أو كرامة ، خارجا عن بيته . أيها الابن الضال ، عد الى بيتك ، عد الى بيتك .

هل أنت فى الثلاثين ؟ فى هذه السن خرج ربنا من عزلته أذكر أن الكثيرين قد عاشوا حياة عظيمة وماتوا قبل أن يصلوا الى هذه السن ، كالاسكندر ذى القرنين وغيره من قادة العالم . ماذا أنت فاعل فى هذا العالم ؟ تعال ، اسرع ، أن زهرة حياتك سريعة الذبول . احذر لئلا تضطر أن تقول فى ختامها : « لقد أنفقت حياتى فى الأباطيل التى لا تفيد » .

« يالها من رواية محزنة .
تلك التى نقصها فى اذن المساء .
عما فعله الصباح نحو ازالة المجد .
وتبديد الآمال الحلوة .
عن نباتات الرحمة التى ماتت .
التى كان يمكن أن تترعرع وتزدهر » .

ولكنك لست فى حاجة لذكر الماضى بتلك الكلمات الاسيفه ، ان كنت فقط تسلم كل كيانك للرب يسوع المسيح ، طالبا منه أن يحفظ نفسك ،

ويفكر فى عقلك ، ويحيا فى قلبك ، ويعمل فى حياتك ، ويكمل فيك مسرة مشيئته « وعمل الايمان بقوة » (٢ تس ١ : ١١) .

هل أنت فى الأربعين ؟ تيقظ فقليلون جداً هم الذين تجددت حياتهم فى هذه السن التى هى بداية الانحلال . ان كنت للآن لم تسلم الحياة للمسيح فان الفرصة تتضاءل كل أسبوع بسرعة شديدة جدا .

هل أنت فى الخمسين أو الستين أو السبعين ؟ لقد بدأ المشيب يخط شعر رأسك . يجب أن تكف عن المشروعات السابقة ، وعن زيارة الأماكن العادية ، وتسلم الأعمال التى كانت موضوع فخرك - الى من هم أقوى منك . وكل ما حولك ينذر بأنك على أبواب ظل الموت بظلامه الدامس . فكيف أنت مزمع أن تستقبله ؟ هل بأرتعاد ومذلة وخور عزيمة ؟ هل ستستسلم الى مصير مرعب لا مفر منه ؟ أم بشجاعة وترحيب ، كما فعل ذلك السجين قديما الذى قال عندما دنت نهاية حياته ، « جاهدت الجهاد الحسن ، أكملت السعى ، حفظت الايمان ، وأخيرا وضع لى اكليل البر » ، أيها الشيوخ ، ان عيوننا تشخص اليكم لتعلمونا كيف تنتظر نهاية الحياة ، وكيف نموت .

أنه لسؤال خطير « كم هى أيام سنى حياتك ؟ » خليق بنا أن نتأمل فى قلة سنى حياتنا ، أن نرى الوقت الجشع يأكل الشاطىء الضحضاح الذى نقف عليه . ان أفضل ما أعجبت به من كل كتابات « ملتون » هو حديثه الذى وجهه للوقت . وكثيرا ما قرأت فى تاريخ حياة « تشارلس كنجزلى » تلك الفقرة التى تبين كيف أنه هو على فراش الموت ، كان يقرأ ذلك الحديث مرارا وتكرارا ، سيما هذه الفقرة التالية ، التى أرجو أن نرددها نحن بدون فزع أو خوف :

طر أيها الوقت الجشع .

حتى تختفى عن العيان .

(٣) اجابة يعقوب :

« فقال يعقوب لفرعون أيام سنى غربتى مائة وثلاثون سنة . قليلة وردية كانت أيام سنى حياتى ، ولم تبلغ الى أيام سنى حياة آبائى فى أيام غربتهم » (٤٧ : ٩) .

كانت قليلة : بالنسبة لأعمار آبائه . فقد عاش تارح ٢٠٥ سنوات ، وابراهيم ١٧٥ سنة ، واسحق ١٨٠ سنة ، أما كل ما عاشه يعقوب فقد بلغ ١٤٧ عاما .

وكانت ردية : فى شبابه انتزع عن الأحضان الأبوية ، وعن الأصدقاء الأعزاء ، وخرج وحيدا لكى يقضى أفخر أيام حياته غريبا فى أرض غريبة . كانت خدمته لخاله لابان مضنية وشاقة ، كان فى النهار يأكله الحر ، وفى الليل الجليد (تك ٣١ : ٤) . لم يتخلص من لابان الا بشق النفس . ولم يكد يتخلص منه حتى واجه خطرا أمر . كان عليه أن يلتقى بأخيه الذى يطلب نفسه . فى تلك الأزمة الحرجة التقى بالملاك الذى صارعه فخلع حق فخده ، وصار أعرج حتى نهاية حياته .

لم تكد هذه المصائب تمر حتى اكتنفه خطر شديد من الكنعانيين أهل شكيم ، وجاز وسط مناظر شيبت شعر رأسه ، وجعدت جلد وجهه ، وجرحت قلبه .

وهكذا وصل الى لوز ، فماتت دبورة مرضعة رفقة ، ودفنت تحت بلوطة سميت منذ ذلك بلوطة البكاء (تك ٣٥ : ٨) .

« ثم رحلوا من بيت ايل . ولما كانت مسافة من الأرض بعد حتى يأتوا الى أفراته ولدت راحيل (زوجته المحبوبة) وتعسرت ولادتها . وكان عند خروج نفسها لأنها ماتت أنها دعت اسـمه بن أونى (أى ابـن حـزنى) » (تك ٣٥ : ١٦ – ١٨) .

بعد ذلك بقليل وصل الى ممرا ، حيث مات أبوه فدفنه بالاشتراك مع عيسو أخيه (تك ٣٥ : ٢٩) .

أما الآلام التى انهالت فوق رأسه بعد ذلك فقد سبق أن هزت قلوبنا أثناء تأملنا فى سيرة ابنه يوسف العجيبة .

ثم أن رأوبين لوث اسمه بخزى وعار (تك ٣٥ – ٢٢) .

ويهـوذا لوث اسـم العائلة بالدنس والفجور (تك ٣٨) .

ويوسف كانت كل الأدلة تدل على أن وحشا رديئاً افترسه .

ومنازعات أبنائه مع بعضـهم البعض مزقت قلبه .

وحتى بعد التقائه بابنه الذى طالت غيبته كان عليه أن يعيش عالة على ملك مصر سبعة عشر عاما ، مبعدا عن الميراث المجيد الذى وعد به شعبه .

هكذا كانت العوامل الخارجية لحياة يعقوب . قليلون هم الذين عانوا ما عاناه يعقوب من مصائب ومرائر . وقد يخيل لنا أن حياته كانت فاشلة . قارنها بحياة عيسـو وما منحـه العالم مـن نصيب تجـد الفرق الشـاسـع .

صحيح ان يعقوب نال البكورية ، ولكن حياته كانت مليئه بالنكبات والآلام . وعيسو فقد البكورية ، ولكنه كان له كل ما تشتهيه النفس ، كانت له الثروة ، والجاه ، والأبناء البارزون – هذه كانت نصيب كأسه . فى الاصحاح السادس والثلاثين من سفر التكوين نجد قائمة بأسماء الأمراء والملوك الذين كانوا من سلالته . لابد أن يكون عيسو قد رثى لحال أخيه

مرارا . ولعل لسان حاله كان يقول : ان أخي المسكين يتبع الأوهام على الدوام ، كثير التفكير في المستقبل ، ويبني قصورا في الهواء أما أنا فلأمتع نفسي بكل ما في العالم ، طالما بقي العالم . لنأكل ونشرب لأننا غدا نموت .

ومع ذلك فان يعقوب هذا بنفسه عندما وقف أمام فرعون ، أنحنى أمامه فرعون - وهو أعظم ملوك العالم - بشغف ليلتمس منه البركة « وبارك يعقوب فرعون » (٤٧ : ١٠) . صحيح أن يعقوب اشتهر في بداية حياته بالمكر والدس والخداع ، ولكن يظهر أن هذه كلها ذابت في بوتقة الآلام التي صهر فيها ، فوصل الى عظمة أدبية أمكن أن تؤثر حتى في فرعون المتغطرس .

لم يكن ممكنا قطعا لعيسو أن يبارك فرعون . أما هذا المتغرب المتهدم فقد استطاع الآن أن يفعل ما كان مستحيلا على أخيه الثرى الناجح . « بدون كل مشاجرة الأصغر يبارك من الاكبر » (عب ٧ : ٧) . واضح اذن أن يعقوب كان أعظم من أعظم ملوك عصره .

لذلك فهنالك عظمة مستقلة كلية عن كل الظروف العرضية التي نعلق عليها العظمة أحيانا . ان منصة القضاء لا تخلق قاضيا . والتاج لا يخلق ملكا . والثروة والمناصب لا تخلق عظماء كان يعقوب عظيما حقا ، لبس جلالا ملكيا ، وتسلم البراءة الملكية من الله . لقد قال له الله نفسه « لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل اسرائيل لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت »(١) (تك ٣٢ : ٢٨) .

---

(١) « لأنك أن رؤست عند الله فعلى الناس أيضا تستظهر » حسب ترجمة اليسوعيين ، أو « لأنك كرئيس جاهدت مع الله والناس وقدرت » حسب الترجمة الانكليزية .

كانت هناك ثلاثة عوامل هى التى البست يعقوب جلالا ملكيا . وهذا عين ما تفعله معنا نحن أيضا .

١ - **الصلاة** . فى الصحراء رأى فى حلمه أن الصخور العظيمة تتراكم فوق بعضها فتكون سلما يمس رأسه السماء . صار هذا السلم سر القوة فى حياته منذ ذلك الحين تعود أن يعيش عند قدمى هذا السلم ، صاعدة عليه الملائكة بسرعة لترفع صلواته لله ، ونازلة عليه بأقدامها الجميلة حاملة الخير الوفير .

فتعلم ياأخى أن تصلى بلا انقطاع . هذا هو سر العظمة ، والذى يعرف كيف يقضى الأوقات الطويلة فى الحضرة الملكية يلبس جلالا ملكيا .

٢ - **الآلام** . كانت طبيعته قد أفسدتها عناصر محبة الذات ، والميول الجسدية ، والأنانية . استغل جوع أخيه استغلالا سيئا ، ودع أباه الشيخ ، ونهى ثروته على حساب خاله ، واستخدم وسائل وضيعة مليئة بالمكر والخداع للوصول الى أغراضه . ولكن الآلام لاشت كل هذه وخلقت منه انسانا جديدا .

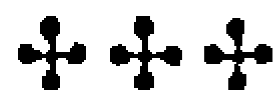
ولا تزال الآلام تفعل هكذا بكل الذين نالوا الطبيعة الجديدة ، والذين يتعلمون بوداعة الدرس الذى تقصد محبة الله أن تعلمهم اياه .

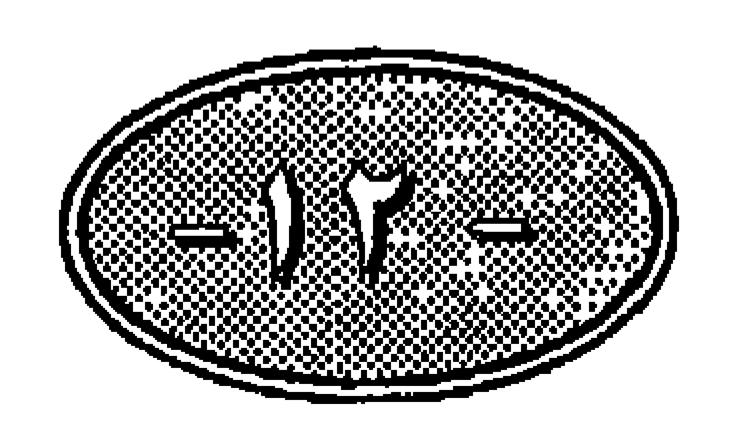
فلا تنفر أو تهرب من الآلام والأحزان . انها تأتى لكى تضع التاج على رأسك . الخروف جلس على العرش بعد أن ذبح . ولا يزال العرش محفوظا لمن تعلموا أن يتألموا معه ، وأن يموتوا معه .

٣ - **الاتصال بالمسيح** « وصارعه انسان حتى طلوع الفجر » . من كان هذا الانسان ؟ لا يمكن الا أن يكون يهوه ، الذى لا يري وجهه . كان هو الرب نفســه الذى قصد أن يطهر عبده من الضعف والشرور التى

لصقت به طويلا ، وأضعفت حياته الروحية . ومنذ تلك اللحظة تغير يعقوب الى « اسرائيل » .

أيها القراء الأعزاء ، تأكدوا أن يسوع ، محب النفوس ، يصارع معكم ، مشتاقا أن يخلصكم من الدناءة ومحبة الذات ، وأن يرفعكم أيضا الى الحياة الملكية . فسلموا له نواتكم ، لئلا يضطر أن يخلع حق فخذ قوتكم . ان سمحتم له باتمام عمله جعلكم حقا رؤساء مع الله ، فيلتف حولكم بسرور من هم أرفع منكم لطلب البركة الروحية التى سوف تعطونها .





يوسف بجانب أبيه على فراش الموت

(تك ٤٧ : ٢٧ - ٣١)

هذا ما فعله يسوع، فهلا يستحق منك العبادة والخشوع
وهذا ما يفعله ، فهل نبقى بعد فى حال اليأس والخنوع
أسرع وتعال لكى نلجأ اليه ونطرح أثقالنا تحت قدميه
فاننا فيه نجد سدا لكل أعوازنا سواء فى الحياة
أو الموت ، فى الحزن أو الفرح المسيح هو النهاية لأنى
كان البداية والمسيح هو البداية لأن النهاية هى المسيح
(ميرز)

سكن يعقوب فى أرض جاسان ، وأخذ أبناؤه قطعانهم الى تلك المراعى الدسمة ، ووضعوا أساس الثروة العظيمة التى أصبحت من أكبر مميزات هذه الأمة « وأثمروا وكثروا جدا » (ع ٢٧) .

مضت سبعة عشر عاما دون أن يستجد شىء من الحوادث الجسام . ومهما اشتد الوهن والضعف بذلك الشيخ فان روحه بقيت منتعشة بمحبة يوسف ، ويفرح قلبه بسبب رفعة وعظمة ابنه . وواضح أن يوسف كان دعامة تلك الحياة التى كانت فى طريق الانحلال . ولذلك فليس يستدعى

الأب ابنه ، لا مرة ، ولا مرتين ، بل ثلاث مرات اليه ، وهو على فراش الموت . وستكون هذه الزيارات الثلاث موضوع تأملنا الآن قليلا .

الكتاب المقدس هو كتاب الحياة . وقد خصصت صفحاته للتحدث عن أعمال أبطاله أكثر من التحدث عن موتهم . فتاريخ حياتهم يشغل أسفارا كاملة ، أما موتهم فتكفيه آيات قليلة . ولذلك فكلما وجدت وصفا مفصلا عن موت أحد الأبطال كانت هناك بواعث خاصة تستدعي شدة التفاتنا . وهذا ما نراه هنا .

(١) زيارة يوسف الأولى :

« ولما قربت أيام اسرائيل أن يموت (١) (ع ٢٩) . نعم يجب أن يموت . وليست هناك امكانية فى التملص من دعوة الموت . حينما يمد يده على كتف أى امرىء فانه يتحتم أن يقوم ويتبعه . لقد زاد عمر يعقوب عن متوسط العمر فى العصر الحاضر بسنوات كثيرة ، ونجى من الموت نفسه مرارا ، ولكن هذا لم يكن ممكنا أن يكون الى الأبد . كان انحلال قواه يوما بعد يوم نذيرا له بأن ساعة الموت تقترب . نعم يجب أن يموت .

على أن موته قد فتح ثغرة فى السحب الكثيفة التى جعلت العالم العتيد مظلما أمام أبنائه وأبناء أبنائه ، فاستطاعوا من هذه الثغرة أن يروا قليلا من حقيقة وجمال ذلك العالم العتيد . ونستطيع أن نستنتج بعضا من الآراء التى جالت بخاطر يوسف حينما لبى دعوة أبيه ووقف بجانبه وهو على فراش الموت .

---

(١) أو « لما قربت الأيام التى يجب أن يموت فيها اسرائيل » حسب الترجمة الانكليزية .

تعلن لنا آية من أسمى أيات العهد الجديد أن المسيح « أبطل الموت وأنار الحياة والخلود بواسطة الانجيل » (٢ تى ١ : ١٠) . لكن يجب أن لا نظن بأن الانجيل قد كشف ما كان مجهولا تمام الجهل من قبل . فقبل مجيء ربنا على هذه الأرض ، بأجيال طويله حاملا مفاتيح القيامة والحياة ، كان رجال العهد القديم يعيشون على رجاء الحياة الأبدية . وما كان الانجيل الا مسلطا نورا أقوى على ما كان مختفيا جزئياً ، كما تنير الشمس كل معالم الأرض التى كانت غير واضحة كل الوضوح وقت الفجر . لقد أزاح المسيح عن النافذة ذلك الستار الذى كان نور الصباح يجاهد لكى يخترقه ليوقظ النائم .

ولسنا نجد صعوبة كبرى فى اقامة الدليل على هذا . فدانيال يتحدث فى صراحة تامه ووضوح لا لبس فيه عن قيامة عامة ، اما الى حياة أبدية ، أو الى العار للازدراء الأبدى (ص ١٢) .

وسفر الجامعة يختم بحثه بهذه الحقيقة الواضحة عن رجوع الروح الى الله الذى أعطاها ، وحقيقة الدينونه العامة (ص ١٢) .

ويبين أيوب فى سفره - الذى يسميه البعض أنشودة الخلود - أنه عرف على الأقل أن وليه حى والآخر على الأرض يقوم ، وأنه بعد أن يفنى جلده هذا وبدون جسده يرى الله (أى ١٩ : ٢٥ و٢٦) .

وأما سفر المزامير فاننا نرى فيه أدلة كثيرة تؤكد أن أتقياء اليهود تمسكوا بشدة بهذا الرجاء « لأنك لن تترك نفسى فى الهاوية ، لن تدع تقيك يرى فسادا . تعرفنى سبل الحياة » (مز ١٦ : ١٠ و١١) .

وهذا الايمان بحياة بعد القبر هو المفتاح الحقيقى لحياة البطاركة الثلاثة الأولين الذين رقدوا معا فى مغارة المكفيلة .

فلماذا تجولوا هنا وهناك فى أرض الموعد كغرباء فى أرض غريبة ؟ لماذا ارتضوا أن لا يكون لهم ميراث ولا وطأة قدم ؟ لماذا سكن ابراهيم مع اسحق ويعقوب فى خيام واهية سريعة الانحلال بدلا من السكن فى مدن كسدوم وعمورة ؟ وماذا كان يعنى ابراهيم عندما قال لبنى حث « أنا غريب ونزيل عندكم » (تك ٢٣ : ٤) . وماذا كان يجول بخاطر يعقوب عندما وصف حياته ، وهو ماثل أمام فرعون بأنها « غربة » ؟ فى الاصحاح الحادى عشر من الرسالة الى العبرانيين تجد واضحة فى قائمة أبطال الايمان . يقول الرسول فى هذا الاصحاح انهم « كانوا يطلبون وطنا أفضل » . وكان كل تفكيرهم محصورا فى هذا ، حتى انهم لم يقبلوا أى ميراث فى كنعان . ويدل رفضهم امتلاك أكثر من قبر فى أرض الموعد على أنهم كانوا يتطلعون بشوق وحنين الى تلك الأرض البعيدة .

لا شك فى أنهم فى بداية الأمر كانوا يعتقدون أن أرض كنعان هى أرض الموعد . لكنهم اذ انتظروها سنة بعد سنة ، وكانت لا تزال بعيدة عنهم ، تطلعوا ثانية الى عملية الهية ، فتعلموا أن هناك أعماقا فيها لم تخطر ببالهم قط . واذ كانوا لا يزالون يرقبون وينتظرون تبددت سحب الزمن فرأوا أرضا ترمز اليها الأرض التى تفيض لبنا وعسلا ، وبدل المدينة صنع أيدى الناس ظهرت لهم رؤيا مجيدة عن الجدران البلورية والأبواب اللؤلؤية للمدينة التى لها الأساسات التى صانعها وبارئها الله ، والتى أعدها للذين يحبونه . هذه كانت وطنهم . هذه كانت مدينتهم الحقيقية . وكان تغربهم دليلا وبرهانا على يقينية ايمانهم وصحته .

هذا الاعتقاد فى « مدينة الله » التى كتب عنها أوغسطينوس فيما بعد كتابه على ساحل افريقيا ، هو الذى دعم نفوس الكثيرين من القديسين ، وأنعش حياتهم ، وطمأنهم فى ساعة الموت ، وسلط نورا قويا عبر ظلمة

القبر . « فى الايمان مات هؤلاء أجمعون وهى لم ينالوا المواعيد بل من بعيد نظروها (كما يرى الفنار والأبنية المرتفعة من بعيد فتنبىء عن مدينة قادمة) وصدقوها وحيوها » كما يحيى الغريب وطنه اذ يبصره عن بعد . لابد أن يكون هؤلاء المتغربون المتعبون قد تطلعوا الى السماء بلهفة وحنين ورجاء أكيد . لهذا لاق بيعقوب على فراش الموت أن يقطع سلسلة نصائحه الوداعية ليقول « لخلاصك انتظرت يارب » (تك ٤٩ : ١٨) . وهذا ما أزال المرارة عن كأس موته .

لاحظ أن يعقوب لم يعتبر الحياة العتيدة مجرد حالة وجود خالية من كل الرفاق الذين يجعلون للحياة قيمة . والواقع انه يبدو أن اراءه فى هذه الناحية كانت أسلم من الكثيرين ممن يوجدون فى الكنائس المسيحية اليوم . لقد قال « أنا أنضم الى قومى » (تك ٤٩ : ٢٩) . يقينا أنه لم يقصد مجرد الدفن فى قبرهم ، لأنه يعبر عن هذه الفكرة فيما بعد بهذه الكلمات « ادفنونى فى المغارة التى فى حقل المكفيلة » . نعم انه قصد أن يقول ان المدينة التى سوف يذهب اليها هى مجتمع عشيرته ، مكان لقاء نفوس المختارين ، وطن كل الذين كانوا شعبه لأنهم كانوا شعب الله .

فى تلك المدينة تتجمع نفوس كل القديسين سنة بعد سنة ، وهم الآن فى انتظارنا . وعندما نغادر هذا العالم فاننا لا نذهب الى عالم بارد ، عديم العطف ، فى ظلمة القبر ، لاصوت فيه يحيينا ، أو ابتسامة ترحب بنا . بل سوف نذهب الى قومنا ، أولئك الذين أحببناهم ثم فقدناهم ، الذين ينتظرون وصولنا بفارغ الصبر ، ويستقبلوننا بترنيمة الظفر والتسبيح .

على أن يعقوب لم يستدع يوسف لمجرد اعلان هذه الحقيقة اليه . انما أراد الأب أن يربط الابن بوعد أكيد أن لا يدفنه فى أرض مصر ، بل

يحمله الى تلك المغارة التى كانت تبدو كمركز لطليعة الجيش فى أرض كنعان . ظل يعقوب فى أرض مصر سبعة عشر عاماً ، ألف فيها مناظر هياكل مصر الضخمة ، ومسلاتها وأهراماتها ، وكان محاطا بكل عوامل الراحة التى أمدته بها محبة يوسف البنوية . ولكن شيئا من كل هذه لم ينسه تلك المغارة السحيقة التى أمام ممرا فى أرض كنعان . كان فى اعتقاده أن دفنه فى أفخم هرم فى مصر لا يقارن بالمرة بدفنه فى ذلك القبر المتوضع الذى ضم بقايا ابراهيم وسارة ، اسحق ورفقة ، وليئة الأمينة ، فى انتظار يوم القيامة .

لم تكن الطبيعة البشرية وقتئذ تختلف عما هى عليه الآن . ان مقابر الأعزاء أماكن عزيزة علينا ، وأينما ذهبنا عادت قلوبنا اليها ، واتجهت أنظارنا اليها اتجاه عين البحار الى النجمة القطبية . لهذا فكم من أبطال ماتوا فى أرض غريبة وطلبوا أن يدفنوا لا فى المقابر الفخمة حيث يقيمون ، بل فى مقابر أوطانهم الوضيعة التى تحمل أسماء عائلاتهم . اذن فقد كان طبيعيا أن يطلب يعقوب بأن يدفن فى المكفيلة .

على أنه كان هناك ما هو أكثر من مجزد العواطف الطبيعية . كان يعقوب رجل الايمان . لقد عرف الوعد الذى وعد به الله ابراهيم أن تكون كنعان ملكا لنسله . كان هذا الوعد موضوع تفكير دائم لذلك الشيخ . كان يعرف أن كنعان – لا مصر – هى مكان اقامة شعبه الدائمة ، وأنهم لن يستقروا الى الأبد فى مصر مهما خصبت أرض جاسان ، أو حسنت معاملة أهلها . سوف يضرب البوق معلنا خروجهم يوما ما . فلو أنه دفن فى مصر لكان قد ترك غريبا بين الغرباء . كلا ، بل ان كان لابد لهم من الرحيل فليرحل قبلهم . وان كان لابد لهم من أن يستقروا فى أرض الموعد

فليسبقهم اليها وينتظرهم . وبالرغم من عدم استطاعته مشاركتهم فى أخطار وآلام وأمجاد الخروج الا أنه سوف يتلقاهم هناك عند الدخول الى ميراثهم فيما بعد .

« ان كنت قد وجدت نعمة فى عينيك فضع يدك تحت فخذى واصنع معى معروفا وأمانة . لا تدفنى فى مصر . بل اضطجع مع أبائى . فتحملنى من مصر وتدفننى فى مقبرتهم » (ع ٢٩ و٣٠) أى ابن يرفض هذا الطلب ؟ أيجرؤ أحدنا على رفض تمنيات أحبائنا الأخيرة ؟ كان يوسف أطيب وأرق من أن يتردد لحظة واحدة . « فقال أنا أفعل بحسب قولك » . على أن ذلك الشيخ لم يقنع بمجرد وعد . « فقال احلف لى فحلف له . فسجد اسرئيل على رأس السرير » . وهكذا انتهت زيارة يوسف الأولى لأبيه وهو على سرير الموت .

(٢) زيارة يوسف الثانية :

أتت الأنباء الى رئيس وزراء مصر بأن أباه مريض ، وأنه يريد رؤيته . فذهب اليه بلا ابطاء ، آخذا معه ابنيه منسى وافرايم (تك ٤٨ : ١) . ولا شك فى أنه ظن أن مرض أبيه هو نهاية مرحلة حياته ، ولعل نص الرسالة التى وصلته عن المرض كانت تؤيد هذا الظن .

ولما وصل الى منزل أبيه الذى كان قد وهبه له ، يبدو أن ذلك الشيخ كان راقدا فى سكون ، فى أقصى درجات الاعياء الجسدى ، وعيناه مغمضتان . كان أضعف من أن يميز هيئة الواقفين حوله . ولكن عندما « قيل له هوذا ابنك يوسف قادم اليك » (ع ٢) كان مجرد ذكر هذا لاسم المحبوب كافيا لأنعاش نفسه « فتشدد وجلس على السرير » .

واضح أنه لم يتطرق الضعف الى قوة ذاكرة ذلك الشيخ المتهدم عندما ذكر الماضى بكل ما فيه ، ومرة أخرى خيل اليه أنه راقد عند قدمى ذلك السلم الرمزى ، تصعد عليه الملائكة وتنزل ، ويقف الله القادر على كل شيء عند رأسه يتعهد بأن يجعله مثمرا ، ويعطيه ونسله أرض غربة آبائه ملكا أبديا (ع ٣ و٤) لم يستطع الزمن الطويل أن يمحو الأثر الذى تركته هذه الكلمات . وحتى لو كان قد عاش أطول مما عاش متوشالح لكان قد استمر يحس بنغماتها الموسيقية تزن فى قلبه .ألم يتممها الله بحذافيرها ، فلم يسقط منها حرف واحد ؟ وقد كان نسله واثقا من امتلاكه للارض كل الثقة ، حتى وان كانوا وقتئذ قد أبعدوا عن امتلاكها الفعلى .

واذ استعادت ذاكرته الماضى فانه أيضا لم ينس تاريخ العائلة الحديث . لم ينس أن يوسف كان له ابنان ، ثم أعلن عن رغبته فى أن يتبناهما . « والآن ابناك المولودان لك فى أرض مصر قبلما أتيت اليك الى مصر هما لى . افرايم ومنسى كرأوبين وشمعون يكونان لى » (ع ٥) . وبذلك أمكن أن يكون ليوسف نصيب مضاعف فى أرض كنعان ولو أن اسمه قد مسح من خريطة كنعان ، ولكن ولديه افرايم ومنسى كانا يمثلانه .

وبعد أن قال يعقوب هذا شرد فكره الى مسافات أبعد . لقد رأى ثانية ذلك المنظر فى الطريق الى بيت لحم ، قبيل أبواب تلك القرية الصغيرة ، حيث توقف عن المسير فجأة ، وتوقف الركب كله وبسبب موت راحيل المحبوبة . لم ينس قط تلك اللحظة المشئومة ، وارتسمت أمام عينيه مرة أخرى تلك البقعه التى دفنها فيها « فى طريق افراته » (ع ٧) .

وبعد أن عاد يعقوب من خياله الذى سبح فيه برهة كان أول منظر استوقف نظره وجود ابنى يوسف اللذين تملكهما الفزع والرعب ، واللذين كانا ينصتان باصغاء تام الى كل كلمة .

قال اسرائيل « من هذان » ؟ (ع ٨) .

فأسرع يوسف وأجاب « هما ابناى اللذان أعطانى الله ههنا » (ع ٩) .

فقال اسرائيل « قدمهما الى لأباركهما » .

« فقدمهما اليه ، ثم قبلهما واحتضنهما » . ومرة أخرى سبح يعقوب فى خياله ، فتذكر الأيام المريرة التى جرح فيها قلبه جرحا لا يقل عن جرحه بسبب وفاة راحيل ، والتفت الى يوسف وذكره بالسنين الطويلة التى كان يخيل اليه فيها انه لن يرى وجهه ثانية . أما الآن فان الله - الذى قد يسمح لأولاده بالانتظار ، ولكنه يجب أن يملأ حياتهم بالبركة - أراه نسله أيضا .

وبروح النبوة صلب يديه على الفتيين اللذين وقفا أمامه فى انتظار البركة ، فوضع يده اليمنى على رأس الصغير واليسرى على الكبير . وبهذا عكس الوضع ففضل الصغير على الكبير . وعبثا حاول يوسف أن يصحح هذا الوضع ، لأن أباه الشيخ كان يدرى تماما ما يفعل ، وأنه انما كان بذلك يتمم قصدا الهيا . « علمت يا ابنى علمت . هو أيضا يكون شعبا وهو أيضا يصير كبيرا . ولكن أخاه الصغير يكون أكبر منه . ونسله يكون جمهورا من الأمم » (ع ١٩) .

لم يكن هذا أمرا تحكميا أو استبداديا ، اذ لابد أنه كانت فى افرايم - وفى نسله من بعده - صفات جعلته بطبيعة الحال فى المقدمة . فى العهد القديم نجد أبواب الرجاء مفتوحة لأصغر الأبناء . كان يعقوب الابن الأصغر ، وهكذا كان موسى ، وجدعون وداود . ليس أمرا كثير الأهمية أن يولد المرء فى الحياة باسم ضخم أو ثروة عظيمة . بل الأولى أن يعتمد على يمينه وعلى بركة القدير . الله لا يأخذ بالوجوه ، وهو يرفع الأصغر

الى أرفع الصفوف ان رأى الصفات المؤهلة ، ويضع الأكبر الى أدنى الصفوف أن تجرد من الصفات النبيلة . وهكذا يصبح الأولون آخرين ، والاخرون أولين .

واذ وضع البطريرك يديه المصلبتين على رأسى الغلامين نطق بكلمات عذبة مليئة بالشكر والعرفان عن الملاك الذى خلصه من كل شر . كان اختيار الكلمات والتحدث عن الملاك بكيفية تشعر أنه انما يعنى الله الذى رعاه منذ وجوده ، كافيين للبرهان على أنه انما كان يتحدث عن يهوه الذى طالما أشير اليه بملاك فى العهد القديم ،والذى لا يمكن أن يكون الا الأقنوم الثانى من الثالوث المقدس ، الذى كانت لذاته دواما فى بنى البشر (أم ٨ : ٣١) ، والذى طالما ظهر فى هيئة ملاك قبل أن يتخذ صورة الانسان .

ونحن أيضا لنا ملاك حارس ، هو الرب يسوع المسيح . فان أردت الخلاص من كل شر ، سيما من شر الخطية ، أترك نفسك تحت حمايته . وأن كان قد بدأ عمله الفدائى قبل التجسد والموت والقيامة بأجيال طويلة فكم يكون استعداده لخلاصنا الآن وهو يجلس عن يمين الله ؟

تشجع يا من تقلق من أجل طعامك اليومى . اصغ لشهادة ذلك الرجل عند موته التى يقول فيها « الذى رعانى منذ وجودى الى هذا اليوم » . وان كان الرب قد رعاه مدة مائه وسبعة وأربعين عاما فلا شك فى أنه لن ينساك فى أيام حياتك الأقصر .

كان قد بقى أمر واحد يقوله قبل اختتام حديثه الخالد . منذ سنوات طويلة كان أولاده قد سببوا له بعض المشاكل مع سكان كنعان الأصليين ، فضطر - دفاعا عن نفسه - أن يحصل بالقوة على قطعة أرض

بسيفه وقوسه . والآن نراه يهب هذه الأرض لابنه المحبوب كنصيب اضافى (ع ٢٢) .

ليت جميع الشبان الذين يقرأون هذه الكلمات يتصرفون مع والديهم تصرفا لا يقض مضاجعهم ، بل يكونون موضوع فخرهم فى حياتهم ، وعزائهم عند وفاتهم . وبذلك ينالون بركة آبائهم وهم على فراش موتهم ، ولا تكون لهم فرصة للأسف والندم . ان بركة الآباء وقت الموت أثمن من الذهب ومن كل متاع .

(٣) زيارة يوسف الثالثة والأخيرة :

مرة أخرى زار يوسف تلك الغرفة التى مات فيها أبوه . كانت هذه هى الزيارة الثالثة والأخيرة . ولكنه فى هذه المرة وقف كواحد من اثنى عشر رجلا اجتمعوا حول أبيهم فى ساعاته الأخيرة ، وقد علت وجهه صفرة الموت ، واستضاءت روحه بنور النبوة . يا لعمق ذلك الفزع الذى استولى على نفوسهم عندما سمع كل واحد اسمه من بين شفتى أبيهم المرتعشتين ، وكان الصوت تارة يتوقف للنفس ، وتارة يتكلم بصعوبة شديدة . لخصت صفات كل منهم بروح النبوه ، واستعيدت بوضوح ذكريات أبرز النقط فى تاريخ الجميع ، كما تضمنت بعض نبوات عن مستقبلهم .

يرمز هذا المنظر لكرسى الدينونة ، حيث يسمع البشر تاريخ حياتهم ، كما يسمعون الحكم الذى لا راد له .

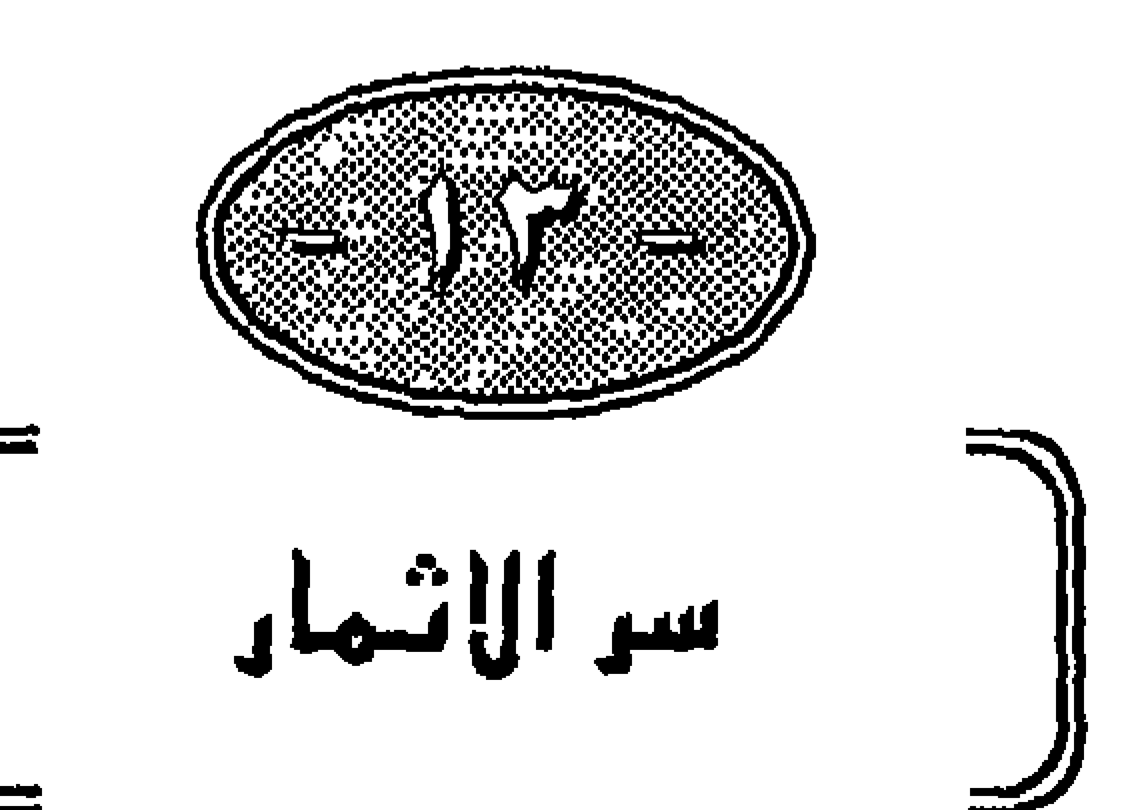
وعندما جاء دور الحديث عن مصير الابن العزيز تكلم البطريرك بعذوبة خاصة . فاضت كلماته رقة وبلاغة وحلاوة دلت على أن أعماق قلبه قد تحركت كلها . كانت هذه هى ختام موسيقاه الشجية ، وختام روح النبوة .

وهذه تعطينا فكرة عن عمق نفسه ، عن أفكاره الخفية ، عن الأثمار والصبر والقوة والبركة التى خلقتها فى داخله سلسلة الآلام والنكبات ، اذ كانت السنوات تمر ببطء .

وبعد كلمات أخرى قليلة لبنيامين ضم البطريرك الوقور رجليه الى السرير ، وأسلم الروح بهدوء ، وانضم الى قومه . أما تلك الروح التى تمررت كثيرا فقد انتقلت الى مناظر أخرى ، الى شركة أسمى ، خدمة أجل ، لا نهائية ، لأن الله ، فيما بعد ، شهد لوجوده الخالد ونشاطه المستمر ، حينما دعا نفسه بأنه « اله يعقوب » ، فانه ليس اله أموات بل اله أحياء .

« ووقع يوسف على وجه أبيه وبكى عليه وقبله » (تك ٥٠ : ١) . وأمر الأطباء بتحنيط جسده ، كأنما أراد أن ينكر على الموت انتصاره الذى حازه الآن مباشرة .

✣ ✣ ✣



سر الاثمار

(تك ٤٩ : ٢٢ (١))

هل تدعو الحاجة لشرح درس الحياة
أو اضافة كلمات أخرى لنص هذه الآية : -
تسكب الكرمة خمرا من كل نبع حى ينقص
منها شىء لأجل هذه الروح التى تسكبها ؟
تقاس الحياة بمقدار الخسارة لا الربح
بالخمر التى تسكبها لا بالاخمر التى تشربها
فقوة المحبة تتضمن فى تضحية المحبة
ومن يتألم كثيرا يعطى كثيرا .

(مسز هاملتون كنج)

« غصن شجرة مثمرة على عين » . كثيرا ما اكتحلت عينا هذا الشيخ المتهدم بمنظر واحة فى صحراء يحييه وسط رمال البادية . ظل الركب يسير ساعات طويلة ، وقد جفت ألسنتهم من شدة العطش ، وكادت تخور غزائم البهائم الصبورة ، والنساء والأطفال . واذا بمنظر جميل يزيح عنهم

(١) « يوسف غصن شجرة مثمرة . غصن شجرة مثمرة على عين . أغصان قد ارتفعت وفوق حائط » .

كابوس الملل وسط الصحراء . مدت الكرمة أغصانها المثمرة فوق بعض الحجارة ونشطت كل الأغصان سريعة النمو متيقنة أن تحت الجذور ينبوع ماء عذب .

خليق بنا أن نذهب لأحد الكروم ، ونتحدث مع كرام خبير عن نمو الكرمة ، الأمر الذى ألف منظره ربنا المبارك منذ الطفولة ، وقاده الى اختيار الكرمة كرمز للعلاقة بينه وبين المؤمنين . قال الرب « أنا الكرمة الحقيقية » ، أنا الكرمة الرئيسية التى ترمز اليها كل أشجار الكروم . كان ممكنا له اختيار القمح ، أو شجرة الزيتون ، أو شجرة البرية ، ولكنه اختار الكرمة التى تمد أغصانا لا حصر لها تتسلق بها وتتشبث .

فى نموها ليست حرة لتصل الى السماء
فهى مقيدة فى ساقها
واذا ما امتدت أذرعها
فهى أيضا مقيدة
وهكذا تستمد غذاء الحياة من سفح الجبل الحجرى
وهى ثابتة فى مكانها

تقدم الى الكرمة فى أواخر الخريف بعد أن تكون كنوزها قد انتزعت منها . انك لتراها جرداء ، بينما ترى الأرض نضرة مزدهرة . فعصارتها تنزل الى جذورها ، وأغصانها تشذب ، ونفس القشرة الخارجية تنتزع ، فتتعرض الى قسوة الصقيع . ولا يوجد أى مظهر للجفاف فى دائر النبات مثل الموت الذى يسود الكرمة فى أيام الشتاء الطويلة . وحينما نقارن مجد الربيع بمثل هذا الجفاف نتذكر كلمات الرب التى قال فيها « ان لم تقع حبة الحنطة فى الأرض وتمت فهى تبقى وحدها ، ولكن ان

ماتت تأتى بثمر كثير » (يو ١٢ : ٢٤) ، كما نتذكر كيف علق على الصليب فى ساعة الظلمة الحالكة الكئيبة ، ساعة الشتاء الذى لم تر الأرض له نظيرا .

ولكن عندما يأتى الربيع بدفئه تعود العصارة الى الظهور مرة أخرى ، فتدفع الأغصان الى اليمين والى اليسار بارزة من الساق الذى ظل عريانا طويلا ، وللحال تظهر الأزهار ، ثم طلائع الثمار .

ان أزهار الكرمة ليست الا شيئا زهيدا
فهى أصغر جزء فى كيانها
وبالجهد تستطيع أن ترى لها أزهارا
أما الثمار فتكاد تبدأ قبل أن تخلق الأزهار

ضرورة ضوء الشمس . بدونه لا تحمل الكرمة الا أوراقا بكثرة ، ولكن لا شيء سوى الأوراق .

لا يكفى أن نتصل بيسوع بالايمان ، بل يجب أن تكون لنا شركة معه ، مستضيئين بضوء شمسه ، متحدثين معه ، وخاضعين لرفقته . بهذا فقط يكون لنا الأمل أن نحمل شيئا أكثر من الأوراق ، أكثر من مجرد المظاهر الخارجية .

ومع أن الكرمة تحتاج الى ضوء الشمس فانها تحتاج أيضا الى الظلام . يقال انها تستريح في الليل ، ولا تنمو ، بل تسترد قوتها وتستعد لاظهار نشاط جديد . فى النهار تستهلك عصارة أكثر مما تستمده من الجذرو ، وفى ساعات ظلمة الليل تكدس العصارة التى تتغذى بها .

وهذا قد يفسر كيف أن الكرام الاعظم في بعض الاحيان يغلق النوافذ ، ويسمح لنا باجتياز ظلمة ليل الأحزان والآلام بعد فترات المجهود الشاق والنشاط العنيف ، اننا كثيرا ما نسرف فى مواردنا . وعندئذ

نحتاج الى الوقت الذى نسترد فيه قوتنا ، ونكدس المؤونة اللازمة للأيام القادمة .

ويتوقف اثمار الكرمة - الى حد كبير - على مقدار العناية بتنقيتها . لا توجد شجرة أخرى كالكرمة تنقى بقوة ، بسكين حادة أولا ثم بالمقص .

للرب آلات كثيرة للتنقية . هناك سكين كلمته الذهبية المنقية ، التى بها ينقينا ان سمحنا له (يو ١٥ : ٣ (١)) ، متحاشيا سكين التأديب والآلام الحديدية القاسية . والرب يستعمل السكين الحادة التى تتعمق فى قطع طبيعتنا ، وتترك آثارا للجروح ، قد يستغرق شفاؤها بضع سنوات .

وفى يده أيضا المقص ، أى الحوادث المتعارضة (كحدى المقص) والظروف اليومية التى تبدو متعارضة بعضها مع بعض ، ولكنها بالرغم من ذلك تعمل معنا للخير فى النهاية .

وعملية التنقيه واسعة المدى ، حتى أن الأغصان التى تقطع أكثر من التى تبقى . أما الأغصان التى تقطع وتتكد س فوق الأرض فانها لا تصلح لشيء الا للنار . تستعمل الأغصان التى تقطع من أشجار التفاح والكمثرى لأغراض مختلفة ، كتدعيم الغروس الرخصة ، بعكس أغصان الكرمة . هكذا يوجد بيننا الكثيرون من مدعى المسيحية الذين ليس لهم نصيب ولا قرعة معنا (أع ٧ : ٢١) ، والذين يجب استئصالهم . كذلك يوجد فينا كلنا أشياء كثيرة يجب استئصالها .

---

(١) « أنتم الآن أنقياء لسبب الكلام الذى كلمتكم به »

وأى عزاء يملأ قلوبنا عندما نعلم أن الكرام لا يترك عملية التنقية للأيدى الغشيمة . فان السكين لا تمسكها الا أمهر وأقدر الأيادى . « أبى هو الكرام » .

والقاعدة المتبعة هى أن لا يسمح لأى غصن بأن يحمل أكثر من عنقود عنب واحد . أما باقى العناقيد فانها تقطع . ويقولون ان وزن العنقود الواحد ونوعه فى هذه الحالة أثقل وأفضل من وزن العنقودين أو الثلاثة معا ان بقيت . لذلك فانه بلا شفقة يقطع عنقودا بعد عنقود وهى لا تزال فى دور تكوينها .

هكذا يسمح لنا الرب فى بعض الأحيان أن يقطع عنا طريقا بعد طريق فى خدمتنا المسيحية ، ليس لأنه يريد أن ينقص من ثمارنا ، بل لكى لا تتبعثر قوة حياتنا ، وبالتالى لكى تتجه فى مجرى واحد الى اثمار أفضل وأكثر .

كم من أشخاص يقرأون هذه الكلمات الآن ممن هم تحت التنقية . قد يميلون الى القول بأن الرب عاملهم بمنتهى القسوة . ربما يكون الزوج والابنان ماتوا ودفنوا فى أرض سحيقة . وعض الفقر بنابه على من بقى فى البيت المحطم ، الذى لم يبق فيه سوى فرد واحد ، بعد أن كان ينعم بأسرة تظللها السعادة . مع ذلك فمن هذه المرائر تخرج بركة جزيلة جدا ، يخرج طفل تحتضنه جدته الكسيرة القلب ، فيصبح ذلك الطفل جدا لداود مرنم اسرائيل الحلو ، والملك العظيم ، ويصير الطفل خيرا من سبعة بنين ، ويعيد البهجة لذلك القلب الجريح (راعوث ٤ : ١٥) . « كل تأديب فى الحاضر لا يرى أنه للفرح بل للحزن ، وأما أخيرا فيعطى الذين يتدربون به ثمر بر للسلام » (عب ١٢ : ١١) .

ومن الضرورى جدا أن الغصن الذى ينقى يثبت فى الكرمة بصفة مستمرة . « أثبتوا فيه » (١ يو ٢ : ٢٨) . اعطى هذا الأمر أولا « للأولاد » (الصغار) . هذا كتب الرسول المحبوب ، الذى خط الشيب رأسه ، للاحداث والآباء ، مدفوعا بعلاقته الرقيقة معهم كأبيهم فى انجيل يسوع . وما أشد حاجتنا لنكون كالأولاد الصغار ، قبل أن نتعلم هذا الدرس الجميل عن الثبات فيه .

ان الولد الصغير كل البعد عن الثقة بالنفس . هو يخشى كل شىء لم يجربه ، وكل شىء لا يعرفه . يحاول أن يكون دواما برفقة الأم أو الصديق ، ويجب أن يسير وراء شخص آخر . أنى لنا بروح الأولاد ، وبساطتهم ، وثقتهم وايمانهم غير المحدود ، وبراءتهم الجميلة .

قد يقرأ هذه الكلمات الكثيرون من الرجال الأقوياء الذين يفخرون بقوتهم . ولكنهم يجب أن يرجعوا ويصيروا مثل الأولاد ان أرادوا أن يتعلموا سر الثبات فيه . عندما نفرغ ذواتنا من قوتنا وثقتنا بأنفسنا ، وتنسحق نفوسنا تحت الآلام ، نكون مستعدين لاطاعة تلك النصيحة المباركة ، التى هى صدى لأمر السيد نفسه « اثبتوا فى » .

قيل عن نعمان السريانى القائد الحربى العظيم بعد شفائه ان لحمه رجع كلحم صبى صغير (٢ مل ٥ : ١٤) . كان هذا مزيجا بديعا . فقد امتزج جسم رجل الحرب الضخم بلحم الصبى الغض الجميل . وهذه الصفات يجب أن تمتزج فى كل واحد منا : القوة والبساطة ، الرجولة ، كداود بطل اسرائيل ، الذى لم يرتفع قلبه ، ولا سلك فى العظائم ، بل كان كطفل فطم من أمه (مز ١٣١) . أمثال هؤلاء يدعوهم الآب أطفاله ،

يطعمهم بلبن الكلمة النقى (١ كو ٣ : ١ و٢) ، يعلمهم أسرارا خفيت عن الحكماء والفهماء (لو ١٠ : ٢١) ويدربهم على فن الثبات فيه .

والثبات فى المسيح دفعة واحدة ليس بالأمر الهين . هو عمل السنين ، ونتيجة السهر المستمر وتدريب النفس ، وثمار عمل الروح القدس فى الحياة الداخلية . ليس من السهل فى بداية الأمر أن تلزم « النبات المتسلق » ليلف نفسه فى الاتجاه الذى تريده ، بل لابد من استعمال الخيط والمطرقة والسكين ، وبمرور الوقت يتخذ الطريق الذى ترسمه له ، وتعلق النفس بالمسيح يأتى نتيجة تدريب النفس المستمر تحت ارشاد روح الله .

والروح القدس يعلمنا الثبات فيه . « المسحة اخذ تموها منه ثابتة فيكم » (١ يو ٢: ٢٧) و« والمسحة » تستعمل دواما كرمز نعمة الروح القدس . « كما علمتكم (المسحة) تثبتون فيه » هذا الفن المبارك (الثبات فيه) يعلمه الروح القدس لمن يري أن يتعلم . فلا تترك غرفتك فى الصباح قبل رفع قلبك اليه قائلا : علمنى أيها الروح المبارك أن أثبت اليوم فى المسيح ، احفظنى ثابتا فى شركته . وحتى عندما أكون غير مفكر فيه مباشرة احفظنى ثابتا فيه . ثق بأنه يفعل هذا ، واذا ما شعرت بأى تزحزح فارفع قلبك وقل : أيها الرب ، يامن أنت حياة البشر ونورهم ، زدنى امتلاء من روحك القدوس ، لكى أزداد ثباتا فيك .

والثبات فى المسيح لا يعنى أنك يجب أن تفكر دواما فى المسيح . حينما تكون فى بيت ، ثابتا فى دائرته ، مقيما تحت سقفه ، فهذا لا يعنى أنك دواما فى البيت نفسه . ولكنك تعرف دواما متى تتركه .

قد لا يكون المرء دائم التفكير فى أسرته وبالرغم من ذلك فانه يكون ثابتا فى محبتها . وهى كذلك ثابتة فى محبته . وعندما تبدأ محبة أى فرد فيها تفتر من جهته مهددة بالانقطاع فانه يعرف ذلك فى الحال . كذلك نحن قد لا نحس دواما برفقة المسيح لنا . قد نكون مشغلين بواجباتنا الضرورية ، ولكن حالما تنحرف النفس تحس بأنه كان واقفا بجوارها كل الوقت ، وفى لمح البصر تدرك الحقيقة المرة ، فتردد صرخة المرنم « قريب أنت يارب » (مز ١١٩ : ١٥١) . فليتنا نحيا الحياة المباركة تحت التفكير فى رفقته الدائمة لنا ، كما يعيش سكان أودية جبال الالب تحت عظمة أحد الجبال المغطاة بالثلوج .

والثبات فى المسيح يعنى حياة المناجاة معه . يعنى الثبات فيه أن نخبره بكل شىء ، أن نتحدث معه عن همومنا وكل ظروفنا ، أن نتحدث معه بصراحة كما نتحدث مع صديق مخلص يهمه أمرنا ، أن نطلب مشورته أو نصيحته ، أن نعبر له عن محبتنا ، أن نعتمد على موارده ، كما يعتمد الغصن على عصارة وحياة الكرمة ، أن نكتفى بأن نكون مجرد أوان طالما كانت قوته ونعمته تفيضان من هذه الأوانى ، أن نكون مجرد قاع النهر المختفى تحت المياه المتدفقه الى البحر . هذا هو معنى الثبات فى المسيح . هذا ما عناه داود حين قال : « واحدة سألت من الرب واياها التمس . أن أسكن فى بيت الرب كل أيام حياتى . لكى أنظر الى جمال الرب وأتفرس فى هيكله » (مز ٢٧ : ٤) .

وعندما يضمن هذا الثبات فان الجذور تمد الغصون بالقوة اللازمة للاثمار . يبدو لى كأنى أسمع الأغصان تشكو قائلة انه من

المستحيل عليها أن تحمل بالعناقيد . وكان لسان حالها يقول : ان كنتـ تنتظرون الثمار منا فأنتم تطلبون المستحيلات لأننا لا نستطيع تقديمها . ولكننا لا نتوقع منها تقديم الثمار ، فان عليها فقط أن تصمت ، وتدع الجذور تسكب فيها عصارتها . وعندئذ يتبين بالاختبار أنه غير مطلوب منها أى نوع من الجهاد أو المجهود أو الالزام ، لأن عَصِير النبات يظهر فيها من تلقاء ذاته وبكيفية طبيعية سهلة ، فتتورم العناقيد ممتلئة عصيرا . والصعوبة ليست فى الاثمار بل فى عدم الأثمار . وهناك فرق شاسع بين الثمار والأعمال ، بين ثمار الروح وأعمال الجسد .

فليت المسيحيين يتعلمون أن هناك خطرا شديدا فى التركيز على جهودهم الشخصية فى حياتهم المسيحية ، فان قوتهم الحقيقية هى فى أن يصمتوا ، ويدعوا يسوع يسكب من السماء نعمته وقوته وبركته على العالم عن طريقهم .

هذا هو العلاج الحقيقى لليأس من جهة ، وللكبرياء من الجهة الأخرى . لليأس لأنه مهما كان ضعفنا فهو لا يمكن ان يحول دون سكب قوة المسيح . والواقع ان الضعف هو الشرط الوحيد لاظهار قوته ، لأن الله عندما يعطى الثمر الكثير عن طريق أضعف الضعفاء فحينئذ يكون فضل القوة له . وهذا علاج للكبرياء ، لأنه واضح أن الغصن لا يمكن أن يفتخر بأنه هو خلق الثمار طالما كان هو الواسطة التى ظهرت عن طريقها هذه الثمار .

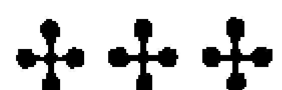
وحياة الكرمة . بكليتها ، بأغصانها المثمرة ، انما هى مثل لانكار الـذات . ان القصد الوحيد من وجودها هو أن تثمر ، أن تفرح الله والناس . هذا أفضل حتى من تملكها على الأشجار (قض ٩ : ١٣) .

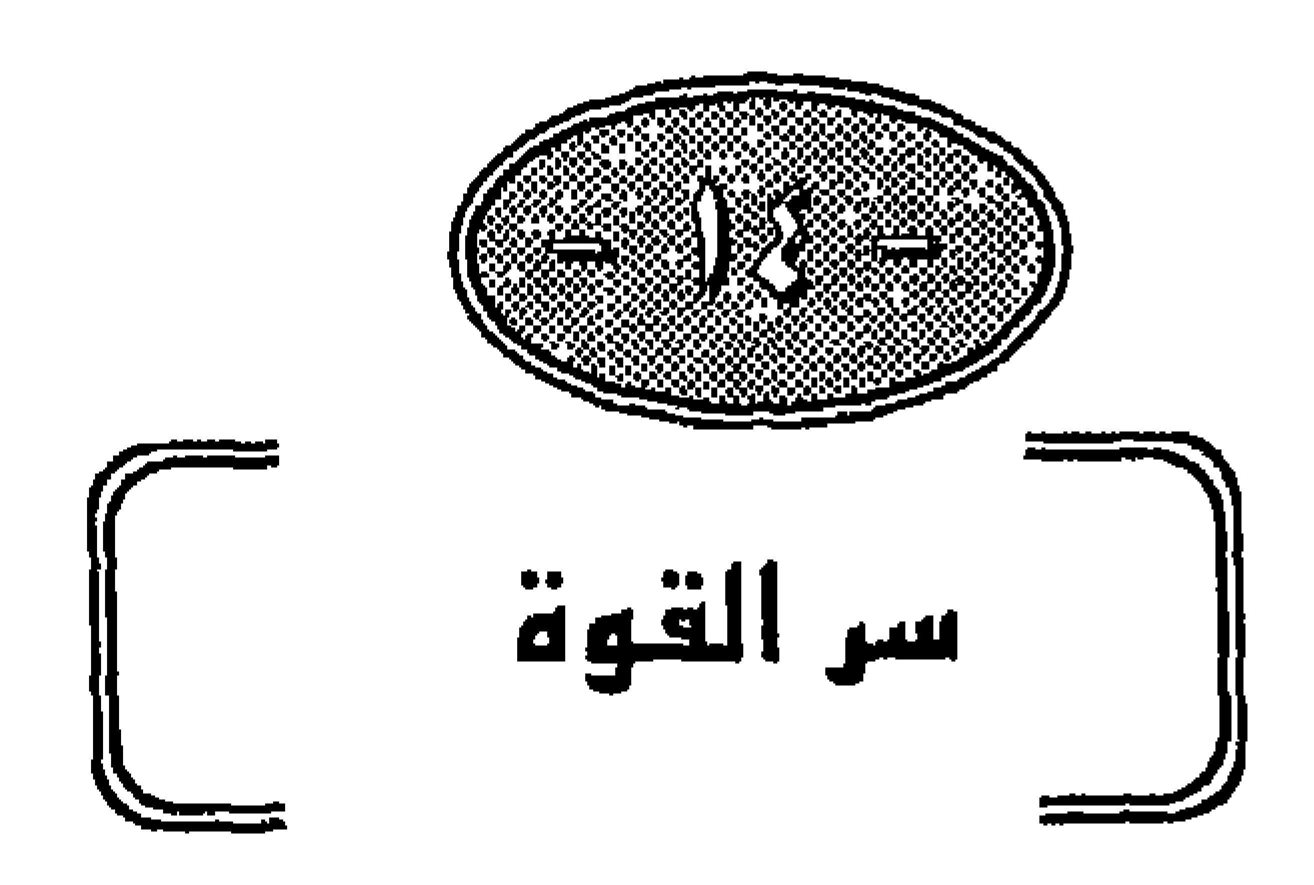
والأمنية التى تملأ قلب يسوع ، وقلوبنا نحن أيضا ، ان كنا قد امتلأنا من روحه ، هى أن نثمر لمجد الآب ، ببركة وخلاص البشر كل ما يبتغيه ربنا هو أن يعلن للبشر جمال طبيعة الله ، وهو ينقل هذه البغية الى تلاميذه الحقيقيين (يو ١٥ : ٨) .

واضح اذن أننا لكى نصل الى هذا الغرض ينبغى أن نتخلى عن ملذاتنا وخططنا ومصالحنا الشخصية . قال أحدهم : ان كان الله يستطيع اعطاءنا أفضل وأعظم عطية نتوق اليها فوق كل عطية أخرى ، فهذه هى أن يعطينا ذلك الامتياز بأن نبذل حياتنا من أجل خير الآخرين .

ولكن ما أقل الذين وصلوا الى هذه الروح . فنحن نخاف على أنفسنا ، ونسيج حولنا بسياج منيع لكى لا يصل الينا أى أذى ، لا نطلب المزيد من القوة الالهية ، ونعطى الآخرين فضالتنا ، وهكذا نخسر سعادة الحياة وقوتها .

أما أن تعلمنا كيف ننكر ذواتنا كل يوم ، بل كل ساعة . ذاكرين على الدوام ما يرى يسوع أن يفعله فينا وبنا ، وما يؤدى الى خير ألوف البشر المتعبين ، عندئذ يكمل فرحنا ، وتسمو حياتنا ، وتعظم اختباراتنا ، وتكثر ثمارنا .





(تك ٤٩ : ٢٤ (١))

ان ايمانى ليتطلع الى تلك اللمسة الالهية
التى تنتزع منى كل ثقة بالنفس الزرية
وتجعلنى متكلا بكليتى على نعمتك الالهية
نعم اجعلنى شخصا يمكنك أن تباركه
وتخلقه من جديد صالحا لخدمتك
رغم ضعفى الشديد فنجاح الخدمة
منك وحدك أيها الرب المجيد .

(لوسى بنيت)

لما اشتدت الحرب على جبل جلبوع - الذى تمنى داود أن لا ينزل عليه طل ، اظهارا لفزعه من المأساة التى تمت على سفحه - قيل « واشتدت الحرب على شاول فأصابه الرماة رجال القسى . فأنجرح جدا من الرماة » (١ صم ٣١ : ٣) . وفى هذه الكلمات تجد نورا يسطع على كلمات يعقوب وقت احتضاره ، التى أشار فيها الى القسوة والأحقاد والعداوة

(١) « ولكن ثبتت بمتانة قوسه (أى قوس يوسف) وتشددت سواعد يديه . من يدى عزيز يعقوب . من هناك من الراعى صخر اسرائيل » .

التى تعقبت يوسف حبيبه منذ الطفولة . استمع اليه وهو يقول فى الآية السابقة لأية موضوعنا (ع ٢٣) « فمررته ورمته واضطهدته أرباب السهام » أو « الرماة » حسب بعض الترجمات » . ويكاد المرء يرى وجوه هؤلاء الأعداء الألداء ، الذين امتلأت قلوبهم حقداً وقسوة ، وقد شد كل منهم قوسه ، فتعقبوا فريستهم محاولين افتراسها .

أليس عجيبا اذن هذه الكلمات « ولكن ثبتت بمتانة قوسه » ؟ هذا أحد الأقوال التي يناقض ظاهرها حقيقتها ، والتى نرى لها أمثلة كثيرة فى الكتاب المقدس . وهاك بعضها : العرج نهبوا نهبا » (اش ٣٣ : ٢٣) .

« حينما أنا ضعيف فحينئذ أنا قوى » (٢ كو ١٢ : ١٠) .

« اختار الله ضعفاء العالم ليخزى الأقوياء » (١ كو ١ : ٢٧) .

هذه عينات من أقوال أخرى كثيرة نرى فيها ضعف البشر الطبيعى كافيا لصد هجمات العدو وتحطيمه ، فيعظم انتصارهم .

ألم نتبين صحة هذا أيضا فى اختباراتنا الشخصيه ؟ فنحن أيضا ضعفاء جداً ، يضغط علينا العدو بشدة ، ويكاد يتملكنا اليأس فى بعض الأحيان . ومع ذلك فقد بقينا الى الآن ، بل استطعنا أن نحتفظ ببعض القوة ، فلم يتغلب علينا العدو . وفى اللحظة التى كاد يدحرنا اضطر الى الارتداد فجاة ، وتبعثرت قواته كأنما بنسمة من الله غير منظورة ومقتدرة . واحد طارد ألفا ، واثنان هزما ربوة (تث ٣٢ : ٣٠) .

أما السر فليس خفيا . انه يتبين بكل وضوح فى الكلمات التالية التى تبين أنه قد :

تشددت سواعد يديه

من يدى عزيز يعقوب

هذه صورة جميلة . هناك يقف الطفل الضعيف ، ساعداه الضعيفان لا عضل فيهما يكفى ليمسك القوس الذى لا يعرف كيف يستعمله . وواضح أنه لا قوة له ولا مقدرة .

لكن انظر الان : لقد وضعت على ساعديه الضعيفين يدان أخريان مقتدرتان ، يدان بسطتا السماوات ، وتحفظان فى كفيهما أعماق البحر (اش ٤٠ : ١٢ ، ٥١ : ١٠) وضعت احداهما حيث تمسك اليد اليسرى بالقوس ، والأخرى حيث تشد اليمنى الوتر . اذن أصبح من الميسور جداً أن تستعمل هاتان اليدان النحيفتان القوس ، فقد أصبح شيئا تافها . وبدون أى مجهود منظور يصل السهم الى الهدف ، أليس هذا ما قصده داود حينما ترنم فيما بعد بهذه الكلمات :

« يعلم يدى القتال
فتحنى بذراعى
قوس من نحاس
(مز ١٨ : ٣٤)

هنالك حادثة أخرى فى العهد القديم تقدم الينا تفسيرا واضحا وقويا لهذه الكلمات العجيبة . كان اليشع قد دنت نهاية حياته ، وكانت حياته مجيدة . وكان قد صنع خلاصا عجيبا لبلاده . فلا غرابة اذن ان وجدنا ملك اسرائيل يأتى اليه ليطلب منه كلمة مطمئنة فى تلك الساعة الحرجة التى حلت فيها بالبلاد وبالملك ضيقة شديدة جدا . كانت اجابة اليشع - وهو يحتضر - عجيبة . بدا كأن ثوب النبى يستتر وراءه قلب قائد حربى مغوار ، وأن شهوة القيادة تملكت النبى حتى فى موته .

قال النبى للملك « خذ قوسا وسهاما .. فأخذ لنفسه قوسا وسهاما .. ثم قال للملك اسرائيل ركب يدك على القوس . فركب يده . ثم وضع اليشع يده على يدى الملك ، ورمى الاثنان سهم خلاص للرب من الكوة المفتوحة لجهة الشرق حيث كان الأراميون شرق الأردن (٢ مل ١٣ : ١٤ - ١٨) .

لعلنا كلنا نجد فى هذه الحادثة الجميلة تفسيرا أوضح لكلمات يعقوب لو أن يدى النبى المحتضر وضعتا تحت يدى الملك القويتين . وعلى ذلك فان النقطة الرئيسية هى أن نلاحظ اتحاد أيدى الملك والنبى ، وأن نرى كيف يستطيع الضعف اتمام الأعمال الجبارة ، حينما يسمح بأن تستخدمه وترشده يدا الرجل القوى .

يحدثنا الرسول - الذى كان أكثر الرسل تشبها بالمسيح ، وأكثر من أحبهم المسيح - عن أحد الأسرار حينما يقول « وأما شركتنا نحن فهى مع ابنه يسوع المسيح » (١ يو ١ : ٣) . وكلمة « شركة » تعنى « الاشتراك » أو « المشاركة » التى يعقدها المؤمن مع القدير . يالجمال وعظمة هذه المشاركة . ان كنا نحن - أحد الطرفين - عاجزين ، فالطرف الآخر مقتدر . ضعفنا تدعمه قوته . وعجزنا يمتزج بقدرته السرمدية اللانهائية . هنا نجد موازنة عجيبة ، فكلما ازداد ضعفنا وعجزنا ازداد المجال لسكب القوة التى لا تقوى عليها أية قوة فى الوجود .

تخبرنا اسطورة قديمة أن أوليسس Ulysses ، اذ عاد الى وطنه بعد غيبة طويلة ، أثبت شخصيته باحنائه قوسا عجز عن احنائه فى غيبته أقوى الأبطال .

هنالك أقواس كثيرة كهذه حولنا تتحدانا . مهام تهزا بمجهوداتنا الهزيلة ، كنائس فارغة لا تمتلىء ، أقرباء أو معارف أشرار لا يريدون أن يخضعوا ، تربة صلبة تأبى السماح للمحرات بحرثها .

والأمر الوحيد الذى يجب التأكد منه هو أن نعرف ان كانت ارادة الله تسمح لنا بمعالجة هذه الأقواس . ان كانت لا تسمح فمن العبث محاولة بذل أى مجهود ، والأحرى بنا توفير قوتنا . ولكن ان اتضح لنا اننا يجب أن نتسلح بأسلحة الدفاع والهجوم (التى سبق أن استعملتها أيدى بعض الابطال ، أما الان فانها تبدو فى نظر العصر الحاضر المسكين ضعيفة هزيلة) وجب علينا أن لا نتردد لحظة واحدة . عندئذ نحس بالقوة تعمل فينا ، لا قوتنا نحن بل قوته هو : « تشددت سواعد يديه من يدى عزيز يعقوب » (تك ٤٩ : ٢٤) .

والشرط اللازم للحصول على هذه القوةهو الشعور بضعفنا الكامل . عندما نعتقد بأننا أقوياء فان الله لا يقدم لنا معونته . فثقتنا بأنفسنا تعيقه عن أن يعمل فينا . نحن فى حاجة للذهاب الى عين ماء جدعون لكى نخفض من قوتنا الى أقل درجة ممكنة . ونمتلىء من قوة الله الى أكبر درجة ممكنة (قض ٧ : ١ - ٨) . هذا هو الذى جعل بولس يفتخر بضعفاته (٢ كو ١٢ : ٩) . فى حين أن الكثيرين يظنون أن هذه الضعفات تعيقهم عن الخدمة ، لقد حسبها هو مبررا قويا لانتظار النجاح . لو كنت قد أخبرته بأن كلماته سقيمة ، أو أن مظهره ليس جذابا ، أو أن شوكته جعلته كسيحا فى جيش المسيح ، لكان قد أجابك قائلا : اننى أسر بهذه كلها ، بل افتخر بها . مرحبا بكل العوامل التى تعمل على اذلال النفس ، الاعتماد الكلى على قوة المسيح المقتدرة .

فلا تظن فيما بعد أنك عاجز عن أن تحنى قوس الصعوبات الملقى تحت قدميك . أنت لا تستطيع ذلك وحدك ، ولكنك بالمشاركة مع الله تستطيع . فقط لا تحاول بأن تشعر أنك قادر على ذلك قبل ان ترفع القوس . فانك لن تشعر بأن فيك القوة الكافية . ولكن عندما تمسك ذلك

القوس بيدك ، تحاول أن تحنيه ، تدرك أنه كما يكون يومك هكذا تكون قوتك (١) . لما بدأ المقعد يقف نال القوة على الوقوف . اعمل كأن لديك قوة لا تقهر ، وعندئذ تتبين أنها تعمل معك ، وتعمل فيك ، لاتمام المقاصد التى ما كنت تحلم بها .

قال الرب « دفع الى كل سلطان فى السماء وعلى الأرض . فاذهبوا وتلمذوا الأمم » (مت ٢٨ : ١٨ و١٩) . وأضاف انجيلى آخر لهذه الكلمات عبارة أخرى جميلة تتفق وروحها « وأما هم فخرجوا وكرزوا فى كل مكان . والرب يعمل معهم ويثبت الكلام بالايات التابعة » (مر ١٦ : ٢٠) . لم يكن هذا ظرفا استثنائيا ، وانما هو الوضع الطبيعى لكل الذين سلموا أنفسهم للقدير لكى يعمل فى حياتهم .

تستطيع الأسلاك نقل القوة الكهربائية المتولدة من شلالات نياجرا بنفس السهولة التى بها تنقل القوة المتولدة من مولد بسيط ، وذلك لانارة مدينة بعيدة أو لادارة آلات ميكانيكية جبارة . ونحن نستطيع أن نكون آنية تصل بنا القوة الالهية الى العالم الهالك . الى الآن لم تسر فينا القوة الا بسرعة قطار البضاعة ، مع أن فى مقدورها أن تسير بقوة القطار السريع (أو الطائرة) ليس هنالك أى مبرر . لماذا لا يكون كل قارىء لهذه السطور من الآن واسطة يعمل بها عزيز يعقوب باقتدار لأظهار قوته . واذا ما تم ذلك فلن يكون هناك أى مجال للحسد أو الكبرياء ، لأنه سوف يصير واضحا أن لله كل الحق فى استخدام أية آنية يريدها وعندئذ يصبح كل المجد لذاك الذى فكر فى هذه النتيجة المباركة وأخرجها الى عالم الوجود .

---

(١) « وكأيامك راحتك » أو « قوتك حسب الترجمة الانكليزية (تث ٣٣ : ٢٥) .



سر البركة

(تك ٤٩ : ٢٥ ، ٢٦ (١))

ان مــن يســير مــع الله يربــح دوامــا
ولا يخسر أية فرصة وما أجمل ارادة الله
له فهــى تنتصــر لحســابه ولخيـــره
ان الشـــر الذى يبـاركه يجعله لنا خيرا.
والخيـر الذى لا يبـاركه يصير لنا شـرا
وكل ما يبدو خطأ فى نظرنا فهو الصواب
ان تدخلت فيه ارادته الصالحة .
(فابر)

يا لنشوة الفرح التى تنبه اليها ذلك الشيخ المتهدم وهو يصف بركة ابنه العزيز ، يقينا ان الألفاظ خانته . والكلمات تعثرت تحت ثقل المعانى التي شحنها بها . انه اذ رجع بذاكرته الى البركات التى بارك بها أسلافه أبناءهم البكر ، وتذكر تلك الكلمات التى باركه بها اسـحق أبوه فى تلك

---

(١) « من اله أبيك الذى يعينك ومن القادر على كل شىء الذى يباركك تأتى بركات السماء من فوق وبركات الغمر الرابض تحت . بركات الثديين والرحم . بركات أبيك فاقت على بركات أبوى الى منية الآكام الدهرية تكون على رأس يوسف وعلى قمة نذير اخوته .

اللحظة الرهيبة ، أعلن أن بركاته فاقت كل بركات من سبقه وعندئذ سبح بخياله فانتقل من سهول مصر المنبسطة الى وطنه الجبلى ، وصرح بأن أمنيته لبركة يوسف تعلو عن كل ما سواها ، كما تعلو الآكام الدهرية عن السهول المحيطة بها فى مصر .

وحتى لو كان قد كدس تشبيها فوق تشبيه ، ومبالغة فوق مبالغة ، لما كان قد استطاع أن يعطينا سوى فكرة ضئيلة عن ثقل المجد والبركات التى لنا فى من كان يوسف مجرد رمز ناقص له . بل ان البركات الجزيلة الواردة فى تث ٢٨ لا ترسم الا خطوطا بسيطة لصورة البركات التى تنتظرنا ، ولتكملة هذه الصورة نحتاج أن نلونها من لوحة الوان الأناجيل والرسائل .

كان منظر الرب بيديه المبسوطتين للبركة هو آخر ما رآه جماعة الرسل وقت الصعود . بهذا المنظر تركهم ، وهكذا سوف يظل الى منتهى الدهور . انه لا يزال جالسا على الجبل ، يدعو تلاميذه اليه ، ويقول « طوبى لكم » ، أى « مباركون أنتم » . وفى سفر الرؤيا نرى تطويبات أخرى كثيرة ، هى جزء من تطويبات لا يمكن أن تحصى ، تخرج من شفتيه الكريمتين بصفة مستمرة . « مبارك الله أبو ربنا يسوع المسيح الذى باركنا بكل بركة روحية فى السماويات فى المسيح » (أف ١ : ٣) .

بركات المعونة اليومية :

« اله أبيك الذى يعينك » . يجب أن يموت الأب الأرضى ، أما الآب السماوى فانه يبقى كمعونة دائمة . فى كل مناسبة نستطيع أن نسمع صوته الهادىء الخفيف يسكن خوفنا قائلا :

« لا تخف لأنى معك .

لأنى أنا الرب الممسك بيمينك .

القائل لك .

لا تخف أنا أعينك » (اش ٤١ : ١٠ - ١٣) .

خليق بنا اذن أن نضم صوتنا مع الكاتب المبارك فنتشجع ونقول « الرب معين لى فلا أخاف . ماذا يصنعه بى انسان » (عب ١٣ : ٦) ، ومع الرسول الذى تعلم كيف يتكل كل الاتكال على معونة الله « اذ حصلت على معونة من الله بقيت الى هذا اليوم » (أع ٢٦ : ٢٢) .

ان معونة الله - فى معظم الأحيان - لا تأتى بكيفية معجزية أو بكيفية ظاهرة ، انما تتسلل الى حياتنا تدريجيا كما تنبت الحشائش على سفح الجبل تدريجيا فى الربيع . قبل أن يقول الناس « هوذا هنا أو هوذا هناك » تكون تلك المعونة قد دخلت وسدت كل أعوازنا . ان الطرق التى يأتى بها الله لمعونتنا متعددة - قد يأتى فى ابتسامة ، فى زهرة ، فى خطاب ، فى قطعة موسيقية ، فى صورة منظر جبلى . فى كتاب ، فى مجىء صديق .

وهو لا يقدم الينا المعونة مقدماً ، بل ما يكفى لحاجة كل لحظة فى وقتها . لا يكدس لنا قوات لنختزنها ونفتخر بها ، بل يسد أعوازنا حسبما تتطلب الظروف . يساعدنا القدير أحيانا بوضع حكمته وقوته ونعمته فى قلوبنا ، وأحيانا بوضع يده على الظروف التى نجتازها ، وأحيانا بتسخير الأصدقاء أو الأعداء ليتمموا ما نحن في حاجة اليه .

أما نوع الوسـيلة فهذا أمر لا يهمنا كثيرا وكل ما علينـا هو أن نثق تماما فى أننا سننال المعونة يقينا . قد تتأخر الى اللحظة الأخيرة ، ولكنها سوف تأتى . « يعينها الله عند اقبال الصبح » (مز ٤٦ : ٥) . ان لم تأت المعونة . المنتظـرة مع آخـر خطاب ، فانتظـــر رســولا خاصا . « ليس مثـــل الله يا يشـــورون . يركب الســماء فى معــونتك والغمــام فى عظمتـــه » (تث ٣٣ : ٢٦) .

لما ينقرض التقى وينقطع الامناء فليس لنا الا أن نصرخ بما صرخ به المرنم مفتتحا المزمور الثانى عشر . هذه هى الاجابة التى أيدها الاختبار قديما ، وأيدها روح البنوة « اله أبيك يعينك » .

بركات السماء من فوق

فى ربنا المبارك نستطيع أن نجد كل ملء الله « لأنه فيه سر أن يحل كل الملء » (كو ١ : ١٩) . ولذلك فمما لا شك فيه « انه فيه يحل كل ملء اللاهوت جسديا ، وأنتم مملوءون فيه » (كو ٢ : ٩ و١٠) .

وملء البركات السماوية هذا موضوع لنا فى يسوع ، كما تخزن المياه فى الأقطار الشرقية لأستخدامها أيام الجفاف الطويلة . والفرق هو أنه فى الحالة الأخيرة قد تجفف الشمس المياه ، أو يتشقق الخزان ، أو تزيد الحاجة عن المياه المخزونة . أما فى يسوع فان كنوز النعمة مليئة دواما

الى حافتها . وبالرغم من كل الطلبات التى قدمها كل القديسين فى كل الأجيال فانه لا يزال ملئه . قد تتضاءل حرارة الشمس مدى الأجيال ، وقد يذبل القمر ، وقد تتناقص مصادر الطبيعة بسرعة أكبر من سرعة استعادة قواها - أما مخازن يسوع فانها كاملة الملء دواما . هى تبيد وأنت تبقى ، ولكنها كثوب تبلى ، كرداء تغيرهن فتتغير . وأنت هو وسنوك لن تنتهى » (مز ١٠٢ : ٢٦ و٢٧) .

ليس الفرق الكائن بين المؤمنين تمييــزا اســتبداديا فى توزيــع النعم الالهية ، لأن الله مســتعد أن يعطى كل واحد منا كل الملء ، وهو لكل واحد يقول « كل مالــى فهو لك » (لو ١٥ : ٣١) . وانما الفرق هو فى كيفية اســتخدام كل واحد منا نصيبه الالهــى . وكأن انســانا غنيا أراد أن يترك لكل واحد من أولاده الخمسة مبلغ عشرة آلاف جنيه . فواحد منهم لا يقدر أن يصدق بأن مبلغا كبيرا كهذا قـد وضع باسمه فى البنك ، ولذلك فـانه لا ينتفع به على الاطلاق ، بل يعيش فى فقر ويموت فى عــوز ، وثلاثة يؤمنــون بأنه لم يوضــع فى حســاب كل منهــم أكثر من ألف جنيــه ، فلا ينفقون أكثر من هذا الحد . أما الخامس - وهو اصغرهم - فيعتقد ان اباه لا يمكن أن يعد بما لا يفى ، ولذلك فانه يسحب كل نصيبه . وأخيرا يكتشف أن هناك بندا فى وصية

أبيه يسمح له بالانتفاع بكل المبالغ التى لم يسبحها اخوته . « خذوا منه الوزنة واعطــوها للذى له العشــر وزنات . لأن كل من له يعطى فيزداد » (مت ٢٥ : ٢٨ و٢٩) .

ان نفس الغنــى الذى لا يستقصى مقدم للجميع بمساواة ولكن البعض لا ينتفعــون بنصيبهم ، والأخرون ينتفعون به جزئيا أما عدد الذين ينتفعــون بنصيبهم كامــلا من الكنــوز الدائمــة المدخرة فى يسوع فانه قليل .

وعمل الروح القدس هو أن ينقل للنفس هذه البركات السماوية . وربنا يرسل الينا دواما من عرشه أساطيل محملة بالبركات ، تحت قيادة وحراسة الروح القدس ، الذى يمجد يسوع باعلان حقيقة غناه ، وتمكيننا من أن نقبل نعمة فوق نعمة .

أية بركات تصبح لنا ان كنا فقط نفتح كل موانئنا للجنود السماوية الحاملة خيرات السماء لنا . انها تكون فى كثرتها كما قيل عما حصل فى أورشليم فى الأيام التى أتت فيها سفن حيرام بثروة الشرق : « وجعل الملك الفضة فى أورشليم مثل الحجارة ، وجعل الأرز مثل الجميز الذى فى السهل فى الكثيرة » (١ مل ١٠ : ٢٧) .

ينبغى أن نتمثل بربنا فى قوة الصلاة ، لكى ننال فرحه وسلامه وقوته ، ونكون أعضاء فى الجسد الذى يعمل فيه ، والذى يعنى به لتغذيته

واحيـانه ، ولكى ندعـى أحباءه الذين يعلن لهـم كل مـا سـمعه من أبيـه (يـو ١٥ : ١٥) يجب أن نمتلىء الى كل ملء الله ، فنمتلىء قوة وصحة وبأسا ، وبذلك لا يكـون هنـاك عـاثر واحد فى كل الجمـاعة « ويكـون العاثر مثل داود ، وبيت داود مثل الله ، مثل ملاك الرب أمامهم » (زك ١٢ : ٨) .

كل هذا يقصـده لنا الله ، ويمـكن أن يكون من نصيبنا ان كنـا فقط نقوم لنطلب بالايمان ما وهبه لنا أبونا السماوى ، واشـترى لنا بالدم الكريم .

بركات الغمر (أى العمق) الرابض تحت

المرجح أن هذه الكلمات تشير الى الفكرة السائدة بأن تحت سطح الأرض أعماق مياه تقدم ما يلزم « لأنهار من عيون وغمار تنبع فى البقاع والجبال » (تث ٨ : ٧) .

هذه حقيقة جيـولوجية وهى فوق ذلك حقيقة روحية . لأن فى الأعماق أيضا بركات لنا . يا لهذه الأعماق : أعماق الله التى تفوق الادراك البشرى . ما لم تره عين ولم تسمع به أذن ولم يخطر على قلب بشر . ما أعده الله للذين ينتظرونه ، وأعلنه للذين يحبونه . أعماق الأزلى ومشورته . أعماق عهده الذى قيد سر الاثم بوثق قوس قزح ، المتقن فى كل شىء ومحفوظ (٢ صم ٢٣ : ٥) . أعماق المحبة التى ارتضت أن

تنزل للعار والآلام مفضلة بالأحرى أن تتحمل خطيتنا عن أن تخسرنا . أعماق صبره العجيب ، الذى لا يكل ، بالرغم من تعدياتنا المستمرة وتمردنا الدائم . يالهذه الأعماق . غمر ينادى غمرا ، كما تدفع موجة أخرى . والمحيط الأطلسى ينادى من قناة بناما المحيط العظيم ذا الآلاف من الجزر .

هنا المجال للتأمل والتفكير . ويالحماقتنا اذ نسعى دواما لتغذية الحواس الخارجية للدرجة التى تنطمس فيها البصيرة الروحية بسبب عدم استعمالها .

هذه هى الأشياء التى تشتهى الملائكة أن تراها . ولكننا مع الأسف نأبى الاقتداء بهم ، ونعكس وجهة نظر الرسول فننظر إلى الأمور التى ترى ، لا الأمور التى لا ترى الأبدية . « الغمر الرابض تحت » .

بركات الثدييين (أو بركات البنين)

يفخر الشرقى بكثرة عدد بنيه . « طوبى للذى ملأ جعبته منهم » (مز ١٢٧ : ٥) . هذه هى اطاعة الأمر الصادر فى البدء « أثمروا وأكثروا واملأوا الأرض » (تك ١ : ٢٨) . لم يكن هناك مبرر للخوف من كثرة البنين فى أرض كانت الحاجة ماسة فيها للرعاة لرعاية القطعان ، وكانت بنات الأشراف لاتحجمن عن أنفه

الأعمال وكان المجال كذلك متسعا لكثرة النسل لتوسـيع كل فنـون الحياة والزرع والحرث .

وفى مثل الظروف كانت كثرة البنين أمرا مرغوبا فيه للدفاع عن الحياة العائلية وانمائها . ولابد أن أفكارا كهذه كانت تجول بخاطرا هذا الشيخ وهو على فراش الموت .

ونستطيع القول أيضا ان الله ليست له بركة أعظم يعطيها لنا من أن يسمح لنا بكثرة عدد البنين الروحيين . أيوجد فرح تحت السماء أعظم من أن يحيينا الرب لأننا كنا واسـطة خلاص الكثيـرين ممن كان لا يمكن أن يعرفوا المسيح أو خلاصه بدوننا ؟ ، وأن نسبق الوقت المجيد الذى نقف فيه معهـم أمام الله قائلين « هانذا والأولاد الذين أعطانيهم الرب ؟ » (اش ٨ : ١٨ ، عب ٢ : ١٣) ، وأن نفكر فى دوائر النفوذ المستمرة الاتساع التى لابد أن تنبعث عن كل نفس نالت الفداء ؟ وهذه البركة فى مقدورنا بنعمة الله .

ويجب أن لا ننسى أبداً الشرط الذى تتوقف عليه كل هـذه البركات . « تكون على رأس يوسف وعلى قمة نذير (أو « المنعزل عن ») اخوته . يجب أن لا نتوقـع الحصـول على هـذه البركـات الممتـازة من الله ان كنا لا ننذر أنفسنا له ولخدمته . انه يعطى هباته - كما يعطى العالم هباته - لمن يكرسون ذواتهم للسعى فى اثرها . لم ينعزل يوسف عن اخوته وأبيه

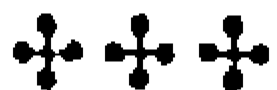
ببعد المسافة بين مصر وكنعان فقط ، بل بأخلاقه عندما كان يعيش معهم . لم تكن غايتهم غايته ، ولا كانت غايته غايتهم . انشغل قلبه بعواطف ورغبات لم تجد الى قلوبهم سبيلا ، وان وجدت الى قلوبهم سبيلا حسبوها متطفلة . وكان هذا هو الذى ملأ قلوبهم حقدا من جهته ، فأبعدوه من وسطهم .

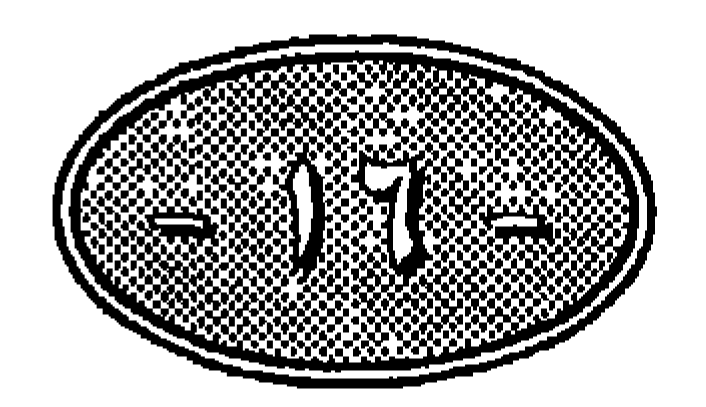
ان مواطنى مدينة الأباطيل لا يستطيعون السير مع السائرين الى أورشليم السماوية ، الذين يجدون شذوذا فى ملابسهم ، ويرون أن وجوههم متجهة الى هدف غير مدينتهم ، وأنهم يسرعون فى شوارعهم هاتفين قائلين « نحن نشترى الحق » .

ونحن أيضا ينبغى أن نخرج ونعتزل ، باذلين الجهد فى ترميم الهيكل الداخلى ، الذى يعترف بأن الوطن الحقيقى وراء النجوم وأن هدفه هو اتمام ارادة الله . وأن أسمى ما يطمع فيه هو الحصول على ابتسامة رضا السيد عندما يقول : نعما أيها العبد الصالح .

واذا ما اتخذت الارادة هذا الاتجاه ، متناسية كل شىء من أجل الشىء الواحد ، فانه لا يحل السلام العميق فى القلب فقط ، بل يكون هناك تقدير متزايد للبركات السابق اليها . فانها تبدو كأنها قد ارتسمت بصورة مكبرة ، وازدادت بقينيتها وقيمتها وسعادتها .

فلنختر بركة حياة الاعتزال ، لأن الرب يأمرنا بهذا . وكلما ازداد ادراكنالها ازددنا اعتزالا عن اللذات التى يجذب بها العالم فرائسه ، ورددنا قول المرنم « يارب لم يرتفع قلبى ، ولم تستعل عيناى ، ولم أسلك فى العظائم ، ولا فى عجائب فوقى . بل هدأت وسكت نفسى كفطيم نحو أمه ، نفسى نحوى كفطيم » (مز ١٣١ : ١و٢) .





أيام يوسف الاخيرة وموته

(تك ٥٠ : ٢٤ و٢٥ (١))

نـور الغسـق ثم المسـاء ثم الظـلام

ولعله لا يكـون هنـاك حزن عند الوداع

لأننـى عنـدما أنتقـل من هذا العـالم

أرى ربى وجها لوجه .

(تنيسون)

« الله سيفتقدكم . فتصعدون عظامى من هنا » . كانت هذه هى كلمات يوسف عند موته . ومما يلاحظ أن هذه هى الكلمات الوحيدة فى تاريخ حياته التى أشير اليها فى الصفحات التالية فى الكتاب المقدس . كانت حياته نبيلة ، وكانت أبرز شخـصيات الكتاب باُستثناء شخصية واحدة .

(١) « وقال يوسف لاخوته أنا أموت . ولكن الله سيفتقدكم ويصعدكم من هذه الأرض الى الأرض التى حلف لابرهيم واسحق ويعقوب . استحلف يوسف بنى اسرائيل قائلا الله سيفتقدكم . فتصعدون عظامى من هنا . ثم مات يوسف وهو ابن مئه وعشر سنين . فحنطوه ووضع فى تابوت فى مصر » .

ويمتاز هذا الحـديث عن كل حديث آخـر باشارته للروح القدس . وطبيعى اننى أشير للكلمات الواردة فى (عب ١١ : ٢٢) « بالايمان يوسف عند موته ذكر خروج بنى اسرائيل وأوصى من جهة عظامه » .
والآن لنلاحظ :

(١) الظروف التى قيلت فيها هذه الكلمات

كان يوسف وقتئذ متقدما فى الأيام . كان قد بلغ من العمر مائة وعشر سنوات . وهذه فتت فى عضده ، وتركت آثارا عميقة فى جمسه . كان قد مضى عليه ٩٣ عاما منذ اخراجه من الجب لكى يباع عبدا ، وثمانون عاما منذ وقوفه لأول مرة أمام فرعون فى جمال وحكمة شبابه ، وستون عاما منذ حمل عظام أبيه بكل مجد وعظمة مصر الى مغارة المكفيلة . وهكذا عمر طويلا حتى رأى وجه أولاد إحفاده الذين ولدوا وتربوا على ركبتيه (تك ٥٠ : ٢٣) . حقا لقد بارك الله عبده الأمين بالعمر الطويل والأيام الكثيرة . والان نراه - وهو يرزح تحت عبء هذه السنين الطوال - ينحدر الى نهاية الحياة الطبيعية .

على أن ظلال انحلاله كانت قليلة بالنسبة للظلال التى رآها تتجمع حول شعبه المحبوب . حين مات يعقوب منذ ستين عاما كان ابنه المحبوب فى أوج مجده . ولأنه كان أبا ليوسف فقد وصلت أيام الحزن عليه سبعين يوما ، أى أقل من أيام الحزن على أى ملك بيومين ، ولم تكن هنـالك أقل صعوبة فى الحصول على الاذن من فرعون لحمل الجثـة ثلاثمـائة ميل ودفنها بجوار إبراهيم وسارة ، واسحق ورفقة ، وليئة .

ولا شك فى أن مشهد الجنازة كان فى غاية المهابة والجلال لم ير مثله كثيرا . لم تخرج أسرة اسرائيل فحسب ، بل أيضا « جميع عبيد فرعون ، شيوخ بيته ، وجميع شيوخ أرض مصر » . وبعبارة أخرى أن جميع عظماء مصر - وهم أرقى طبقة فى العالم - ارتضوا أن يسيروا خلف جثة راع بسيط يهودى الى مقرها الأخير اكراما لابنه . وأيضا « صعد معه مركبات وفرسان . فكان الجيش كثيرا جدا » .

ولكن ستين عاما قد أحدثت تغييرا عظيما كما يتبين من رواية الكتاب . لما مات يعقوب كان كل شىء منيرا ، وأكرم بجنازة عظيمة ، لأنه قدم الى أرض مصر محسنا كريما ومخلصا عظيما فى شخص ابنه ، ولكن لما مات يوسف كان كل شىء قد بدأ يظلم وكانت ظلال كسوف شي تتجمع فوق مستقبل شعبه . ويبدو انه لم يبال أحد فى مصر بموته . لم تعمل جنازة عظيمة له على حساب الدولة . لم يوضع هرم تحت تصرف ابنيه . وفى حديثه لاخوته الملتفين حوله يبدو أنهم كانوا فى أشد الحاجة الى المعونه . وكان لسان حاله ناداهم قائلا : « لقد بذات كل ما فى وسعى من أجلكم . وها أنا أموت ، ومع ذلك فسوف يقيم الله من يحل محلى ، ويعمل لكم كل شىء ، وأكثر من كل شىء ، يعمل لكم ما كنت أتمنى أن أعمله أنا بنفسى » . فى هذه الكلمات نرى نغمة التعزية التى تدل على أنهم كانوا فى حاجة الى وسيط فى القصر الملكى ، والى تأكيد الافتقاد الالهى .

قبل ذلك بثلاثمائة عام جلس مؤسس الأمة العظيم طول النهار بجوار المذبح يزجر الجوارح التى كانت تحوم حوله منجذبة باللحم الموضوع عليه . واذ غربت الشمس أخيرا حل النعاس على ذلك الأب الساهر ، لأنه ليس أمرا هينا أن نسهر مع الله وفى نعاسه حلم حلما . وبدا له كان ظلمة كثيفة تحيط به وتضغط على نفسه . وعلى هذه الظلمة - كما على شاشة بيضاء - ارتسمت بعض لمحات عن مستقبل شعبه . وهمس له صوت الهى فى أذنه مفسرا هذه اللمحات . رآهم قد سبوا الى بلاد غريبة واستعبدوا لشعبها ، وبقوا فيها ثلاثمائة سنة ازدهروا فيها ازدهارا ، وبعدها حصدهم الموت حصدا . وبينما هو يشهد كل هول هذه العبودية اذا رعب ظلمة شديدة قد جثم على نفسه .

ونحن نعلم تماما أن ذلك الرعـب قد بررته الحـوادث التى سـرعان ما حدثت . « فاسـتعبد المصريون بنى اسـرائيل بعنف ، ومـرروا حياتهم بعبودية قاسية فى الطين واللبن ، وفى كل عمل فى الحقل ، كل عملهم الذى عملوه بواسطتهم عنفا » (خر ١ : ١٣ ، ١٤) كانت أولى علامات تلك الكـراهية العـامة نحو اليهو قد بدأت تظهر فى ساعة أختتـام حياة يوسف .

نحن لا نستطيع تحديد الصورة الدقيقة لتلك العلامات . لعله كان قد أبعد عن مجالس فرعون ، أو لعله كان قد بدأ يركن فى احدى زوايا

النسيان ، أو لعل تذمر الكراهية نحو شعبه كان قد بدأ يظهر ، أو لعل أعمال الاضطهاد والقسوة قد بدأت تنتشر بتزايد مستمر ، وأصبح الأمر أعسر من أن يعالج . وعلى أى حال فان الظلام كان قد بدأ يتكاثف . وهذا هو الذى جعل كلماته أشد روعة ، فكانت تضىء كنجوم متلألئة فى ليلة حالكة الظلام .

وفضلا عن هذا فقد كان اخوته حوله . لقد استمر صفحه لهم ومحبته اياهم حتى الموت . دون أن يطرأ عليهما أى تغيير . ومما ورد فى الآيات السابقة من هذا الاصحاح يتبين أن أخوته ظلوا طويلا يشكون فى اخلاصه فى صفحه ، وكانوا فى ذلك يحكمون بحسب قلوبهم السوداء . ظنوا أنه يظهر غير ما يبطن ، لكى يصل الى غاية خفية ، كبركة أبيهم ورضائه . ولذلك خشوا أنه حالما يموت يعقوب ينفجر بركان غضبه العادل الذى توارى طويلا بمهارة فائقة . كان مستحيلا عليهم أن يعتقدوا بأنه لا يحمل من جهتهم أية ضغينة ، ولا يتخذ أى اجراء قط بسبب حوادث الماضى. فقالوا « لعل يوسف يضطهدنا ويرد علينا جميع الشر الذى صنعنا به » (تك ٥٠ : ١٥) .

بكى يوسف عندما قالوا هذا . بكى لأنهم أساءوا الظن به بعد تأكيداته المتكررة ، بكى لأنه رآهم يجثون عند قدميه لطلب الصفح الذى كان قد منحه اياهم بمحض اختياره منذ سنوات طويلة . وبعد

ذلك قال لهم « لا تخافوا . لأنه هل أنا مكان الله . أنتم قصدتم لى شرا . أما الله فقصد به خيرا لكى يفعل كما اليوم . ليحيى شعبا كثيرا » (ع١٩ و٢٠) .

بدا هذا الصفح عجيبا فى نظر هؤلاء الاخوة . لأنه لم يكن من هذا العالم على الاطلاق . كان الرب يسوع - الذى ينير كل انسان آت الى العالم - فى قلب يوسف ، ولو كان أقل ظهورا على لسانه . وكان تصرف يوسف رمزا للمحبة المتجسدة .

أيها القارىء العزيز ، ان يسوع مستعد للصفح عنك هكذا ومهما كنت قد أسأت اليه ، ورفضته ، وصلبته لنفسك ثانية ، وسببت له الخزى والعار ، فانه مستعد أن يصفح صفحا كاملا ، ولا يعود يذكر شيئا من كل هذه فيما بعد . بل أنها ان بحث عنها لما وجدت قطعا ، كانها قطعة حجر ألقيت فى قاع المحيط الاطلسى . فثق بأن يسوع مستعد أن يمنح الصفح الكامل المجانى . واذكر بأنه عندما يغفر فان ذهابك اليه من أجل نفس الخطية لا مبرر له بل يدل ضعف ثقتك فيه . لأنه لا يمكنه أن يغفر نفس الخطية مرتين . ومتى قيلت كلمات « التحليل » على رأس التائب الجاثى على ركبتيه ، فلا داعى لكى يذهب اليه هذا التائب - كما فعل اخوة يوسف - ويقول : أتوسل اليك أن تغفر لى خطيتى التى تعرف أننى أتيت اليك من أجلها بدموع منذ سنوات طويلة .

قيل عن محبة الرب يسوع انه اذ « أحب خاصته الذين فى العالم . أحبهم الى المنتهى » (يو ١٣ : ١) . فهو قادر أن يخلص الى المنتهى لأنه يحب الى المنتهى . هكذا كانت محبة يوسف . لقد تغلبت على أقسى العوامل ، وظلت أمينة حتي النفس الأخير .

فليتنا نحب ونصفح كهذا . هذا ممكن تحت شرط واحد فقط هو أن نفتح قلوبنا لذاك الذى قبل تجسده بأعوام طويلة وجد مسكنا فى قلب ذلك الرجل السياسى العظيم .

وأخيــرا أنه ان كان على فـراش الموت لقد رد الموت عن مصر ، ولكنـه لم يسـتطع أن يـرده عن نفســه . « أنا أموت » كانت هـذه العبــارة ضمن الكلمات التى التقطها من بين شفتى أبيه (٤٨ : ٢١) ، والان يطبقهـا على نفســه . وبعمــله هذا يبين أن ثقتــه ورجاءه قد وصلا الى القمة .

فليت كل واحد منا يستمر مضيئا ، بل يتزايد يوما فيوما حتى النفس الأخير . وليت حياة الروح تشع منها أنوار أكثر حتي وإن فنى القلب واللحم (مز ٣ : ٢٦) .

ليس هناك دليل أقوى على الخلود من هذا : ان اللحم والدم لما يشتد ضعفهما نحس بأن فينا شيئا آخر خلافهما يزداد احساسه وايمانه

بوجود عالم أبدى . ولابد أن يكون هناك عالم يتلاءم مع هذا الشيء الآخر الروحانى المتوثب والمتحفز فينا بشدة .

تحت كل هذه الظروف قال يوسف « الله سيفتقدكم .... فتصعدون عظامى من هنا »

(٢) ولنتامل فى اهمية هذه الكلمات

خليق بنا أن نقارنها بأمنية يعقوب التى قالها فى احتضاره « ادفنونى عند آبائى ... فى المغارة التى فى حقل المكفيلة » (ص ٤٩ : ٢٩ و٣٠) . كان هذا أمرا طبيعيا جدا . فكلنا نتمنى أن ندفن بجوار الأحباء الراحلين . وكان يعقـوب يعرف بأنه لا توجـد صعوبة كبيرة فى اتمام أمنيته ، اذ كان يوسف فى أوج عزه . وطلب الأمـر السـهل المنال لا يحتـاج الى قـوة الايمان .

أما مع يوسف فكان الأمر على العكس . فانه هو أيضا تمنى أن يدفن فى أرض كنعان ، ولكن ليس فى الحال . كان يتوقع أمرين : الأول خروج الشعب من مصر ، والثانى مجيئهم الى أرض كنعان لم يعلم كيف أو متى يتم هذا ، ولكنه كان متيقنا منه .

كانت المظاهر الخارجية التى رآها يوسف تدل على أن تحقيق هذين الأمرين يكاد يكون مستحيلا . فانه عندما نطق بهذه الكلمات بنو اسرائيل

مستقرين فى أرض جاسان ، وكانوا فى تزايد مستمر فى العد والثروة ، حتى أصبح انتزاعهم من الأرض أمرا عسيرا .

وأما من جهة المظـالم التى ربما كانوا قد بدأوا يهددون بها فكيف كان يتاح لهم التخلص منهـا أمام قوات المصريين الحربية الجبارة لو أنهم فكـروا فى الخروج . لهذا لم يكن تنبؤه عن المستقبل مبنيا على نظرته البشـرية البعية المدى ، بل على اعلانات القدير الواضحة . لقد تذكر وعد الله لابراهيم وهـو واقف على الجبـل : « ارفع عينيـك وانظـر من الموضـع الذى أنت فيه شـمالا وجنوبا وشـرقا وغـربا . لأن جميـع الأرض التى أنت ترى لك أعطيهـا ولنسـلك الى الأبـد » (تك ١٣ : ١٤ و١٥) . وتكرر الوعد لاسحق « تغرب فى هذه الأرض .. لأنى لك ولنسلك أعطى جميع هذه البلاد وأفى بالقسم الذى أقسمت لابراهيم أبيك » (٢٦ : ٣) .

وتكرر الوعد أيضـا ليعقوب وهـو مضطجـع تحت قدمى السـلم المنير « الأرض التى أنت مضطجع عليها أعطيها لك ولنسلك » (٢٨ : ١٣) .

واحتفظ بهذه المواعيد بحرص شديد . وكانت تسلم من الخلف الى السلف ، كما كان الاغريق يسلمون الشعلة قديما . فيعقوب كرر التأكيد ليوسف عند موته أن الله سيأتى الى أرض آبائهم . ويوسف بدوره أكد

نفس الرجاء الملتفه حوله التي أكل الخوف قلبها . كانت الكلمة التى قيلت لابراهيم منذ مائتى عام لا يزال يرن صداها في آذان هؤلاء الرجال : « وفي الجيل الرابع يرجعون الى هنا » (تك ١٥ : ١٦) .

لم يستطع يوسف تتبع الخطة الالهية التى بها هذا ، ولكنه كان يكفيه أن يعرف بأن الله قال انهم سوف « يرجعون الى هنا » . لهذا أمر بعدم دفن عظامه ، حتى اذا ما أطلق بوق الخروج ، مهما كان معجلا ، فى أية لحظة ، وجدت مهيأة لتحمل مع الموكب السعيد الى كنعان .

ياله من درس بليغ وجده بنو اسرائيل فى هذه العظام غير المدفونة . عندما كان المسخرون يقسون على الشعب ، فتخور نفوسهم ، لابد أنهم كانوا يجدون تعزية أن يذهبوا ويتطلعوا الى التابوت المحتوى تلك العظام المنتظرة بأن تحمل الى أرض الموعد والراحة . واذ كانوا يفعلون هذا كان لسان حالهم بلا شك يقول : واضح اذن أن يوسف اعتقد بأننا لن نبقى هنا الى الأبد ، ولكننا لابد عائدون الى كنعان ان عاجلا أو آجلا . فلنتحمل فترة أخرى ما نلقاه بالصبر ، ولعل الفرج آت قريبا جدا .

واذا ما جرب البعض بالاستقرار ، مؤملين فى النجاح والاثراء ، أو مكتفين بالثوم والبصل والكرات ، فكان التفكير فى هذه العظام يكبح جماحهم ، اذ كانوا يقولون : واضح أننا لن نبقى هنا على الدوام ، فخليق

بنا أن لا نبى كل أمالنا وسعادتنا على حالتنا المزعزعة وإقامتنا المؤقتة فى هذا المكان .

وعندما كان اليأس يدب فى نفوس الشعب بين الآونة والأخرى بسبب متاعب ومشقات الارتحال فى الصحراء كانت العظام القائمة فى وسطهم توحى اليهم رجاء يوسف الأكيد بأن الله لابد آت بهم الى أرض الراحة .

ونحن ان لم تكن لنا عظام غير مدفونة تبعث الأمل فينا ، وتشعل غيرتنا الباردة ، فان لدينا ما هو أفضل - لدينا قبر فارغ . ويا للمجلدات التى تملأها دروس هذا القبر والتى تتحدث الينا فى صمت . لما مات يوحنا المعمدان تشتت تلاميذه : ولكن لما مات يسوع لم يتماسك تلاميذه معا فحسب ، بل نهضوا الى قوة جديدة . وكان الفرق يعزى لهذا القبر الفارغ فى بستان يوسف الرامى . وهو مستعد أن يفعل معنا نحن أيضا ما فعله معهم .

فهو يحدثنا بأن الرب قد قام من الأموات ، ويحدثنا بأن الملاك الحارس لنا فى رحلتنا عبر الصحراء ليس هو الموت بل الحياة ، ويحدثنا بأن هذا العالم ليس هو مكان راحتنا ولا وطننا ، ولكننا ينبغى أن نطلبهما فوق حيث يجلس المسيح عن يمين الله . ويحدثنا بأن القيامة ليست ممكنة فسحب بل أكيدة ، وأننا سوف نكون عن قريب حيث هو . انه سيرافقنا فى مسيرنا فى البرية ، الى أن نصل ونكون معه ، حيث لا يمد الموت يده ليقطف زهرة أو طفلا أو صديقا .

(٣) ولنتامل فى الروح الذى وراء هذه الكلمات

كان الباعث لها فوق كل شىء هو روح الغربة . حمل يوسف لقبا مصريا وتزوج بمصرية ، وامتزج بالحياة المصرية ، والسياسة المصرية ، والتجارة المصرية . ولكنه كان لا يزال متغربا كما كان إبراهيم فى خيمته خارج أسوار حبرون ، أو كما كان اسحق فى السهول والمراعى الجنوبية ، أو كما كان يعقوب يعيش معتزلا عن أهل البلاد . قال عنه أحدهم : « انه ملأ مكانه فى بلاط فرعون بمنتهى الجداره والمقدرة ، ولكن كلماته عند احتضاره فتحت ثغرة فى نفسه ، وكشفت شعوره بأنه لم يكن الى الوسط الذى يعيش فيه . ومع أنه كان محاطا بمدنية قديمة ، ويعيش وسط الهياكل الجرانيتية والأهرام الراسخة والتماثيل الثابتة - وكلها ترمز للأبدية - الا أنه اعترف بأنه « ليست له مدينة باقية ، بل طلب مدينة عتيدة » .

فى بعض الأحيان نتحدث كأن روح الغربة مستحيلة علينا نحن الذين نعيش وسط هذه المدنية الموطدة الأركان . فمنازلنا قوية الأساسات ، وحياتنا ليست وهمية . ان جالت بخاطرنا أفكار كهذه فخليق بنا أن نتأمل فى حياة يوسف ونتذكر كيف انه كان يستوحى الحياة من أولئك الذين « أقروا بأنهم غرباء ونزلاء على الأرض » (عب ١١ : ١٣) .

أيها الاخوة ، ما هي غايتنا في الحياة ؟ هل أغراضنا محدودة بحدود أفق الأرض الضيق ، وحدود الزمن الذى يطير بسرعة البخار ؟ هل نشغل في بناء الوكر الدافىء الذى نقضي فيه شيخوختنا ثم نموت ؟ هل نحن نحاول بصفة مستمرة أن يستمتع بأكبر قسط من اللذة في الحياة ؟ أخشى أن تكون هذه أعراض الكثيرين ممن يسمون أنفسهم مسيحيين ان صح هذا فمن العبث أن يدعوا أن لهم صلة بجماعة الغرباء والنزلاء الذين يتزايدون على الأرض ، والذين قد وضعوا قبلة أنظارهم المدينة التى لها الأساسات ، وطنهم الحقيقى ، ومدينتهم الحقيقيه .

ومن الناحية الأخرى أنه من المعقول جدا أن تكون رئيسا لدائرة عمل كبيرة ، منشغلا بالتزامات دائمة كثيرة ، ومع ذلك يكون قلبك - كيوسف - بعيدا عن الأمور التى ترى ، الوقتية ، ومتعلقا بكل أشواقه السرية ، بالأمور التى لا ترى الأبدية .

وروح الغربة لا يجعلنا غير عمليين . كان يوسف رجلا عمليا لم يضارعه أحد في زمانه . من هو جدير بأن يكون نشيطا سريعاً كاملا . الا أولئك الذين يشعرون بأنهم يعملون للأبدية ، وأنهم يبنون يوما بعد يوم ذلك العالم الذى سوف يعيشون فيه فيما بعد ؟ وكل يوم انما هو بناء للأخلاق ، اما للأفضل أو للأسوا . كل عمل خيرا كان أم شرا ، هو حجر في البناء . وكل لحظة تدل على نوع الأبدية ، لأننا سنجازى حسب أعمالنا .

وروح الغربة يجعلنا بسطاء . هناك نوعان من البساطة : بساطة الظروف ، وبساطة القلب . هناك أشخاص كثيرون يتناولون من الطعام أبسطه ، ويجلسون على أبسط مائدة ، بقلب متكبر متعجرف . وهناك أشخاص كثيرون أيضا يتناولون من الطعـام أفخره ولكن بقلب فى منتهى البسـاطة ، والعالم لا يقدر أن يعرف هذه البساطة . لكن هاك يوسف مثلا رائعا . أيها الأخ الحبيب ، ليس الفقر هو الذى يخلق البساطة ، بل الروح الذى تيطلع من وراء العالم الزائل الى قمم الآكام الدهرية السفلية والعلوية .

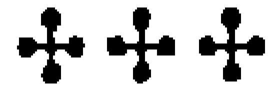
ياله من فرق شاسع بين كلمات سفر التكوين الافتتاحية وكلماته الختامية . استمع الى الكلمـات الافتتاحية « فى البدء خلق الله » . واستمع الى الكلمات الختـامية « ووضع فى تابوت فى مصر » . هل هذا هو كل شـىء ؟ هل تنتهى كل خليقـة الله وعمـله الى تابوت حقير ؟ كـلا ، فهده هى نهاية سفر التكوين فقط ، سفر الابتداء . قلب الصحائف ، بعد ذلك نجـد سـفر الخـروج ، ويشـوع والملوك ، والأنبيـاء ، والمسيح .

ان الله لا يعتمد على أى واحد منا . نحن انما نتمم عملنا التافه ونكف ، أما عمل الله فانه يستمر الى الأبد . وهيكله يعلو جيلا بعد جيل . ويكفى

كل واحد منا أن يعيش كيوسف حياة حقيقيةطاهرة قوية نبيلة . ثم نترك لله أن يهتم بأجسادنا وأحبائنا الذين نتركهم مكرهين ، وبخدماتنا ، وهو لن يتخلى عنا .

« وأخـــذ موســى عظـــام يــوســـف معـــه » ليــلة الخـــروج (خر ١٣ : ١٩) .

« وعظـام يوسـف .. دفنوها فى شـكيم . فصارت لبنى يوسف ملكا » (يش ٢٤ : ٣٢) .



رقم الإيداع : ٢٢٨٧ / ٧٨

طبع بشركة هارمونى للطباعة

ت : ٦١٠٠٤٦٤



مكتبة المحبة
٣٠ شارع شبرا - القاهرة - ت وفاكس : ٥٧٥٩٢٤٤ - ٥٧٧٧٤٤٨